

kuwait.net
منتديات ياكويت



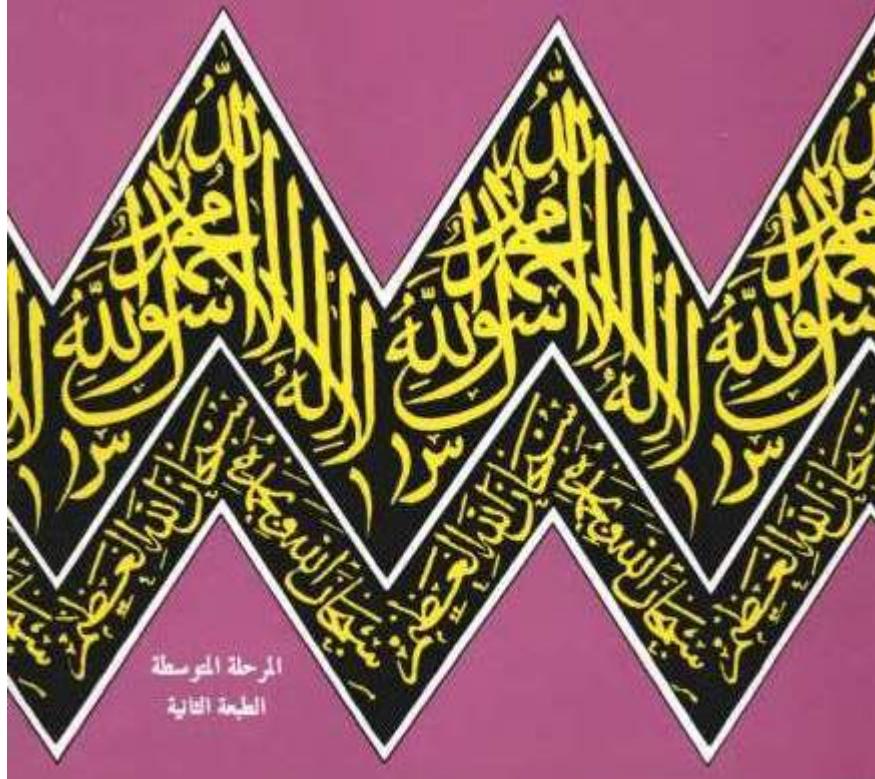
وزارة الثقافة

لِقَاءُ الْعَرَبِ الْكَرِيمِ

(الجزء الخامس والعشرون)
العدد الرابع

٢٥

المرحلة المتوسطة
الطبعة الثانية





وزارة التربية

تَقْسِيمُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الجُزُءُ التَّعَاوِيُّنُ وَالْعِشْرُونُ

الصف السابع

تأليف

محمد محمد عبد الحليم الشيخ (مشرفاً)

الدكتور / يوسف عبد الرحمن الفرات

محمد نصر مصطفى نمرة

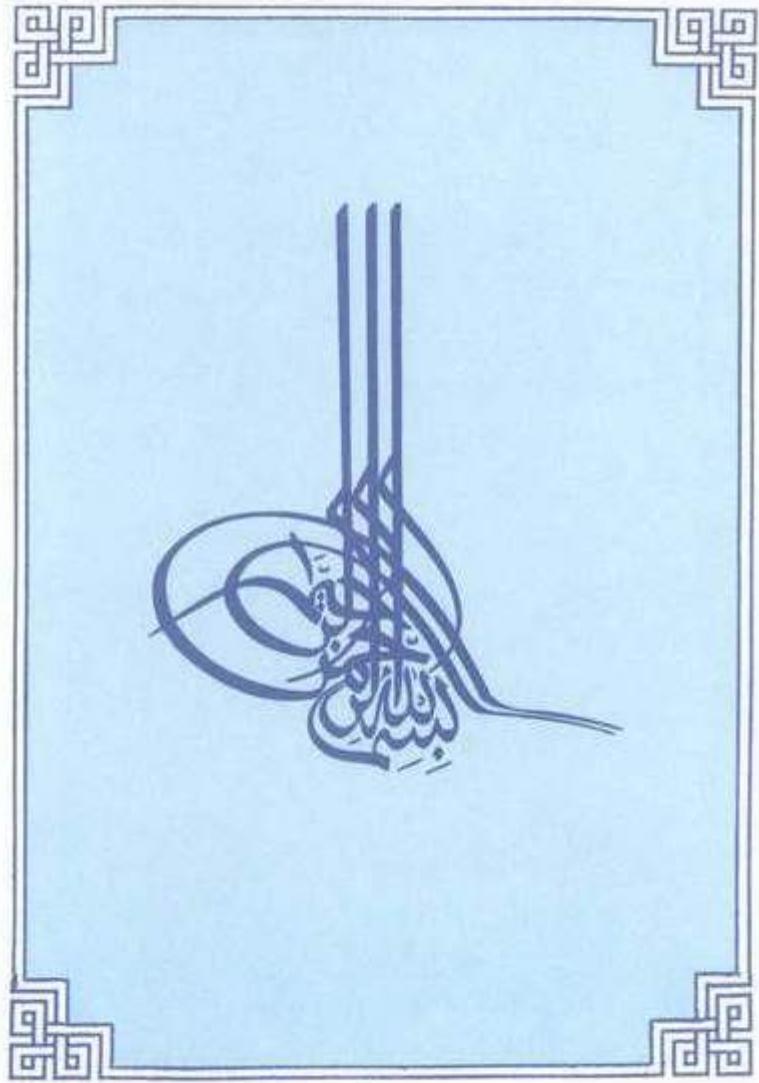
الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ

٢٠٠٦ - ٢٠٠٧م

حقوق النسخ والتكييف والنشر محفوظة لوزارة التربية - قطاع البحوث التربوية والمناهج
ادارة تطوير المناهج

الطبعة الأولى م ٩٩٨٨/٨٧
الطبعة الثانية م ٩٩٩٠/٨٩
م ٩٩٩٣/٩٢
م ٩٩٩٤/٩٣
م ٩٩٩٥/٩٥
م ٩٩٩٦/٩٧
م ٢٠٠٠/٩٩
الطبعة الثانية - م ٢٠٠١/٢٠٠٠
م ٢٠٠٢/٢٠٠١
م ٢٠٠٣/٢٠٠٣
م ٢٠٠٤/٢٠٠٤
م ٢٠٠٧/٢٠٠٦



محتوى الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
٩	(من سورة فصلت)
٢٥	سورة الشورى
١٠٧	سورة الزخرف
١٨٦	سورة الدخان
٢٢٣	سورة الجاثية

«المقدمة»

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين
نذيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي جعل في السماء بروجاً،
وجعل فيها سراجاً وقمراً متبراً. ونصلی ونسلّم على من
أرسله الله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله،
وجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً.

أما بعد:

فهذا تفسير للجزء الخامس والعشرين من كتاب الله
الكريم، راعينا فيه الإيجاز بلا إخلال، والتفصيل عند
الحاجة بلا إملال، مع الحرص على سهولة العرض،
وضوح العبارة، والالتزام بمنهج السلف الصالح في التفسير
بالمأثور، فإن لم نجد ففي لغة العرب متنع للباحث
الصبور، فإن القرآن نزل بلغة العرب كما قال تعالى:
«وَكَذَلِكَ أَوْجَنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أَمَّ الْفُ�َرِ وَمِنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَرَبِّ فِيهِ»^(١)

فنسأل الله أن يتقبل منا عملنا هذا، و يجعله في ميزان حسناتنا،
ويتجاوز برحمته عن سيئاتنا، ونسأله سبحانه أن ينفع به كاته
وقارئه ومن أعان عليه.

والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

(١) سورة الكوثر/ الآية ٧

«من سورة فُصْلَتْ»

تمهيد:

كانت الآيات الكريمة التي سبقت مطلع هذا الجزء قد أشارت إلى اختلاف الناس على أنبيائهم، وأن رسول الله يتبعون لأداء مهمّة واحدة، هي تعريف العباد بربهم، وفضله عليهم، ووجوب الإيمان به وتوحيده وعبادته وحده، وأن موقف الأقوام من أنبيائهم كان متشابهاً، فالكلّ قوبل بالتكذيب والسخرية «مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ»^(١). ولقد ساقت الآيات الكريمة نعوذجاً من الأنبياء مع قومه هو (موسى) عليه السلام، فقال تعالى: «وَلَقَدْ هَأَتَنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ»^(٢) كما اختلف قومك عليك يا محمد وعلى كتابك. «وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»^(٣) لولا أن الله تعالى قد أجل حكمه في الفصل بين الأنبياء والمختلفين معهم والمكذبين بهم من أمّهم، إلى يوم الفصل الموعود - لنزل العذاب بالمكذبين من أمّتك، ولكن هذا اليوم لا يعلم وقت مجيئه إلا الله. «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتٌ»^(٤).

(١) سورة فُصْلَتْ / الآية ١٣
(٢) سورة البقرة / الآية ١٧

(٣) سورة هود / الآية ١١٠

(٤) سورة يس / الآية ١٩

وَيَوْمَهَا يَتَبَيَّنُ النَّاسُ الْحَقُّ . وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ صَنَعُوا فَلِتَقْبِيهِ
وَمِنْ أَسَاءَةِ فَعَلَّبَا وَمَا رَبَكَ بِظَلَمٍ تَعَيَّدُ^(١) .^(٢)

فَكَانَتِ الْمَنَاسِبَةُ بَيْنَ الْأَيَّاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي اخْتَمَّ بِهَا الْجَزْءُ
الْسَّابِقُ^(٣) وَالْأَيَّاتِ الَّتِي أَفْتَحَ بِهَا الْجَزْءُ الْخَامِسُ وَالْعَشْرُونُ - أَنَّهُ
تَعَالَى عِنْدَمَا هَذَهُ الْكَفَارُ بِأَنَّهُ لَا يَدِيْدٌ أَنْ يُجَازِيَ الْمُحَسِّنُ
بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ، وَهَذَا مَا يَقْتَضِيهِ عَدْلُهُ حَتَّى لَا
يَسْتَوِي الْخَبِيرُ وَالْطَّيِّبُ ، كَأَنَّ سَائِلاً قَالَ: وَمَنْ يَكُونُ يَوْمَ
الْفَصْلِ هَذِهِ؟ - فَأَخْبَرَ الْحَقَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَنَّ أَمْرَ هَذَا الْيَوْمِ وَمَوْعِدَ
حُلُولِهِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ: لَأَنَّهُ مَا اسْتَأْتَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ، وَجَاءَ
الرَّدُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِلَهٌ يَرْدِعُ عَمَّا يَأْتِي»^(٤) .

(١) مِنْ فَصْلِتُ / الْأَيَّةُ ١٦

(٢) الْأَيَّةُ ١٧

(٣) مِنْ فَصْلِتُ / الْأَيَّةُ ١٧

(١)

من الآية ٤٧ إلى الآية ٤٨ من سورة فصلت



« معاني الكلمات والجمل »

إِلَيْهِ يَرْجِعُ :

إِلَيْهِ يَرْدُ

عِلْمُ الْأَنَّا

عِلْمُ الْأَنَّا

عِلْمُ الْأَنَّا

الْأَكْمَامُ : جُمُعُ كُمَّ ، وَهُوَ كَأس

مِنْ أَكْمَامِهَا

الزَّهْرَةُ وَعَوْزُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْتَفِعَ .

أَيْنَ شُرُّكَاهُ : أين آلهتكم الذين عبدتموهم في
 الدُّنْيَا، وجعلتموهم شركاء لي ؟
 أَذْنَكَ : أخريناك وأعلمتك.
 مَاعِنَّا مِنْ شَهِيدٍ : ليس من أحد يشهد أن لك شريكا.
 وَضَلَّ عَنْهُمْ : وغاب عنهم وبطل.
 مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلٍ : ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون
 الله .
 وَظَنُّوا : أيقنوا.
 تَحِصُّ : مهرب أو نجاة.
 الْشَّرِحَ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ

يَتَفَرَّدُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِعِلْمِ أَشْيَاءٍ لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي مَعْرِفَتِهَا
 وَإِدْرَاكِهَا، وَمِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ :

١ - معرفة موعد يوم القيمة :

وَالْقِيَامَةُ سَتَكُونُ إِذْنَانَا بِنَهَايَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُظَاهِرَهَا،
 وَبِدَايَةِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَذَابٍ مُّقِيمٍ لِلْكَافِرِينَ، أَوْ
 نَعِيمٍ دَائِمٍ لِلْمُسْتَقِينَ .

وقد كرر القرآن الكريم والسنّة النبوية كثيراً أن موعد

الساعة غيبٌ، لا يعلمه إلا الله عز وجل، قال تعالى:
 «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي
 لَا يُجِيلُهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ»^(۱)، وقد طلب جبريل عليه السلام - من
 رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يخبره عن الساعة.
 فقال له الرسول الكريم: «ما المسؤول عنها بأعلم من
 السائل»^(۲).

وقد كان الكافرون يسألون نبينا - صلى الله عليه وسلم - عن
 يوم البعث سؤال إنكار وتحدى، فتتجيئ هذه الآية الكريمة
 جواباً عما يدور في رؤوسهم من إنكار، وكأنهم يقولون: إن
 كنت نبياً فأخبرنا متى قيام الساعة؟ ففيأتهم الرد القاطع
 الحاسم: «إِلَهِ يُرْدِعُ عِلْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ مَرْبَطٍ مِنْ أَحْكَامِهَا»^(۳).

٢ - معرفة موعد نضج الثمرات :

والآية الكريمة تؤكد علم الله الشامل للمحيط بكل شيء
 في هذا الوجود، إذ لا يعلم أحد ما الذي تخرجه الأشجار من
 الشمار، وماذا يبقى من الزهر حتى يُ smear، وماذا يسقط قبل أن

(۱) سورة الأعراف / الآية ۱۸۷

(۲) سورة لقمان / الآية ۱۷

(۳) أخرجه المسند لا البخاري عن ابن عمر عن أبي عبد الله من المطلب رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري في «كتاب حلزون العسل» عن أبي الصدف عن حمزة بن زيد، وصورة سيف الله من مسد ابن عمر، (تحفة الأنوار ۶/ ۷۱)

يُثْمِرُ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُهَا إِحْصَاءً وَعَدْدًا حَتَّى قَبْلَ أَنْ تَصْبِحَ ثَمَرَةً: «أَلَا يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِهِ وَهُوَ أَطْلَفُ الْجِنِّينَ»^(١).

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْبِطُ عِلْمَهُ بِمَا تَخْرُجُهُ الْأَكْعَامُ مِنْ ثَمَراتٍ، وَبِالْوَقْتِ الَّذِي يَتَمُّ فِيهِ نَضْجُ هَذِهِ الثَّمَراتِ بَعْدَ أَنْ تَنْفَتَحَ الْأَكْعَامُ وَتُزَهَّرُ، وَتُبَيَّنَ لِلثَّمَراتِ أَنَّهُمْ يَتَمُّ نَضْجُهُمْ، وَيُمْكَنُ الْإِنْفَاعُ بِهَا.

٣ - معرفة الحفل والوضع :

وَلِيُسْ لِأَحَدٍ غَيْرَ اللَّهِ - تَعَالَى - أَنْ يَعْرِفَ حَمْلَ الْإِنْاثِ وَلَا وَضْعَهُنَّ.

وَإِذَا كَانَتِ الْآيَاتُ هَنَا قَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْثَّلَاثَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ - سَبَّحَانَهُ - لَا يَقْفُزُ عَنْدَ حَدُودِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، بَلْ إِنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ مَا كَانَ وَمَضَى، وَكُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ وَحَاضِرٌ، وَكُلَّ مَا يَكُونُ مَا يَسْتَقْبِلُهُ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ، سَوَاءً أَدْرَكُوهُ وَعَهْدُوهُ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا سُرُّهُ وَلَمْ يَعْلَمُوهُ.

٤ - نَدَمٌ لَا يَنْفَعُ :

إِنَّ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا يَأْسُوُنَ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ - عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ، وَتَنَقَّفُ

(١) سورة الملك / الآية ١١

الستُّهم عن اللُّجاجة التي عُرِفوا بها في الدنيا، حين يَبْهُثُم
الله - عز وجل - بسؤالهم عن زعمهم بأنَّ الله شركاء، وأين
هؤلاء الشركاء يوم القيمة؟ و ساعتها لا يجدون حيلة إلا أنْ
يعرفوا بأنَّهم خاسرون بسبب دعواهم الفاسدة ويقولون
نادمين: إِنَّا نَدْرُكُ الْآنَ وَنَسْتَيْقِنُ أَنَّ لَيْسَ لَكَ يَا رَبُّنَا مِنْ
شَرِيكٍ، وَأَنَّ لَيْسَ مَنَا إِلَّا مِنْ يَعْرِفُ بِاللَّهِ - سَبَحَانَهُ - رَبِّنَا، وَيُقْرَأُ
لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَيَشْعُرُونَ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ بِأَنَّ شَرِيكَاهُمُ الَّذِينَ عَيْدُوهُمْ فِي الدُّنْيَا لَنْ يَنْفَعُوهُمْ،
بَلْ ضَلَّوْا عَنْهُمْ وَغَابُوا، وَلَمْ يَعْدُهُمْ وُجُودُهُمْ، وَسِيرَكُونَهُمْ
يَعْانُونَ الشَّدَائِدَ وَالْأَهْوَالَ وَحْدَهُمْ، وَلَنْ يُسْعِفُوهُمْ مَا هُمْ
فِيهِ، وَسُوفَ يَوْقَنُ الْكَافِرُونَ أَنَّهُمْ ضَلَّلُوا السَّبِيلَ فِي دُنْيَاهُمْ
بِاتِّخَادِ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ الزَّانِفَةِ الَّتِي أُورَدَتْهُمْ مَوَارِدَ التَّهْلِكَةِ،
وَأَنَّ لَا مُخْرَجَ لَهُمْ وَلَا نَجَاءَ وَلَا مَفْرَرٌ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي
أَعْدَهُ اللَّهُ لَهُمْ جَزَاءً وَفَاقُوا عَلَىٰ مَا فَرَطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَمَا
أَخْرَجُوا فِي حَقِّ أَنفُسِهِمْ.

* * *

(٤٢)

من الآية ٤٩ إلى الآية ٥١ من سورة فصلت

لَا يَسْمَعُ

الْإِنْسَنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَّا هُوَ إِلَّا شَرٌ فَيُعْوَسُ
 قَوْطٌ ④ وَلَهُ أَذْنَانٌ رَحْمَةٌ مِنَّا مِنْ بَعْدِ حَرَاءَ مَنْ هُوَ
 لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَنْظَلَنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَهُ رَجْعَةٌ
 إِلَى رَبِّهِ إِنَّ لِي عِنْدَمِ لَهُنَّنِ فَلَنْتَيْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِمَّا عَمِلُوا وَلَذِكْرُهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيبٌ ⑤ وَإِذَا
 أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَغْرَصْنَاهُ وَنَعْجَبْنَاهُ وَإِذَا مَسَهُ
 الشَّرُّ فَلَدُو دُعَاءً عَرِيضٌ ⑥

« معاني الكلمات والجمل »

- | | |
|--|--|
| لا يَسْمَعُ الْإِنْسَنُ : لا يَعْلَمُ
مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ : من طلب الخير لنفسه كالمال والولد
والصحة . | لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَنُ
مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ |
|--|--|

مَسْهُ الْشَّرِّ

والعرض.

فَيَعُوْسُ قَنُوتُ

في الخير ورحمة الله.

هَذَا لِي

وعملٍ وعلمي.

وَمَا أَظَنَّ الْأَسَاءَةَ قَائِمَةً : لا أتصور أن القيامة آتية.

إِنَّ لِي عِنْدَمُ تَحْسِنَنِي : إن لي عنده الكرامة والمثوبة
الحسنى.

فَلَئِنْبِنَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِمَّا أَعْمَلُوا

أَعْرَضُ وَنَأْيَ بِأَنِّيهِ : انصرف وتباعد عن الشكر استكباراً
وتجرأ.

فَلَدُو دُعَاءَ عَرِيشِنِ

: فهو صاحب رجاء في الله كبير،
واللحاح في الدعاء كثير، حتى
يصرِّف الله عنه الشر.

الشرح

* الكافر في قلق دائم :

إن من طبيعة الإنسان الذي فسدت فطرته، وانقطعت
صلة بربه، أن يُشد في حياته الغنى والجاه، ويطلب كل ما

يُعْدُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ، وَيَتَمَّنِي الْعَافِيَةُ فِي الصَّحَّةِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ
وَالْوَلَدِ، فَهُوَ لَا يَمْلِئُ مِنْ طَلْبِ الْخَيْرِ، وَالْإِسْتِرَادَةِ مِنَ النَّعْمَ،
غَيْرُ مَعْتَرِفٍ بِالشُّكْرِ لِمَنْ أَفَاضَ عَلَيْهِ هَذَا الْخَيْرِ، إِنَّا أَصَابَهُ
مَكْرُوهٌ، أَوْ حَلَّتْ بِهِ بُلُوغٌ، اضطُرْبَ وِمَاجٌ، وَتَدَمَّرَ وَبَالِغٌ فِي
الشُّكْرِيَّ، وَأَصْبَحَ كَثِيرُ الْيَاسِ وَالْقُنُوطِ مِنْ أَنْ تَنَالَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ
تَعَالَى مَرَةً أُخْرَى؛ لَأَنَّ الْإِيمَانَ عَزَّ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَمْسِ الْيَقِينُ
شَغَافَ قَلْبِهِ، وَلَمْ يَضْقُلِ الدِّينَ رُوحَهُ، وَلَمْ يَقُوَّ لِذَلِكَ - عَلَى
مُوَاجِهَةِ الشَّدَّةِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِ، وَخَارَتْ عَزِيزَتِهِ أَمَامَ مَا ابْتَلَى
بِهِ، نَتْبِعْجَةً صَلَتْهُ الضَّعِيفَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَعَدَمَ ثُقَّةِ بِرَحْمَتِهِ عَزَّ
وَجَلَّ.

بل إن الكافر إذا رزقه الله الخير، وأنعم عليه بعد الشدة والباس، وفُرج عنه بعد الصيق واليأس - رَعْمَه إِنَّمَا نال الرُّضوان عن استحقاق وجداره، وَأَنَّ مَا يُصْلِي إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَفَضْلٍ إِنَّمَا هُوَ نَتْيَجَةٌ كَفَاحِهِ وَعَمَلِهِ وَجْهَهُ وَاجْتِهَادُهُ، وَلَيْسَ لَأَحَدٍ عَلَيْهِ فَضْلٌ وَلَا مُنْهَىٰ. فَإِذَا اسْتَمْرَ جَرِيَانُ الْخَيْرِ عَلَيْهِ، وَزَادَ بِهِ تَمْكِنًا فِي الْأَرْضِ، أَزْدَادَ كُفَّارًا وَعُتُّبًا وَإِنْكَارًا لِلْبَعْثَةِ وَالْحِسَابِ، فَتَبَعَّدُ مَجِيئُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَاتِلًا: « وَمَا أَنْظَلَ السَّاعَةَ قَاتِلَهُ... »^{١٠} وَذَلِكَ لِمَجْدِ اطْمَئْنَانِهِ إِلَى مَا أَصَابَ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا نَالَ مِنْ جَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ فِي الدُّنْيَا، فَيُنْسَى مُصَدَّرُ نِعْمَتِهِ، وَيُتَبَطِّرُهُ الرَّحَاءُ، فَيُكَفِّرُ وَلَا يُشْكِرُ، ثُمَّ يُغَالِطُ وَيُطْغِي، فَحَسْبُ أَنَّ مَا يَمْلِكَ يَحْمِيهِ إِذَا كَانَتْ هَنَاكَ عُودَةٌ إِلَى اللَّهِ

سبحانه؛ لأنَّه يعتقد أنَّ صاحب الجاه في الدنيا لا بدَّ أن يكون صاحب وجاهةٍ في الآخرة إنْ كانت هناك آخرة، فمع جحوده ونكرانه يرى أنه جدير بالتكريم، وأنَّ الله تعالى سُيِّئَ له النعيم المقيم، والتقدير الكبير، والمنزلة العالية يوم القيمة،
«وَلَمَّا رُجِعَتْ إِلَى رَبِّهِ مَا نَأَى عِنْهُمْ لَهُمْ نَسْنَى»^(١).

وهذا النوع من الغرور والكثير، يسيطر على نفس هذا الكافر، وهو لا يدرى أنَّ الله - عز وجل - أحصى عليه أفعاله القبيحة التي سُيِّئَ بها، وقد أعدَّ له عذاباً غليظاً شديداً يستأهله؛ جراء كفره بحقائق الإيمان التي كان يجب عليه التسليم بها، ونكران النعم التي أُسْبَغَها الله - تعالى - عليه في الدنيا.

وهكذا شأن الإنسان حين تلتوى قدرته، ويُحرِّم التوفيق والهداية، فيعمى عن الحق والاعتدال، فإذا أتَمَ الله - تعالى - عليه استكباراً وتجبراً، وتمكّن الغرورُ من نفسه، وتبسيَّ فضل ربِّه عليه. فإذا أصابه مكرهه، أو نزلت به ضائقة، أو حلَّتْ به مصيبة - تضليل وهان وصغر، وأكثر الضراعة، ولجمَّ إلى الله، يدعوه في الحاج ورجاء أن يكتشف عنه السوء، ويردُّ عنه الفَضْلُ، ويدفع عنه الأذى... !!

فما أقبح هذا الطبع اللثيم الذي يُنسى الله الرزاق في وقت الرخاء، ويُعرَفُ إليه في وقت الفتق والبلاء!!

(١) سورة فصلت / الآية ٤٠

(٣)
من الآية ٥٢ من سورة فصلت إلى آخر السورة

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرُوكُمْ بِهِ مَنْ أَصْلَى مِنْ هُوَ فِي شَقَاقٍ
بَعْدِ ② سَرِّيهِمْ ۚ أَيَتَنَا فِي الْآفَاقِ وَقَنْ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ ۖ أَوْ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ وَشَيْءِ ③ الْأَمْمَهُمْ فِي مِنْ يَغْرِي مِنْ لِفَاءَ رَبِّهِمْ
أَلَّا يَنْرِي كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ يُحِيطْ ①

معاني الكلمات والجمل

- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ : ماذا تفعلون يوم القيمة حيث يثبت
عِنْدِ اللَّهِ أن القرآن كلام الله.
- مَنْ أَصْلَى مِنْ هُوَ فِي شَقَاقٍ بَعْدِ : من أكثر ضلاله من الذي أصط علی
الكفر، وشدة العداوة والخلاف.
- سَرِّيهِمْ ۚ أَيَتَنَا : سنكشف لهم العلامات التي تؤكد
أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

في أَلْأَفَاقِ : في أقطار السموات والأرض .
 أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرِّيكَ أَهُمْ : الا يكفيهم أن الله الذي أرسلك لا
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشَيْدُ مُغَيِّبَ عنْهُ شَيْءٌ في الكون ؛ لأنَّهَ
 مطلع على كل شيء ؟
 فِي مِرْأَةِ : في شك عظيم ورببة .
 إِنَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ وَمُجِيبٌ : ألا إن الله تعالى واسع العلم
 والقدرة ، لا تخفي عليه خافية .

الشرح

* القرآن الكريم كلام الله وهو الحق المبين :

ترسم الآياتُ الْكَرِيمَةُ السابقة موقف الكافرين من الإيمان
 بالقرآن الكريم ، وتهيب بالنبي محمد - صلى الله عليه
 وسلم - أن يقارعهم بالحججة الواضحة ، فيقول لهم : إذا ثبت
 أن هذا القرآن الذي تنكرؤنه من عند الله ، فماذا أنتم فاعلون
 يوم القيمة حين تتجلى الأمور ، ولا يصح في النهاية إلا
 الصحيح ، وهو أن القرآن من عند رب العالمين .. !؟

إنكم أيها الكافرون ستدموا أشدَّ الدمامَة ، في وقت
 لا يمكنكم فيه تدارُك الموقف ، ولا الرجوع عن اعتقادكم
 الخطاطين .

إن إنكار الكافرين للقرآن ، وقولهم : إنه من عند

غير الله، جريمةٌ كبرى، وهم بذلك في متهى درجات
الضلال، والبعد عن الجادة، وإن سب هذا الإنكار هو
عنادهم واستكبار زعمائهم، وخسيتهم أن يضيع جاههم بين
قومهم: ولذلك كانوا يعتقدون أن ينزل القرآن على رجل من
أغنيائهم، مثل (الوليد بن المغيرة) في مكة، أو (عروة بن
مسعود الثقفي) في الطائف، «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنْ أَهْلِ الْقَرِبَاتِ عَظِيمٍ»^(١). ونبي هؤلاء الكافرون أن الله
يختار رسلاً، ويصطفىهم من عباده المخلصين «إِنَّمَا أَعْلَمُ بِمَ
يَعْمَلُ رِسَالَتِهِ»^(٢) وأنه ليس من شرط النبوة الغنى والجاه؛ لأنها
منزلة روحية، لا ينالها إلا من رحم ربك «وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مَا
يَجْمِعُونَ»^(٣). ولذلك سيعلم الله الكافرون أن القرآن هو الحق
المبين، بما سيظهره الله تعالى للعرب في أنفسهم وفيمن
حولهم، حين يتم الله على المسلمين فتح مكة، والسيطرة
عليها، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً. وحين ينصر الله
عباده المؤمنين، ويفتح عليهم البلاد من حولهم، بحيث
تصبح مكة مركزاً للكون، ومنارةً للهدى في العالمين..!

ومما يؤكد أن القرآن صدقٌ وحقٌ أن الله - سبحانه - قد
وعدهُ الناس والمسلمين بفتح مكة وغيرها من البلاد، وأخبر بأن

(١) سورة الزمر / الآية ٣٤

(٢) سورة العنكبوت / الآية ٣١

(٣) سورة الأنعام / الآية ١٢٤

الغلبة ستكون لل المسلمين على فارس والروم بتأييد منه، اقرأ -
 إن شئت قوله تعالى عن فتح مكة : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ۖ أَمْبَينَ حَلَقِينَ رُهْ وَسَكْرُ وَمُقْصِرٍ بَنَ لَا تَحْأُفُونَ ۝ »^(١)
 واقرأ كذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا ۝ غَلَبَ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي يَوْمٍ يُبَيِّنُ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ ۝ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يُتَصَرَّفُ اللَّهُ يَنْصُرُ مِنْ يَشَاءُ ۝ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ »^(٢)

وقد أنجز الله لنبيه وللمسلمين وعده، ونصر عبده، وأعز جنده. وأيضاً فإن الله تعالى قد تحقق وعده، فكشف للناس عن آيات قدرته وعظمته، وعلمه وحكمته ، في الأفاق وفي الأنفس، وأراهم شيئاً من أسرار خلقه في الأرض والسماء، فغيروا الكثير من مفاهيمهم الخاطئة، وعادلوا الكثير من معلوماتهم المغلوبة عن الكون والأفلاك والكتاوب والنبات والحيوان والمعادن والجبال والأنهار والبحار، والنمايس التي تحكم مسيرة هذا الكون العظيم ، مما دفع بعض العلماء إلى الإيمان بخالق هذا الكون ومبدعه بعد أن تبين لهم أنه الحق . وهناك كثوف في محيط النفس الإنسانية ، والجسم الإنساني وتركيبيه المذهل ، ووظائف أعضائه ، وكيف تعمل في تناسق

(١) سورة النجم الآية ٢٧

(٢) سورة الروم الآيات ١-٥

يقف العقل إزاء حائطًا متعجلاً، وهو يرى هذه الأسرار
المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الخالقُ القادرُ الحكيمُ العليمُ.
وسيظل الوعد يتحقق مادام على الأرض حياةً وإنسان يفك
ويبحث، حتى يهتدى الناس إلى هذا القول الحكيم:
 سَرِّهُمْ مَا يَتَنَاهُ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ أَوْلَىٰ
 بِكَفِيرِكُلِّ أَنْهٰءٍ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَشَيْءٌ^(١)،
 الله - تعالى - شاهداً على صدق نبينا محمد - صلى الله
عليه وسلم - وعلى أن ما جاء به من القرآن الكريم هو الحق
المُبِين الذي لا شك فيه.

وبرغم البراهين الواضحة التي سيكشفها الله للناس فإن
الكافرين في شك دائم من معرفة الله بأقوالهم وأفعالهم
وجميع أحوالهم في الدنيا، وفي شك في لقاء ربهم يوم
القيمة ومجازاته لهم. وهم بذلك مخطئون خالدون؛ لأن الله -
سبحانه - مُسيطر على جميع خلقه، واسع الإحاطة بكل مافي
الكون من ظواهر وخفاء، ومتصرف فيها، له الحكم وإليه
ترجعون. فـأين المُهَرَّبُ من هذا اللقاء؟ وأين المفر؟.

* * *

(١) سورة نحل / الآية ٨٣

«سورة الشورى»

تمهيد :

يتمثل إعجاز القرآن الكريم في وجوده علة، يرتفع بها فوق كل كلام، ويسمو بسيها عن كل بيان، ويتحقق من خلالها أن يوصف بأنه ليس من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وأنه يعلو ولا يعلى «قُل لَّمَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَكَلَّمَنْ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْفُرْقَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بِعَضُّهُمْ لِيَعْضُظُوهُمْ بِالْأَعْظَمِ»^(١)،^(٢).

ولعل من وجود إعجاز القرآن ذلك الترابط الوثيق الذي نجده بين سورة وفواصيله، وتلك الوشیحة القوية التي تلحظها بين آياته وكلماته، مما يزيد معانيه وضوحاً، ويعزز قارئه على التأمل في مراميه، ويووجه نظر سامعه إلى التفكير في بيانه السامي، وكمال فصاحته، وجمال تسيقه وجزالته.

وهذا ما ستجده واضحأً بين سورتي فصلت والشورى، ذلك أن قارئ خواتيم سورة فصلت يتلو فيها قوله تعالى : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرُوكُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِنْهُ فِي شِقَاقٍ يَعْبُدُ (٣) سَرِيرِهِمْ ؛ أَيْتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَقِنُفُرِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْخَيْرُ»،^(٤)

وقد عرفت أن هاتين الآيتين تؤكدان على ضرورة

(١) سورة الإسراء / الآية ٨٨

(٢) سورة فصلت / الآيات ٥٣ - ٥٤

الإيمان بأن «القرآن الكريم» كلام الله ووحْيُه المُنْزَلُ على رسوله محمدٍ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَّ التكذيبَ بِذَلِكَ نَقْمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ، وَمُبْصِّرُ ضَلَالَهُمُ الْبَعِيدُ. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ يَتَعَهَّدُ الْمَوْلَى - عَزَّ وَجَلَّ - بِأَنَّهُ سَيَكْشِفُ لِلْمُكَذِّبِينَ الظَّالِمِينَ بِمُخْتَلِفِ الْأَسَالِبِ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ - سَبْحَانَهُ - هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ دِينَهُ هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ، وَأَنَّ كِتَابَهُ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ، وَصَدِيقَ اللَّهِ الْعَظِيمِ إِذَا يَقُولُ: «وَإِنَّ الْحَقَّا
 أَنْزَلْنَاهُ وَإِنَّ الْحَقَّا زَلَّ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»^(١).

فَإِذَا انتَهَىَ الْقَارِئُ مِنْ سُورَةِ (فُصُلَّتْ) وَيَدْأُبُ فِي تِلَاءَةِ سُورَةِ (الشُّورِيَّ) وَجِدَ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى فِي السُّورَتَيْنِ قَوِيٌّ التَّرَابِطُ وَالتَّلَاحِمُ، وَفِي تَمَامِ التَّوَافُقِ وَالْإِنْسَجَامِ، ذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَطَالِعُهُ مِنْهَا قُولُهُ تَعَالَى: «حَمَدَ رَبَّهُ عَنْ سَبَقِهِ وَكَذِيلَكَ بِرُوحٍ إِلَيْكَ وَإِلَى أَهْلِ الْدِّينِ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ أَعْرِيزُ الْحَكِيمُ»^(٢).

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْثَّلَاثِ تَنْبِيَّهٌ عَلَى أَنَّ الْحُرُوفَ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هِيَ مِنْ جِنْسِ الْحُرُوفِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا الْعَرَبُ فِي خُطُوبِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ، وَأَنَّ الْعَرَبَ - بِرَغْمِ ذَلِكَ - يُعْجِزُهُمُ الْقُرْآنُ عَنْ أَنْ يَاتُوا بِمُثْلِهِ أَوْ يُحَاكُوهُ؛ لِأَنَّهُ كَلَامَ اللَّهِ الْعَالِيِّ الْمُدْبِرِ الَّذِي تَزَلَّلُ الْقُرْآنُ عَلَى

(١) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ / الْآيَةُ ١٠٤.

(٢) سُورَةُ الشُّورِيَّ / الْآيَاتُ ٣ - ٤.

عبده ونبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - عن طريق الوحي ،
كما كان يوجي إلى الأنبياء والرسل السابقين : لأن منهج الله
واحد ، وسنته في خلقه لا تختلف » * شَرَعْ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّنَّى
بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّنَّا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا
الدِّينَ وَلَا تَنْتَرِقُوا فِيهِ « (١) .

وهذه السورة الكريمة من السور المكية التي يتم التركيز
فيها على حقيقة الوحي والرسالة والإصلاح لها ، وقضية
التوحيد ، والبعث والجزاء ، وأن رسالة محمد - صلى الله عليه
 وسلم - هي الرسالة الخاتمة ، وليس بدعاً من الرسالات ،
 وإنما أوحى بها الله الذي أوحى إلى كل رسله السابقين ،
 فدين الله واحد تواصى به كل الأنبياء » أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا
 تَنْتَرِقُوا فِيهِ « . ولكن أتباع الرسل قد اختلفوا وتفرقوا بغيرها بينهم
 من بعد ما جاءتهم البيانات ، ثم آل الأمر عند الذين أورثوا
 الكتاب بعد ذلك إلى الشك والريبة ، والفضوضى والضياع ،
 والابتعاد عن توجيه السماء وقيادة الوحي . فأصبحت البشرية
 في أمس الحاجة إلى الرسالة الجامحة الشاملة القادرة على
 القيادة والريادة ، والأخذ بزمام الركب الإيماني ؛ كي يسير في
 ظل نور الله ، وتُسْرِّيَّد الحياة بمنهج الله ، وتُفْيِي البشرية إلى

(١) سورة التورى / الآية ٣٢

ربها حتى لا تخطفها الأنفاس والشهوات، ففضل ضلاًّ
بعيداً.

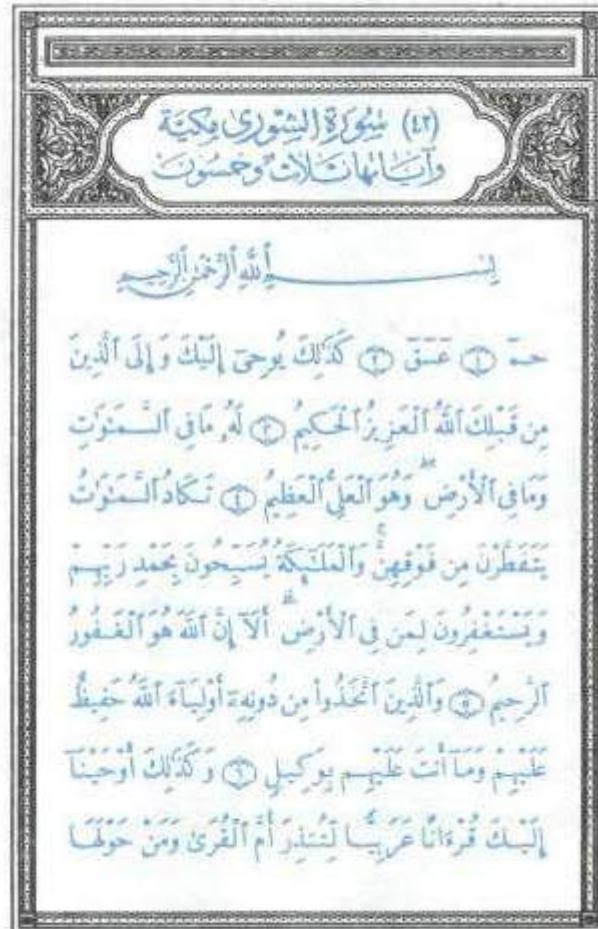
ومن هنا أوحى الله تعالى إلى القائد الرباني الخاتم «فَلَذِكْرُ
قَادِعٍ وَأَسْتَقْمَ كَمَا أَمْرَتَ لَا تَنْبِئْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مَا مَنَّتْ بِمَا أَزَّلَ
اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرَتُ لِأَعْدَلَ يَبْيَنَكَ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُنَا أَعْنَلْنَا وَلَكُنْ
أَعْنَلْكُ لَاجْحَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ اللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ»^(١)،
كما كشفت هذه السورة الكريمة عن صفات المؤمنين
وجرائمهم، وصفات الكافرين وعاقبتهم في قوله تعالى:
«وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرًا إِلَّمْ وَالْفَرَحَشُ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ
يَغْفِرُونَ»^(٢).

ثم ختمت السورة الكريمة بإقرار أن الأمر كله لله
مالك السموات والأرض يخلق ما يشاء، ويعطي ويمعن من
يشاء، ويوحى بإذنه ما يشاء إلى من يشاء، وقد اقتضت مشيته
أن يوحى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - بهذا القرآن
العظيم الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده إلى
صراط الله المستقيم.

وبهذا تختتم السورة بتناول موضوع الوحي والقرآن
الكرييم، وهو الموضوع نفسه الذي افتتحت به؛ ليتم هذا
التناسق المتجزء في البدء والختام. فسبحان من هذا كلاماً !!

(١) سورة التورى / الآية ١٤
(٢) سورة التورى / الآية ٣٧

(١)
الآيات من ١ - ١٢ من سورة الشورى



وَتَنْدِيرَوْمَ الْجَنْعِ لِأَرْبَبِ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنْهَةِ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ ⑤ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ بِخَالِمِهِ أَمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ
يُدْخِلُ مَنْ بَشَّاً فِي رَحْنَاهُ وَالظَّالِمُونَ مَا لَمْ يُنْوِلُ
وَلَا يَصِيرُ ⑥ أَمَّا الْخَدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ هُوَ
الْأَوَّلُ وَهُوَ يُحْكِي الْعَوْنَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑦
وَمَا أَخْلَقْتُمُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَكُمْ كُلُّ شَيْءٍ إِذَا كُلُّ أَنْ شَاءَ
رَبِّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَبَرَّ ⑧ فَاطَّلَ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُسْكُ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَمْ
أَزْوَاجًا يَذْكُرُ فِيهِ لَبَسْ كَثِيرٌ شَيْءٌ وَهُوَ السَّعِيرُ
الْبَصِيرُ ⑨ لَمْ يَقْلِدْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ يَسْطُعُ
الْإِرْزَقُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ⑩

معاني الكلمات والجمل

حَمَّ ① عَنْ

: من الحروف المقطعة في أوائل السور. ذُكرت للدلالة على إعجاز القرآن الكريم؛ لأنها من جنس الحروف العربية التي يتكلّم بها العرب، فما سرّ عجزهم عن محاكاة القرآن الكريم؟

تَكَادُ السَّمَوَاتُ

: توشك السموات.

يَنْقَطُونَ

: يتشقّقون من عظمته تعالى.

أَخْدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَاءَ

: عبدوا الأصنام، واتخذوها آلهة

وأولياء، يطلبون نصرتها بدلاً من

الله القوي القادر.

اللَّهُ حَبِيبُ عَبْدِهِمْ

: رقيب على أقوالهم وأفعالهم،

وممحصيها عليهم، ومجازيهم بها.

لِتُنذَرَ أَمَّ الْفَرَى وَمَنْ

: لتخوّف وتحذر أهل مكة وغيرهم

من العالمين. وسميت (أم الفرى)

حَقَّ

: لشرفها وعلو قدرها.

وَتُنذَرَ يَوْمَ الْجَمْعِ

: وتحذيرهم بأنّ يوم القيمة هو يوم

الحضر الذي يجتمع فيه الخلق

للحساب والجزاء.

لَرَبِّهِ

: لا شك فيه.

وَفَرِيقٌ فِي الْعِبَرِ

: وفريق منهم جاحد ضال مآل النار
المستعرة.

وَإِلَيْهِ أَنْبُ

: إليه وحده أرجع في كل أمر، وأنوب
من كل ذنب.

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ

: مبدع السموات والأرض وخالفهما
من عدم.

وَالْأَرْضِ

: يخلقكم ويكثر عدكم بالتوالد
بس جعلكم أزواجا.

يَدْرُوُكُمْ فِيهِ

: لا يشبهه أحد، ولا يشبه أحدا،
سبحانه.

لَمْ يَقُلِّلْ أَسْلَوْتِ

: مقاييس خزانتها بيده، فهو المتصرف
في ملكوت السموات والأرض.

وَالْأَرْضِ

: يُبَطِّل الرزق لمن يَشَاءُ : يُدْبِر أمر العباد في الرزق، فيوسّع
وَيَقْدِرُ

لمن يشاء، ويُضيّق على من يشاء،
وقف علمه وإرادته وحكمته.

الشرح

١ - لا وحي إلا من الله العزيز الحكيم :

حم عسق : هذه الحروف المقاطعة في أوائل سور سر من
أسرار الله في القرآن الكريم، ولا يعلم معناها إلا الله
سبحانه . وقيل : إنها ذكرت للدلالة على إعجاز القرآن
الكريـم . ولتحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن الذي أنزله الله

بلسان عربي مبين مركباً من حروفهم العربية التي ذكر بعضها في بدايات بعض سور، وصدق الله إذ يقول: «قُلْ لَئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِهِ مِثْلًا هَذَا الْفُرْقَانِ لَا يَأْتُونَ بِهِ مِثْلَهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُلُ فَلَهُمْ بَصِيرَةٌ»^(١).

وان الوحي الذي ينزله الله تعالى عليك يا محمد يُماثل بعضه بعضاً، في الدعوة إلى الإيمان بتوحيد الله، وبال يوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، والالتزام بالصالح من الأعمال، والارتباط بكريم الأخلاق، وجميل الصفات، وحسن السلوك، بل إن مثل هذا الوحي هو الذي كان يتزل على من سبقك من الرسل الكرام، فإن الدين عند الله الإسلام، أسمه واحدة، وقواعد الركيينة لا تتغير؛ لأن نوره يصدر من مشكاة واحدة، والموحي إليهم رسول الله تجمعهم عقيدة واحدة، ووظيفة متماثلة، وما الوحي إلا تنزيل من رب العالمين الواحد الأحد، وهو الله العزيز في انتقامته «الحكيم» في أقواله وأفعاله، المسيطر بقدرته وعظمته وإرادته على جميع الكائنات في السموات وفي الأرض، وهو العلي على خلقه، العظيم في ملكه، فلا علو يُضاهيه، ولا عظمة تُدانيه، إذ هو الذي خلق الجميع بقدراته، وأبدع صناعتهم بعظمته سبحانه.

(١) سورة الإسراء/ الآية ٨٨

ولا شك أنَّ إحساس المؤمنين بوحدة المصدر الموجي
وهو الله، ووحدة الهدف الذي يلتقي عليه المؤمن إلينه من
الرسل وهو الرسالة والهداية، ووحدة الدين في جوهره
وأصوله، لا شك أنَّ ذلك يُسعدهم ويُؤنسهم ، وهم يشعرون
بهذه الوَشِيجَة التي تربط بين أتباع الوحي من المؤمنين على
مدار التاريخ .

٢ - ما أبشع الكفر !! وما أعظم استفار الملائكة لأهل الأرض !!

ويرغم رعاية الله تعالى لخلقه ، فإنك تجد أكثرهم كافرين
حتى إن السموات توشك أن تشق من فوق الأرض ، وتتصدع
أركانها من عظمة الله تعالى وجلاله ، ولكنث ما تحمل من
الملائكة الكرام ، فما يخلو منها شبر من ذلك راكع أو
ساجد ، قما يشاعر ما ذهب إليه هؤلاء المشركون من قولهم :
«أَنْحَدَ اللَّهُ وَلَدًا»^(١)

على حين أن الله تعالى يرزقهم ويعايبهم ويغمرهم بفضله
وخيره ، وأن رحمته تعالى تظل وارفةً على خلقه ، فإذا
الملائكة الطائعون لله ، المسبحون بحمده ، يستغفرون لمن
في الأرض من المؤمنين ، ويذعنون للكافرين بالتفوق
والهداية ، وللفاسقين بالتوبة والإناية ، ويتمنون لهم سلوك

(١) سورة الكهف / الآية ٤

الصراط المستقيم .

وَالْمَلَائِكَةُ مُشَفِّقُونَ خَافُونَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ عَلَى الْعُصَا،
مَذْرُوكُونَ فِي قَطَاعَةِ الْجُرْمِ الَّذِي يُرَتَّكُ فِي حَقِّ اللَّهِ الْعَلِيِّ
الْعَظِيمِ، فَهُمْ لِهَذَا يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْمَلَائِكَةُ
حِينَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ، إِنَّمَا يَخْشَوْنَ عَلَيْهِمْ مَا يَفْعَلُونَ فِيهِ
مِنْ هَفْوَاتٍ، وَيَرْجُونَ لَهُمْ أَنْ يَتَجاوزَ اللَّهُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ .
وَشَلَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، قَاتِلِينَ : « وَرَبَّنَا وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَ
رَحْمَةً وَعَلَّا فَانْفَعَرَ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَفِيهِمْ عَذَابٌ
الْجَحِيمُ »^(١)، مُتَوَسِّلِينَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَمْنَعَ عَلَيْهِمْ بِغَفْرَانِهِ،
وَيَحْقِّقَ لَهُمْ وَعْدَهُ الَّذِي لَا يَتَخَلَّ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَ « وَرَحْمَتِي
وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ »^(٢) .

فَسُبْحَانَكَ يَا رَبِّنَا سُبْحَانَكَ، أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَأَنْتَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، وَأَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، الَّذِي أَهْمَتَ مُلَائِكَتَكَ
الْاسْتَغْفَارَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَخْفُ أَوْزَارُهُمْ، وَحَسْنَى لَا
تَعْجَلَ بِعِقَوبَتِهِمْ، وَتَأْخُذَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، فَلَعْلَ تَائِبًا يُقْبَلُ، وَكَافِرًا
يُؤْمَنُ، وَضَالًا يُهْتَدَى، وَفَاسِقًا يَبُوَبُ ! فَلَا تَحْرِمَنَا مَغْفِرَتَكَ
وَرَحْمَتَكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

٣ - الرَّسُولُ مُبْلِغٌ لَا يَسْأَلُ عَنْ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ :

يَا أَتَعَاْسَةُ أُولَئِكَ الْغَافِلِينَ عَنْ عَظَمَةِ رَبِّهِمْ السَّادِرِينَ فِي

(١) سورة طه / الآية ٧

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٥٦

علواهُمْ . المعتمدين على أصنامهم ، المستخددين لهم أرباباً
 من دون الله وأولياء !! ألا ما أشقاهم بهذه الولاية ! وما
 أضيقهم بهذه العبادة ! وما أصعفهم وهم يتحمّون بأشجار لا
 تسمع ولا تبصر . ولا تضر ولا تنفع !! وما أبايسُهم وقد غفلوا
 عن إحاطة الله بهم ، وأنه شهيد على أعمالهم ، ومختصي
 سباتهم !! فدعهم يا محمد في ضلالتهم يعمموون ، ولا
 يحزنك قولهم ، إنما نعلم ما يسرّون وما يعلّون ، وليس من
 شأنك أن تدفعهم إلى الإيمان بالله دفعاً ، ولا أن تردهم عن
 سفه الباطل والشرك ردًا « قَدْ كِرِمْتَنَا أَنْتَ مَذْكُورٌ ⑪ لَتَ عَلَيْمٌ
 بِعُصْبَرٍ ⑫ » ⑬ . وسيتوّل الله عنك أمرهم لأنّه هو المتكفل بهم ،
 الرقيب عليهم ، يحاسّهم ويأخذهم بالعذاب الشديد ، جزاء
 ما ارتكبوا من حماقة الإشراف بالله تعالى ، ومعاداة دينه « إِلَّا مَنْ
 تَوَلَّ وَكَفَرَ ⑭ فَبَعْدَهُمُ اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ⑮ » ⑯ .

٤ - إنذار أم القرى ومن حولها :

إن القرآن الكريم أنزله الله تعالى - بلسان عربي مبين ؛
 لينذر به الرسولُ الكريم قومه العرب الذين يعيشون في مكة
 التي قال فيها نبينا - صلّى الله عليه وسلم - : « وَاللَّهُ إِنَّكِ لَخَيْرٍ
 أَرْضَ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرَجْتُ مِنْكِ

(١) سورة العنكبوت/ الآيات ٢٢، ٢٣

(٢) سورة العنكبوت/ الآيات ٢٤، ٢٥

ما خرجت^(١) ثم انطلقت بُندر بقية الخلق، فما سر اختيارة
(مكة) أم القرى ومن حولها؛ لتكون مهد الرسالة الخالدة؟

وما سر اختيارة لسانها العربي؛ ليكون وعاء الإسلام وناشر حضارته؟ لقد أوحى الله إلى رسوله قرآنًا عربياً غير ذي عوج؛ لأن اللغة العربية بلغت شأناً بعيداً، وسجل بها البلاغة والفصاحة من الشعراء والخطباء والحكماء نماذج من النساج الأدبي الراقى الذي لم يكن له ما يُضادّره في آية لغة من لغات العالم آنذاك. وبلغ اعتراف العرب بلغتهم حدّاً جعلهم يختللون بمولد شاعر في القبيلة ذي موهبة، ويهتمون ببيت الشعر أو المثل أو الحكمة اهتماماً كبيراً؛ لعلّهم أن هذا البيت تسير به الرُّكبانُ مُشْرِقَةً ومُغْرِبَةً ، تتفنّى به، فقد يرفع قبيلة حتى تفخر به، وقد يحفظها وينزلها في الحضيض، حتى تتبرأ منه. وأيضاً فإن سوق الأدب كانت رائحة في الجزيرة العربية، تقام لها المؤتمرات في مواسم محددة، ويشتد أرباب البيان يُعيثُمُون في هذه الأسواق على مدار العام، فلا تنقض ندوة سوق عُكاظ، حتى تنهي نفوسهم لندوة أخرى بسوق (ذى المجاز)، ولا يغادرونها حتى تستهويهم سوق (ذى العجنة)، فالحركة الأدبية هي شغل العرب الشاغل، يظل يرثب الجديد من القول، ليُلهب عواطفه، ويُعذّب مشاعره،

(١) أخرجه الترمذى والستى وابن ماجة وأحمد، عن عبد الله بن عطى ابن الحصان الزهرى وقال الترمذى: حسن صحيح

وبنئي فكره وقيمه، ويحضر هذه الأسواق؛ ليشاهد التحكيم البلاغي بين الشعراء ودفته، كأنما مع موازين الذهب بسوق تجّار الجوادر. ومن هنا ندرك كيف أن اللغة العربية كانت قد استوت على سوقها، وبلغت أوج نضجها، واستأثرت بباب الناس وعقلهم، وأجزل الملوك العطاء لشاعري الشعرا، وأدى النافس بينهم إلى المزيد من الإبداع، والتفنّن في ضروب القول البلّيج، واصطفى النقاد أعلى ما توصلت إليه القراء، فكتب بما الذهب، وعلق على جدران الكعبة تخليداً للذكراء.

ولعلنا بعد هذه اللّمحات الخاطفة نبصر شيئاً من حكمة الله في اختيار اللغة العربية؛ لينزل بها كتابه الأخير الخالد، الذي ارتفصه نبراساً لأهل الأرض فاطبة إلى يوم الدين، فقد ثبت أن القرآن الكريم تحدي هؤلاء الذين يملكون ناصية القول البلّيج، وطالبهم أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا؛ لأنّه كلام رب العالمين.

أما اختيار (مكة) البلد الأمين؛ فلحرمة البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وبه مقام إبراهيم عليه السلام، ولمكانتها العظيمة في نفوس العرب جميعاً، ولما تتمتع به أم القرى وما حولها من حرية لا نظير لها، حيث لا تخضع لسلطان أحد، ولا تحكم فيها إحدى إمبراطوريات الأرض آنذاك.

وهذا أمر في غاية الأهمية، حتى لا تتعرض الدعوة الجديدة لمقاومة حكومة كبيرة ذات عد وعلة، وجيش وسلطان، ونظم وتشريعات، وسطوة وجبروت. وأيضا فإن وجود النظام القبلي كان عملاً مساعدًا لاجتياز الدعوة الكثير من العقبات، فلولا مكانةبني هاشم بين قبائل العرب وعشائرها، وخشية العرب من معاداتها، لاستهدفت سيفوهم محمدأ وآتياه، وقضوا عليهم دون عناء.

ولا ننسى كذلك ما كانت تفرد به (مكة) وما حولها من الحظوظة النخبة لا يُستهان بها من الرجال الأفذاذ ذوي البصر والخبرة والتجربة والمرودة والنخوة، فهولاء ما كاد الإسلام ينمث شغاف قلوبهم، حتى أشعل فيها الطاقات الكامنة، وأحالها إلى يقين بالله تزول الرواسي ولا يزول، وإلى علم وفقه تتدفق به الحكمة على استئتمهم تدفق النور في قلب الظلام، وأبطال حروب لا يزال التاريخ يتثنّي باسترجاجع قصصهم البطولية، وعُباد محاريب يتنزل بهم الغيث، وحملة أمانة ورسالة ما بذلوا فيها ولا فضروا، يفتدونها بأنفسهم وأموالهم وأولادهم وعشائرهم.

تلك هي مؤهلات (مكة) التي هيأتها لاستقبال أعظم رسالة سماوية نزلت على أعظم رسول.

لذلك أمير محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يبدأ إيتاره بأم القرى ومن حولها، حتى إذا زرتني بذور الدعوة من النخبة

الممتازة بذرها في ربوع العالمين، ثم أكمل تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فأخذ يراسل الملوك والرؤساء، ويبين للجميع أن يوم القيمة آت لا ريب فيه، وهو يوم الجمع الذي يجتمع الله فيه الخلق، ويحضرهم جميعاً إليه، ويوفى كل قوم جزاء عملهم، فإن كان خيراً فإنهم في جنات الله - عز وجل - ينعمون، وفي ظلالها يتفيؤون. وأما من كانوا من جماعات السوء في الدنيا فإن مآلهم جهنم، يصلون سعيرها، وساقت لهم مستقراً ومصيراً.

إن الله - سبحانه وتعالى - يعلم أن بعض الناس يتبخ الهدى، ويتجه إلى الخير، وأن بعضهم يتجه إلى الفساد، ويميل إلى الرذيلة، وهذا هو الشأن الطبيعي في حياة البشر الذين تختلف بهم السبل في أمور حياتهم جميعاً. « ولَرَشَاءَ اللَّهِ بِحَطَّهُمْ أَمَّةٌ وَاحِدَةٌ » ولو أراد الله - تعالى - أن يجمعهم في صعيد واحد على الإيمان أو الكفر - لفعل ، ولو شاء لجمعهم على الهدى، أو جمعهم على الضلاله . ولكنه يُقْيِي الأمور على طبيعتها؛ ليختار كل إنسان ما يحب من خير أو شر، فيكتب ذلك الذي اتبع طريق الهدى، ويزيده توفيقاً، وبهين له الخير؛ ليتَّلَك سبيل المؤمنين، فيدخله بذلك في رحمته .. أما الطالمون الذين جنوا على أنفسهم باختيار الشر والضلال والبعد عن الصراط المستقيم، فإن الله يتخلى عنهم، ولا يجدون لهم عند ذلك من دون الله ولئلا ولا نصيراً. فقد ضلت

عنهم أَهْتَمُ المزعومة، وضلوا عنها، وأحسوا أنهم كانوا
يعبدون وهم لا وجود له، ولا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً، كما
لا يملك ذلك لنفسه.

وعلى ذلك فإن مصير العباد يتحدد وفق ما يعلمه الله تعالى
من أحوالهم «فَإِنَّمَا مَنْ طَغَىٰ (١٢) وَأَتَ الْحَيَاةَ الْأُذْنَىٰ (١٣) فَإِنَّ الْجَمِيعَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ (١٤) وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَىَ النَّفْسَ عَنْ أَمْوَالِهِ (١٥)
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (١٦)»
فمن علم الله منه اختيار الهدى هداه ، ومن علم منه اختيار
الضلال أضلله وأرداه .

٥ - الله هو التولي :

«أَمَّا مَنْ أَخْدُوا مِنْ دُونِهِ أُولِيَّةٌ (١٧) يُنْكِرُ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ اتِّخَاذَهُمْ
أُولِيَّاءَ مِنْ دُونِهِ، إِذَا كَانَ اللَّهُ - تَعَالَى - قَدْ تَرَكَ لِلنَّاسِ حرِيَّةَ
الاختيار بين الإيمان والكفر، فكيف ارتضى بعض البشر
لأنفسهم اختيار الضلالة، وأقبلوا على عبادة غير الله،
واتخذوا الأصنام آلهة، وجعلوهم أولياء لهم ينصرونهم من
دون الله، ويتصورون أنهم يحمونهم، ويجلبون لهم الخير،
ويدفعون عنهم الأذى والضر؟

فإن أرادوا أولياء بحق فالله هو التولي الحق الذي لا ينبغي
لما عاقل أن يتخذ له ولية سواه، فهو ناصر المؤمنين وحاميهم وإن

(١١) سورة العنكبوت الآيات ٣٧-٤١

(١٢) سورة الشورى الآية ٩

الله يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوْاْنَ كَعُورٍ^(١) .
وهو - سبحانه - القادر وحده الذي تتجلى قدرته في الخلق،
ثم في إحياء الموتى، ثم في خضوع كل شيء لقدرته، لا
يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء أبداً غيره فلا يستطيع
أن يردد شرها، أو يجلب نفعاً، بل لا يقدر على شيء أصلاً.

ومadam الله - سبحانه - هو ولِيُّ نَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَنَاصِرِهِمْ ،
وهو القادر على كل شيء ، فإن ذلك يقتضي أن يرددوا كل
أمر يختلف فيه إلى الله سبحانه ، إلى شريعته وكتابه الذي لا
يدع أمراً من أمور الدنيا والآخرة يحتاج إليه البشر إلا فصله ،
ويبيّنه بياناً شافياً ، سواء أكان هذا الاختلاف بين المسلمين
وغيرهم من الكفار وأهل الكتاب ، أم وقع بين المسلمين
أنفسهم . ثم يأمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يُعلَن
في الناس أنَّ الله الذي يحيي الموتى ، ويتحكّم إلى شرعيه
المختلفون هُوَ ربُّ الْمُهَبِّينَ على كل شيء ، عليه وحده
أتوكِل في كل شئوني وأعتمد ، وإليه أُنِيبُ وارجع في كل ما
يعرض لي من أمور الحياة ومغصّلاتها ، فلا أتوكِل إلا عليه ،
ولا أُنِيب إلا إليه ، فكيف يتحاكم الناس إلى غيره في أي مشار
خلاف بينما الرسول المبعوث رحمة للعالمين يتكلّم كُلُّ أمره
إلى الله لا إلى سواه ؟ ويرفض أي حكم غير حكم الله ؟

(١) سورة الحج / الآية ٢٨

قدرة الله في خلق السموات والأرض وخلق الأزواج :

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّيْ قَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَدِعُومُهُمَا عَلَىٰ غَيْرِ
مَثَلٍ سَبِقَ، وَمُدَبِّرٌ أَمْرِهِمَا، وَأَمْرٌ مَا فِيهِمَا مِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْأَفْلَاكِ وَالْكَوَافِرِ وَغَيْرُهَا. وَهُوَ الَّذِي تَكَفَّلَ بِإِعْمَارِ
هَذَا الْكَوْنِ، فَأَتَاحَ التَّوَالِدَ وَالْكَاثِرَ نِتْيَةَ التَّزَوْجِ بَيْنِ
الْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا فِي كُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ،
وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ هَذَا غَيْرُ اللَّهِ الَّذِي تَفَرَّدَ دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ جَمِيعًا
فِي ذَاهِهِ وَصَفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَلَا شَيْءٌ لَهُ تَعَالَىٰ وَلَا مِثْلٌ لَّيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَكَيْفَ تُشَبِّهُ الْمَخْلُوقَاتُ خَالقَهُ؟ إِنَّهُ تَعَالَىٰ مُتَصَفٌ
بِكُلِّ كَمَالٍ وَجَلَالٍ، لَا يُشَبِّهُ أَحَدًا، وَلَا يُشَبِّهُهُ أَحَدٌ، بَلْ هُوَ
الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْفَرَدُ الصَّمَدُ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الَّذِي
أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بِيَدِهِ
مَفَاتِيحُ خَزَانَتِهِمَا، وَتَصْرِيفُ الْأَمْرُورِ فِيهِمَا، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُ
حُكْمٌ وَلَا سُلْطَانٌ، فَإِرَادَتُهُ مُطْلَقَةٌ، وَجِحْكُمَتُهُ بِالْغَةِ فِي تَوزِيعِ
الْحُظُورَاتِ وَالْأَرْزَاقِ، فَهُوَ الَّذِي يَتَوَلِّ رِزْقَ الْعِبَادِ قَبْضًا وَبِسْطًا،
وَيَهْبِئُ لِلنَّاسِ أَسْبَابَ مَعَاشِهِمْ، فَيُؤْسِعُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
بِفَضْلِهِ، وَيُضِيقُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ بِحُكْمِهِ، «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْأَرْزَاقُ ذُو الْقُرْبَةِ
الَّتِينُ^(١)»^(٢) وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْمَهْبِتُمُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ، فَهُوَ الإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي يَجُبُ أَنْ يَتَصَاعَدَ النَّاسُ لِحُكْمِهِ،
فِيمَا اتَّفَقُوا فِيهِ، وَفِيمَا اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ.

(٢)

من الآية ١٣ إلى الآية ١٦ من سورة الشورى

* شَرَعْ لَكُم مِّنَ الَّذِينَ مَا وَصَّنَ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أُوْحِيَ
إِلَيْكُمْ وَمَا وَصَّبَّا إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا
الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ كَبُرُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ
بِالَّتِي اللَّهُ يُجَنِّبُ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِ أَيْمَانِهِ وَبِيَمِينِهِ مِنْ
يُنْسِبُ ⑩ وَمَا تَنْفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاهَةٍ هُمُ الْعُلَمَاءُ
بَعْضُهُمْ وَلَوْلَا كَاتَمَ سَقَطَ مِنْ رَبِّكَ لَمْ أَجِلْ
مَمْ لِغَصَّى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرُثُوا الْكِتَابَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَئِنْ شَرِكُتْ بِهِ مُرِبٌ ⑪ فَلِلَّهِكَ فَادْعُ وَكَانُوكُمْ
كَمَا أَمْرَتُ وَلَا تَنْبِغِي أَهْوَاءُهُمْ وَقُلْ هَأْنَتِ عَلَى
أَزْلَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرَتُ لَا أَعْدِلَ بَيْتَكُ اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُ تَأْمُلُنَا وَلَكُمْ أَعْتَلُكُ لَا جُنَاحَةَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُ اللَّهُ يُجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ⑫ وَالَّذِينَ

يُحَاجِّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجَبْ لَهُمْ جَهَنَّمُ دَاهِضٌ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَلَمْ يَعْلَمُوا شَدِيدٌ

معاني الكلمات والجمل

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ : بينَ لكم وأوضح من أصول الدين
ما جعله شرعاً يحكم به.

أَقِيمُوا الدِّينَ : حافظوا على دين الإسلام والتوحيد
قائماً كاملاً.

وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ : ولا تختلفوا فيه، قبان أصول الدين
في كل الرسالات واحدة، وتتفق مع
الفطرة السليمة.

كَبَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ : صعب على المشركين وعظم ما
نوجهم إليهم من الإيمان والتوحيد
والدين الحق.

أَللَّهُ يَعْلَمُ إِلَيْهِ مَنْ يَسْأَلُ : الله يختار ويصطفى لدينه من يشاء
وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ من عباده، وبهدي إلى الإيمان
الحق من أقبل على الله، ورجع إليه
تائياً.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ
 مَاجَاهَهُمُ الْعِلْمُ : ما تفرق أهل الأديان السابقة إلا من
 بعدهما نبين لهم الحق، وقامت
 عليهم الحجج من آثارهم وكتابهم.
 بِغَيْرِهِمْ
 إِلَى أَجَلٍ مَسْمَى
 لَقُضَى بِهِمْ : ظلمًا وعدوانا.
 إِلَى وَقْتٍ مَعْيَنٍ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ .
 الَّذِينَ أَوْرَثُوا
 لَهُمْ
 لِفْضَى بِهِمْ : لفضل الله تعالى بينهم في الدنيا،
 وَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ .
 الَّذِينَ أَوْرَثُوا
 الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ
 بَعْدِ أَسْلَافِهِمْ .
 لَئِنْ شَاءَكُمْ مُرِيبٌ . . . الَّذِي شَكَّ مِنْ كِتَابِهِمْ مُؤْفَعٌ لَهُمْ
 فِي حِبْرَةٍ وَرِبْرَةٍ .
 كَتَبْ
 وَأَمْرَتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ : أمرني الله تعالى بأن أعدل بينكم
 فِي الْحُكْمِ ، وَأَبْلُغُكُمُ الشَّرِيعَةَ
 الْخَاتَمَةَ ، الَّتِي يَنْتَالُ بِهَا كُلُّ ذَيْ حَقٍّ حَقَّهُ .
 وَالَّذِينَ يُحَاجِجُونَ فِي اللَّهِ
 صَدَقَهُ .
 لَا جُنَاحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 يَعْدَ أَنْ وَضَعَ الْحَقَّ .
 لَا جُنَاحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

يُحَاجِّوْنَ فِي اللَّهِ
 وَهُوَ أَعْلَمُ
 جَنَّتُهُمْ دَاهِخَةٌ
 وَعَلَيْهِمْ غَصَبٌ وَلَمْ
 عَذَابٌ شَدِيدٌ

الشرح

١ - إن الدين عند الله الإسلام:

شَرَعَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - لِأَمْمَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
 دِينًا تَقْنَقُ أَسْهَمُهُ وَرَكَابَهُ مَعَ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا
 الرَّسُولُونَ مِنْ قَبْلِهِ، وَبِخَاصَّةٍ أُولُو الْعِزَمِ مِنَ الرَّسُولِ، وَهُمْ:
 نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعُبَيْسٌ .
 وَلَا شَكٌ فِي أَنَّ الْاِنْفَاقَ بَيْنَ الشَّرَائِعِ السَّماوِيَّةِ إِنَّمَا يَرْجِعُ
 إِلَى أَنَّ الْمُشْرُعَ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ .

وَمَادَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَبِإِنْ شَاءَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْدِيَانَاتِ السَّماوِيَّةِ
 أَنْ يَعْمَلُوا عَلَى تَسْكِينِ دِينِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَطَاعَتِهِ، وَالإِيمَانُ بِمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَالتَّزَامُ مَا أَمْرَ اللَّهَ
 بِهِ، وَالْجِنْحَنُ مَا نَهَىَ عَنْهُ. بَلْ عَلَيْهِمْ أَلَا يَخْتَلِفُوا فِي هَذِهِ
 الْأَمْورِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا دِينٌ عَنْ دِينٍ. وَلَمْ يَأْتِ
 نَبِيًّا مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهَا إِلَّا بِمَا جَاءَتْ بِهِ
 كِتَابُ السَّابِقِينَ، لَكِنَّ دِينَهُ هُوَ الدِّينُ الْخَاتَمُ، أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ إِلَى
 النَّاسِ كَافَةً .

وصدق الله العظيم إذ يقول : «أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَبِ وَمُهِمَّا عَلَيْهِ»^(١)
وعلى ذلك لو أن أتباع الأنبياء أتبعوا الحق الذي جاءهم
من ربهم ، والدين الواحد الذي لم تختلف أصوله في أي
كتاب سابق ، ولا على لسان أي رسول - ما حدث هذا التناحر
بين المؤمنين في كل العصور ، وما كان يصح إلا أن نرى لواء
إخاء وسلام وونام يرفرف على هام الجميع ، فما هي إلا راية
للباسان واحدة ، حملها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى
ومحمد ، وكان لا بد من تنفيذ وصية الله لأتباع هذه الرسالات
«إِنَّ أَفْئِدَةَ الَّذِينَ لَا يَتَّقِفُونَ بِهِ»^(٢) .

٢ - دوافع المشركين لمحاربة الإسلام

وعلى الرغم من صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - في
دعوته ، فقد عزّ على المشركين ما دعاهم إليه من التوحيد
الخالص لله ، وعظم عليهم إفراد الله تعالى بالعبادة ، والإقبال
على طاعته ، وقالوا : «أَجَعَلَ الْأَلْهَمَ إِلَيْهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَفْنِي
بُعْدَابٌ»^(٣) .

ومن أسباب هذا الإنكار غرور الكافرين واستكبارهم ،
ونحوهم على زوال نفوذهم الديني القائم على عبادة الأوثان ،

(١) سورة البقرة الآية ٤٨

(٢) سورة سبأ الآية ٥

ونورهم من نسبة آياتهم إلى الموت على الضلاله والجهالة،
ومحاولتهم الظالمة أن يُنسِّموا رحمة الله، باقراهم تزول
القرآن على رجل من أغانيائهم ، وَقَالُوا لَوْلَا تُرِكَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى
رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ (١) ، وَسُوَا أَوْ تَنَاهُوا أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى -
أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، وَأَنَّهُ يَصْطَفِي لَهَا وَيَخْتَارُ مِنْ يَشَاءُ ،
وَقَدْ اجْتَبَى مُحَمَّداً - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاخْتَارَهُ لِحَمْلِ
هَذِهِ الْأَمَانَةِ عَنْ عِلْمٍ بِأَنَّهُ أَهْلُ لَهَا ، وَهُوَ سَبَّاحَهُ وَحْدَهُ الَّذِي
يَبْدِئُ مَفَاتِيحَ الْقُلُوبَ ، وَأَمْرُ الْهُدَى وَالْخُدْلَانَ ، وَلَا يَزَالُ يَفْتَحُ
أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ لِلْفَضَالِ الَّذِي يَشُوبُ إِلَى رَشْدِهِ ، وَيَقْبَلُ الْأَثْمَ
الَّذِي يَرْجِعُ عَنْ غَيْرِهِ ، وَيَفْتَحُ الطَّرِيقَ أَمَامَ كُلِّ رَاغِبٍ فِي سُلُوكِ
الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ .

٣ - الأهواء والشهوات والأحقاد تفرق أتباع الرسل :

ولم يكن أمر المشركين في الصد عن دين الله، الذي أدى
إلى الاختلاف والتفرق في مجتمع قريش - إلا كأمر الكافرين
في الأمم السابقة، إذ أصرروا على الكفر حسداً من عند
أنفسهم لمن أرسلوا إليهم، وعدواناً على أنبيائهم، وظلّماً
لأنفسهم حين ارتكبوا النهج الباطل، وأصرروا عليه، وما

(١) سورة الزمر / الآية ٤١

تفرقوا عن جهل بالحق، وغموض في العقيدة وأصول الدين والتشريع، وإنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البيبة، وهم لذلك يستحقون أن يُعجل الله لهم العذاب في الدنيا، ولو لا كلمة سبقت من ربكم بتأخير عقوبتهم، وإنما لهم إلى أجل مسمى هو يوم القيمة - لقضى الله بينهم، وأنهى أمرهم، ولكن - سبحانه - يمهل ولا يهمل.

وستمر الآيات في بيان حال الكافرين من أهل الكتاب الذين ورثوا كتابهم من بعد أسلافهم المترفين المختلفين فيه، وهؤلاء هم اليهود والنصارى الذين كانوا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتبين اهتزاز العقيدة في نفوسهم، وأنهم لم يكونوا أسعد حظاً من سابقيهم؛ لأنهم في شك من الكتب التي بين أيديهم، وفي خبرة وتحفظ، ولأن إيمانهم جاء تقليداً لأسلافهم، ولم يقْمَ على يقين يدفع الريبة، ويزيل الشبهة من نفوسهم وعقولهم.

٤ - مهمة الرسالة الأخيرة وخاتم النبئين :

كانت البشرية قد ضلت طريقها إلى الله، فالأرض تموح بالشرك والضلال، والقانون الذي يحكم البشرية هو قانون الغاب، والديانات السابقة قد انطممت معالاتها، وانطفأت أنوارها، وحرفت كتبها، وتناحر أتباعها وتقاتلوا، وتفرقوا بعد

ما جاءهم العلم بعثاً بينهم، وبلغ الأمر بمن ورثوا التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - أن فقدوا الثقة بكتابهم، وضلأهم الشك المُرِيب بدينهم وعقيدتهم، وعبث العابثون بأصول هذه الرسالات السماوية وكتبها، حتى ذُبَّلَ عودها، وغاضر ما ذُهِرَ منها، فقدت روحانيتها، واستشرى الفساد في الأرض، وعمت المظالم، وأوشكت أن تودع كل ما يربطها بالسماء من مبادئ وقيم وشرايع. حتى باتت الإنسانية تتطلع مُشفقةً إلى من ينقذها من وحْداتها، ويفك أغلالها التي تُكبلها، وتُشَلُ حركتها، ويشعل المصايبخ في دروبها المُعْتَمَة. فكانت هديَّة السماء إلى الأرض رسالة الإسلام، يحملها خير الأنبياء، وسيِّدُ ولد آدم، مُذْوَنٌ في كتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكانت القيادة التي تلقيت راية التوحيد التي أسقطتها الجاهلية العمياء، وأهالت عليها التراب. إذ بعث الله محمداً؛ لُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليجدد الإيمان بدعوة من سبقه من المرسلين، وليرث البشرية الفضالة الحائرة إلى ربها رداً جميلاً، وأمره أن يدعو الناس إلى الدين الحق، وأن يستقيم على دعوته، ويستمر على تلبية رسالته كما أمره ربه، غير مُستجيبٍ لأهواء الفضالين، مبيناً للناس الاتجاه السليم في

الدين، وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده وطاعته، وعدم التفرق بين رسله، ونبذ الخلاف، والبعد عن الشقاق والتفرق، «فَلِذِكْرِ فَادعْ» مؤكداً له أهمية الاستقامة على النهج الذي رسمه الله في كتابه، وسلوك السبيل الواضحة في أمر العقيدة والدين، «وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ» وضرورة الابتعاد عن زيف الزائغين وأهوائهم وأساليب ضلالهم «وَلَا تَنْتَزِعْ أهْوَاءَهُمْ». كما أمره أن يوحد وجهة البشرية ويوحد صلتها بسيرة كل الأنبياء والرسل «وَقُلْ أَمَّا مَنْ إِنَّ اللَّهَ مِنْ كِتَابٍ».

فهو يعلن بأنَّ من شأن المسلم أن يؤمن بكل ما أنزل الله من الكتب المقدسة، وبالرسائل الذين أنزلت عليهم هذه الكتب، فدين الله واحد، ومن نكَد البشرية أن تفرق بين الأنبياء، فتؤمن بعض وتکفر بعض . وأمره كذلك بإقامة العدل بين الناس «وَأَمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ» في كل أمر، وأسوى بينكم في الحقوق والواجبات ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا غني وفقير ، وسوف أقيم عدل الله على أساس مما أوحى إليَّ به في القرآن الكريم يقوله تعالى: «وَإِنْ حَكِيمٌ بَيْنَهُمْ إِنَّ اللَّهَ وَلَا تَنْتَزِعْ أهْوَاءَهُمْ»^(١).

فهي قيادة إيجابية تتکفل بإقامة العدل في أرض الله كما

(١) سورة الملكة الآية ٩

أراد الله، ولا تدعى لنفها ميزة ولا سلطاناً على خلق الله، فالجميع عبيد الله، ربهم واحد «الله ربنا وربكم» وبذلك يتحدد القصد والغاية، فهو سبحانه رب العالمين: المؤمن منهم والكافر، المُطْبِع فيهم والأثم، وهو بذلك يرعى الجميع، ويتفصل عليهم بنعمه وفضله، لكن لكل منهم عمله الذي يُسَأَل عنه والذي يُثَاب به، أو يُعاقَب عليه «وَإِن لَّمْ يَسِّرْ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعِنُوا»^(١) وَإِنْ سَعَيْتُمْ سُوفَ يُرَىٰ فَمَمْ بِحَزِيرَةِ الْجَرَازِ الْأَوْقَنِ^(٢)؛ فلا جدال ولا شفاق حول الحق الذي اتضحك وضوح الشمس في رابعة النهار، وما يصرف عنه إلا المكابرة والعناد «لَأَجْهَنَّمَ يَبْتَأِنُ وَبَيْتَكُّ» فلكل وجهة هو مولتها وكل واحد مسؤول عن عمله وحده «يَتَأْيِهَا الْأَنْسَنُ إِنَّكَ كَادْحَ لَأَنْ رَيْكَ كَذَّ حَافِلَنَّكِي»^(٣)؛ في يوم القيمة الذي يصير فيه الخلق جميعاً إلى الله، فيقضى فيهم بالحق والميزان، ويحكم بينهم بالعدل المطلقاً «إِنَّمَا يَعْكُرُ جَيْعَنًا وَعَدَ اللَّهَ حَقًا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِدُهُ لِيَجزِيَ الَّذِينَ أَهْمَنُوا وَعَلَمُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِطْرِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابُ اللَّمَّ بِعَامَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ^(٤)».

١١-٣٩ /الأيام /النحو (١)

卷之三

(٣) سورا يومن / الـ ٢٣

٥ - جَذْلُ عَقِيمِ :

نَمْ تَمْضِيَ الْأَيَّاتُ الْكَرِيمَةُ لِتُوَضَّحَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنٍ
الْكَافِرِينَ جَاهِلِيْنَ مُشْرِكِينَ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ مُنْحَرِفِينَ، وَعَلَى
رَأْسِهِمُ الْيَهُودُ، فَقَدْ كَانُوا جَمِيعاً يَجَادِلُونَ فِي الإِيمَانِ بِدِينِ
اللهِ، وَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ أَنْ يُلْقِيَ الْإِسْتِجَاةَ مِنْ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ،
وَهُنَّا لِدِينِهِ أَنْ يُصَادِفَ الْقُبُولَ عِنْدَ النَّاسِ حَتَّىٰ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ، وَمِنْ هَنَا لَمْ تُؤْثِرِ الْحَجَّاجُ الْوَاهِيَّةُ الَّتِي أَثَارُوهَا، وَلَمْ
يَجِدْ الْخُصَامُ وَالْمُنَاقِشَاتُ الْفَارَغَةُ سَبِيلَهُ إِلَىِ النُّفُوسِ.

رُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى حَاجُوا أَصْحَابَ نَبِيِّ اللهِ - صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالُوا: «كَتَابَنَا قَبْلَ كَتَابِكُمْ، وَنَبِيَّنَا قَبْلَ
نَبِيِّكُمْ، وَنَحْنُ أُولَئِنَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ» وَالْمُشْرِكُونَ قَالُوا: «أَئِ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقْمَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيَّاً»^(١)

وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِالنَّكَالِ وَالسُّخْطِ وَالْعَذَابِ جَزَاء
عَنْهُمْ وَاسْتِكْارَهُمْ وَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ فِي مَأْمَنٍ مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ إِذَا اتَّخَذُوا مِثْلَ هَذِهِ الْأَبَاطِيلِ وَالْحَجَّاجِ الْوَاهِيَّةِ
فِي مَنَاقِشَةِ قُضِيَّةِ الإِيمَانِ. فَهُؤُلَاءِ حَجَّتْهُمْ زَانَةً بِسَاطَةً،
وَعَلَيْهِمْ غَضْبُ اللَّهِ وَلَعْنَةُهُ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

* * *

(١) سورة مرثیٰ آية ٧٣

(٣)
من الآية ١٧ إلى الآية ٢٢ من سورة الشورى

اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ وَمَا يُدْرِكُ
عَلَى اللَّهِ الْأَعْعَةُ قَرِيبٌ ⑦ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ ءاْمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا أَخْلَقَ
إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُسَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَئِنْ ضَلَّلُ بَعْدِهِ ⑧
اللهُ لَطِيفٌ يَعْبَادُهُ بِرْزُقٌ مَّنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ⑨ مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرَثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ
حَرَثُهُ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرَثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ يُصْبِي ⑩ أَمْ لَهُمْ شُرُكَنُوا شَرَعْوَاهُمْ
مِّنَ الَّذِينَ مَالُوا يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلَمَةُ النَّفْعِ لَفُضِيَ
بِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَبُرُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءاْمَنُوا
وَعَلَوْا الصَّالِحَاتِ فِي رَوَضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَسْأَءُونَ
عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكُمْ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ⑫

معاني الكلمات والجمل

أَنْزَلَ اللَّهُ كِتَابَ إِلَيْكُمْ : أنزل الله القرآن وسائر الكتب المقدسة على آنبائه، لتكون أساساً في الحكم بين الناس بالحق والعدل.

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ : وما يُدْرِيكَ ويخبرك؟ لعل وقت قيام الساعة قريب.

بَسْتَعِجْلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ : يسأل الكافرون عن قيام الساعة، ويستعجلونها استهزاء وسخرية.
وَالَّذِينَ أَمْتُنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا : والمؤمنون خائفون من وقوعها مع استعدادهم لها، خيبة من الله، وخذلاً من أن يتالهم عقابه.

يُحَارُونَ فِي السَّاعَةِ : يجادلون ويشكّون في أمر البعث والقيمة.

اللَّهُ أَطِيفُ بِرَبِّ رَوْفٍ رَحِيمٍ : حفي بهم رب رءوف رحيم، يجر الكسير، وييسر العسير.

حَرَثَ الْآخِرَةَ : نتائج العمل الطيب الذي يثاب المسلم عليه في الآخرة.

حَرَثَ الدُّنْيَا : نتائج العمل الدنيوي، والرغبة في الحصول على الجاه والأموال ولذات الحياة.

أَمْ لَهُمْ شَرِكُوا شَرِيعَاهُمْ : أَلْهَمْ أَلْهَمْ شَرِيعَاهُمْ الشَّرِكَ
مِنَ الَّذِينَ مَا لَهُ يَدُونَ بِهِ اللَّهُ وَالْمُعَاصِي الَّتِي لَمْ يَأْذُنْ بِهَا اللَّهُ.

وَلَوْلَا كَمَةُ الْفَضْلِ : وَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ بَأْنَ يَؤْجِلُ الْجَزَاءَ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

لَفِضْلِي بِيَنْهُمْ : لَحَاسِبِهِمْ فِي الدِّينِ، فَعُجْلُ العَذَابِ
لِلظَّالِمِينَ، وَأَثَابُ الطَّاغِيْعِينَ.

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مَا : تَرَى أَيْهَا الْمُخَاطِبُ الْكَافِرِينَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ خَائِفِينَ مِنْ جَزَاءِ كُسْبِهِمْ
كَبُوا

وَهُوَ وَاقِعٌ زِيمٌ : وَهُوَ الْعَقَابُ نَازِلٌ بِهِمْ، لَا مَحَالَةَ،
أَشْفَقُوا أَوْ لَمْ يَشْفُقُوا.

فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ : فِي حَدَائِقِهَا الْخَضِرَاءِ الْجَمِيلَةِ
يَنْمَتُونَ بِأَطِيبِ بَقَاعِهَا.

الْفَضْلُ الْكَبِيرُ : الْفَضْلُ الَّذِي لَا يَوْصُفُ وَالنَّعْمَةُ
الْعَظِيمَيُّ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الْعُقُولُ
حَقِيقَتُهَا، وَلَا تَذَرِكُ كُنْهُهَا.

الشرح

١ - لا يخرج ما في القرآن عن الحق والعدل:

أنزل الله - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ، على محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأنزل الكتب السماوية المقدسة على آبائه ورسله - عليهم الصلاة والسلام - لتكون هذه الكتب مرجعاً للناس ، وفيها كلمة الحق فيما يختلفون فيه ، وهي بذلك أساس لإقامة العدل الذي توزن به الأعمال والأقوال ، والحقوق والواجبات ، كأنه الميزان الدقيق الحساس الذي لا يحور قيد أنملة ، ذلك هو العدل الذي يفصل الله به بين الناس في الدنيا والآخرة.

والتاسع بإزاء الحق والعدل صنفان : فمثهم من أدرك ضرورة الالتزام والطاعة ، ومنهم من انحرف عن الجادة ، وانصرف عن الدين القويم . وبالحق والعدل يستحق كل فريق منها جزاءه ثواباً أو عقاباً عند قيام الساعة ، التي هي من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، ولا يعرف أحد موعدها ، حتى أنت يا محمد لا تدرى موعدها ، فلربما كانت قريبة ، ولعلها على وشك الوقوع .

وفي هذا خصّ لرسول الله على الاعتصام بحبل الله ،

والعمل بكتاب الله، والتزام الحق والعدل المُتَمَثِّل في شرع الله قبل أن يفاجأ بالقيامة، وفيه تحذير للكافرين من أحوال القيامة التي لا يعملون لها حساباً، ويشكرون في مجدها، فهم ينكرونبعث، ويتمادون في السخرية بالمؤمنين به، وهم لذلك يتمسرون - استهزاء - أن يعاجلهم الله به، ظنا منهم أنه وهم وكذب. رُوي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذكر الساعة، وعنده قوم من المشركين، فقالوا: متى الساعة؟ استهزأ بها، ونکذبها لمجدها، فأنزل الله تعالى الآية.

وإذا كان المشركون يكذبون بالبعث ويستهزئون بمن يذكّرهم به - فإن المؤمنين يخشون قيام الساعة، ويختلفون حساب الله، فهم من الساعة وأهواها خائفون مشفقون، وصدق لذلك قول أبي بكر رضي الله عنه: «والله لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رجلي في الجنة» يريد أن الإنسان ربما زل في آخر حياته، وارتكب من المعاصي ما يكون سبباً في دخوله النار، برغم حرصه على العمل الصالح، والطيب من القول، وبرغم أنه من المبشرين بالجنة. وهكذا شأن الأبرار من المؤمنين الذين امتهلوا قول رسولهم الكريم: «لن يدخل أحداً منكم عالم الجنة! ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»^(١).

^(١) رواه مسلم من أبي هريرة (٢١٤٠/٣) في كتاب صفات الصالحين / باب لن يدخل أحد الجنة بصلة بل برحمته عما

ولذلك نجد كل مسلم يتقى الله، ويخشى حسابه، ويتمسّى
على المولى - عز وجل - أن يخسره في زمرة النبّين
والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. فعباد
الرحمن كما يرجون رحمة الله، فإنّهم يخشون عذابه،
ويسألون ربّهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم؛ لعلّهم أن
الساعة حق، وأنّ الجنة حق، وأنّ النار حق، ويضرّعون إلى
الله قائلين: «رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا① إِنَّهَا
سَاءَتْ مُسْنَفًا وَمُقَامًا②».^(١)

ويديهي أن تأتي خاتمة الآية؛ لتؤكّد أن كل من يجادل في
أمر البعث والحساب إنما يختار طريق الفسال الكامل،
والخلل الفكري الشديد، وفساد العقيدة الواضح، فهو
الفسال بعيد عن الحق وعن التدبّر البصير؛ لأنّ الساعي آتية
لا ربّ فيها، والله الذي أنزل الكتاب بالحق، والميزان
بالعدل، حاشاه أن يُسوّي بين الصالح والطالع، والمطبع
والعاشي؛ ولأنّ الجزاء على الأفعال من طيائع الأمور، يؤمّن
به أصحاب الأفئدة المستبررة، والعقول الوعية.

٢ - الله - تعالى - هو اللطيف الرزاق :

الله لطيف بعباده، خفيّ بهم - وهو الغني عنهم - يُفيض

عليهم بواسع إحسانه وبره، يغفر الذنب، ويقلل التوب، يجبر الكبير، وييسر العسير، وينظر الجميل، ويستر القبيح، خيره إلى العباد نازل، وشرهم إليه صاعد، وهو اللطيف بالبَرِّ والفاجر، ومن لطفه أنه يرزق جميع خلقه من الإنس والجن، مؤمنهم وكافرهم، طيبهم وخبثهم؛ لأنَّ القوي القاهر، العزيز الذي لا يعجزه شيءٌ. ولم يشاً الله - عز وجل - أن يربط الرزق وسعته أو ضيقه بالتزم الصراط المستقيم، بل رزق الجميع، وهو بأحوالهم عليم يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء؛ ليتخد بعضهم بعضاً سُخْرِيَاً، حتى تستمر الحياة، وتروج فيها أنماط السلوك، وأنواع الحرف المختلفة، وهو القوي القادر على فعل ما يشاء، العزيز الغالب الذي لا يغلبه شيءٌ ولا يعجزه. ومن لطفه ورحمته أن جعل الآخرة حرثاً، من أراد ثوابها بعمله، ونعيمه بجهده، زاد الله له في حره، وضاعف له في أجره، وببارك له في سعيه، وأعانه على الخير فما قبل على الله تعالى، ورحب في مرضاته، والتزم أوامره، واجتب نواهيه. وبهذا يكون قد أفلح، وآتى عمله ثماره، وفاز برضوان الله ونعمته في الآخرة، وصار مثله في ذلك مثل الزارع الذي يحرث الأرض، ويعهد لها بالرعاية، فتنتج له أطيب الثمرات، وتعود عليه بالخير

والبركات، وأما من كان يريد حرف الدنيا، ولا يقصد بعمله إلا جمع مนาها، حتى أصبحت شغله الشاغل، فانصرف عن دين الله عز وجل، وأنهمك في الملذات، وجمع الأموال لا ينتهي بها إلا تحصيل الوجاهة في الدنيا - فإن الله يكله إلى بيته، ويعطيه مما يريد من هذا الممتع ما قسم له، ولا يحصل إلا ما كان مقدورا له، وما لابد أن يصل إليه، لكنه لن يكتب رضوان الله، فما له في الآخرة من نصيب، لأنه لم ي عمل لها، وما أراد ثوابها، ولو سوف يحرِّم نفسه نعيمها الدائم في الآخرة، وبهذا يكون قد خسر دُنياه وأخرته، فهو بزهده في حرف الآخرة لم يكتب شيئاً زائداً على ما قدر له من حرف الدنيا، لكنه بذلك خسر التمتع بالنعم الدائم المقيم في الآخرة، وذلك هو الحُسران المبين. وصدق فيه قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «من كانت الدنيا همة فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له. ومن كانت الآخرة همة، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، واتَّه الدنيا وهي راغمة»^(١).

وفي هذا الجزء دلالة واضحة على أن شريعة الله تعالى في كتابه تقوم على العدالة المطلقة، وعلى مجازاة الإحسان

^(١) أخرجه ابن ماجه ٣٧٥/٢٤ الحديث رقم ١١٠٣ من ريد بن ثابت في كتاب الرعد بباب اليوم بالدنيا. وفي الأصول المحندة من كتاب الدنيا أثير هذه

بالإحسان، ومعاقبة أهل السوء بنيائهم. أما شرع غير الله فهو باطل، زَيَّنهُ شياطين الإنس والجن للذين اتخذوا الأصنام أربابا من دون الله، وقدّموا لها القرابين، وارتكبوا في الرذائل، وارتکبوا المعاصي، وكفروا بالله رب العالمين. فسأل الله هؤلاء الضالين مُؤْنِخاً مستكراً: «أَمْ هُمْ شُرَكَاتٌ^{١)}
 شَرُّ عَوْلَمٍ مِّنَ الَّذِينَ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ»؟ ومن غير الله يملك التشريع لخلقه؟ ومن أولى بالاتساع: أولئك الرسل الكرام الذين توالوا على هداية البشرية بما وضى الله به توحياً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد؟ أم اللجوء إلى تشرعات صنعوا الوهم على لسان أحجار، لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل ولا تعي؟ أم إن هذا هو الضلال المبين؟ ولذلك يتوعد الله - سبحانه - من اتخذ إليه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟ وينذره بأن له يوم القيمة عذاباً أليماً. ولو لا أن الله - تعالى - أخر للكافرين العقاب إلى أجل مُسمى - لأنزل بهم العذاب في الدنيا. قال تعالى: «وَلَوْ
 يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ ذَآمِةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ
 مُّسَمٍ»^{٢)}.

(١) سورة النحل / الآية ٦١

٣ - عاقبة الظالمين المُسيئين والمُؤمنين المحسنين :

وتصور الآية التالية هَلْعُ الظالِمِينَ، وَخُوفُهُمُ الشَّدِيدُ،
بِسَبِّ مَا أَعْمَلُوا، وَكَانَ مَا أَرَتُكُوهُ مِنْ آثَامٍ قَدْ تَحُولُ هُوَ نَفْسُهُ
نَارًا مُحْرِقَةً، وَعِذَابًا أَلِيمًا يَحْلُّ بِهِمْ، وَيَنْزَلُ عَلَى قُلُوبِهِمْ جَرْعاً
كَامِلاً، وَرُعْباً فَاتِمَا «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ إِمَّا كَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ
بِيَمِّ».

على حين أن المؤمنين الذين عبدوا الله، وعملوا
الصالحات، عاشوا للحقيقة العالية المتمثلة في الإيمان بالله ،
والترزام ما شرع لهم في دينه، هؤلاء لهم أطيب الجزاء عند
الله وأحسنها، لهم الدرجات العالىات في جنات ربهم
الفيحاء، التي تكتنفها الخضراء والمياه من كل جوانبها، وفيها
ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أذن سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر،
فهم يتمتعون في روضات الجنات بأطيب بقاعها، وأعلى
مساكنها، ولهم عند المولى - عزوجل - ما يَمْنَوْنَ وما
يريدون، وتلك نعمة عالية غالبة، لا ينالها إلا من رضي الله
عنْه فارضاً، وأنزله مع النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين، وحسن أولئك رفقاً. وذلك هو الفضل
الكبير .

* * *

(٤)
من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٨ من سورة الشورى

ذَلِكَ الَّذِي
 يُنْهِي رَبُّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءاْمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَمْ
 يَأْتُلُكُمْ عَلَيْهِ أَبْرَاهِيمَ الْمُوَدَّهَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ
 يَقْرَئِ فَحَسَنَةً تُزَدَّ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 شَكُورٌ ⑩ أَمْ يَقُولُونَ أَنَّهُمْ عَلَى اللَّهِ كَذَّابُونَ فَلَمْ
 يَأْتِ اللَّهُ بِخَطِيمٍ عَلَى قَلْبِكُمْ وَمَعَ اللَّهِ الْبَيْطَلُ وَمَا يُحِيطُ
 الْحَقُّ بِكَلْمَتَهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑪ وَهُوَ
 الَّذِي يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَعْفُوَ عَنِ الْمُغَامِرَاتِ
 وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ وَسَبَبَ الَّذِينَ ءاْمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَرَيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ
 عَذَابٌ شَدِيدٌ ⑬ * وَلَوْبَطَ اللَّهُ أَرْبَقَ لِعِبَادِهِ
 لَيَعْوَأُ في الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزَلُ يُقَدَّرُ مَا يَتَّهَى إِنَّهُ

يَعْبُادُهُ حَيْدَرٌ يَصِيرُ^{١٥} وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ
بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشِرُ رَحْمَتَهُ^{١٦} وَهُوَ الْوَلِيُّ الْخَيْدُ^{١٧}

معاني الكلمات والجمل

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ : ذلك الإكرام والجزاء الطيب يبشر الله به عباده المؤمنين ، تعجبأ لسرورهم ، وترغيبا لهم في لقاء ربهم .

لَا أَسْفَلُكُمْ عَلَيْهِ أَيْمَانًا : لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرا ولا مالا .

إِلَّا الْمَوْدَةُ فِي الْقُرْبَى : إلا أن تراعوا قرباتي لكم جميما ، فتدونني وتصدقوني .

يَقْتَرِفُ حَسَنَةً : يعمل حسنة ، ويكتب طاعة .
غَفُورٌ شَكُورٌ : كثير الغفران للمذنبين ، والشكر للمحسنين .

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا : كذب واختلق ، وأدعى نسبة القرآن إلى الله .

يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ : يطبع على قلبك ويطمس ، ويذهب القرآن من صدرك .

وَيَمْحُ أَلَّهُ الْبَاطِلَ : يُزِيلُ اللهُ الباطلُ ويُمحِّقهُ .
وَيُحْكِمُ الْحَقَّ بِكِيمِيَّةٍ : يُثْبِتُ الحقَّ ويُظْهِرُه جَلِيلًا وَاضْحِيَا
 بِآياتِه وَحْجَجهُ وَبِرَاهِيهِ .
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا : وَيُسْتَجِيبُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ،
 وَيُجِيبُ دُعَاءَهُمْ .
وَلَوْبَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ : لَوْسَعَ اللهُ الرِّزْقَ عَلَى عِبَادِهِ
 لِعِبَادِهِ وَأَغْنَاهُمْ .
لَبَغَوا : لَتَجْبَرُوا وَظَلَمُوا ، وَتَجْلَوْزُوا
 الْحَدُودَ .
وَلَكِنْ يُنْزِلُ يَقِنَّاً : يُرْزِقُ بِحِكْمَةٍ وَتَقدِيرٍ وَفُقْنَ مُشَبِّهٍ
 وَعَلَمَهُ بِطَبَائِعِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ
 وَالْخَلَافَاتِ .
يُنْزِلُ الْغَيْثَ : يُنْزِلُ المَطْرُ النَّافِعُ الْمُفَيَّدُ الَّذِي
 يُغَيِّثُ الْبَلَادَ وَالْعِبَادَ .
مِنْ يَعْدِ مَا فَنَطَرُوا : مِنْ بَعْدِ مَا تَمْلَكُوهُمُ الْبَيْسُ ، وَانْفَطَعَ
 أَمْلَهُمْ فِي الإِنْقَاذِ .
وَيَنْشِرُ رَحْمَتَهُ : وَيَعْمَلُ الكَوْنَ بِالْمَنْفَاعِ وَالْخَيْرِ
 وَالْحَصْبِ وَالثَّمَاءَ .
وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ : وَهُوَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلَيَاءَهُ ، وَيَتَولَى
 عِبَادَهُ بِفَضْلِهِ ، فَيَكْثُرُونَ حَمَدَهُ
 وَشُكْرَهُ .

الشرح

١ - بشرى للمؤمنين :

إن الحديث عن هذا الحزاء الطيب الذي أشارت إليه الآية السابقة، إنما هو بمثابة بشارة لهؤلاء الذين آمنوا بالله وعبدوه مخلصين له الدين، وتعشقوا فعل الصالحات، وهو حزاء يستحقونه بما قدموا في حياتهم من خير الأعمال، وأحسن السلوك، وما أكرمه من جزاء ! وما أعظمها من بشرى ! وأي البشريات يمكن أن تغدو النفس سروراً، والقلب سعادة، وتبعث الرضا والسكينة، وراحة البال في صدور المؤمنين أقوى من تبشيرهم بالنعم بروضات الجنان، والتمتع فيها بكل ما ينتظرون مملا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطط على قلب يشر، ولهم فيها ما يشاؤون دون شروط ولا حدود ولا منعطفات؟ إنها حقيقة بشرى يحرض عليها أصحاب القلوب الكبيرة، والنفوس العالية!! ولكن غالبية الناس - إلا من رحم ربك - تغلبهم طبيعتهم المادية، فيقيسون كل أمورهم بمقاييس مادي بحت، ولأنهم لا يفعلون الخير إلا بمقابل، فلا يتصورون أحداً يفعل الخير احتساباً لله، ويسعون الغلن برسول الله، فيتصورونهم طلاب دنيا ومنفعة، فيأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم: «أَعْلُكُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا أَمْوَالَةِ فِي الْقُرْبَى». فلا أبنتي من وراء هدايتكم إلى الله، وإيصالكم إلى هذا النعيم المقيم في

روضات الجنات ، وإنقادكم من العذاب الأليم في الآخرة -
أيُّ أجر دنيوي ، اللهم إلا أن تراغوا ما بيني وبينكم من قرابة ،
وتودونني في قرابتي منكم ، فإن لم نؤمنوا بي لنبوتي فآمنوا
لقرباتي ، وصلوا رحبي ولا تقطعوني .

فحين تصور كفار مكة أنهم لو جمعوا لمحمد - صلى الله
عليه وسلم - أموالا ، **فسيُقْبِلُ** عليها فرحا بها ، ويؤثر
الانصراف عن الدعوة إلى دين الله ، نبهه الله إلى أن أحسن
رد على الكافرين هو مصارحتهم بأنه ليس بحاجة إلى
أموالهم ؛ لأنه لا يتعيني أجرًا على دعوته إلى الله ، ولا يطلب
جاهًا دنيويا ، ولا عزًا موقوتًا في حياة الناس ، وإنما هو بحاجة
إلى أن يراعوا جميعاً القرابة التي بينه وبينهم ، فيتعهدوها
بالرعاية ، وحسن الصلة ، وكريم التعامل ، وستكون التيجنة
خيراً لهم في الدنيا والآخرة .

رُوِيَ أن ابن عباس - رضي الله عنهما - سُئل عن قوله
تعالى : «إلا المسودة في القرى» فقال : «إن النبي - صلى الله
عليه وسلم - لم يكن يطعن من يُطعن قريش إلا كان له فيهم
قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»^(١) .
فكفوا عني أذاكم ، وتسمعوا مني وتفعلوا ما أقول ، فليس أحد
من العرب أولى بنصرتي وحماستي منكم ، ثم إن الله - تعالى -

(١) ترجمة البخاري (٣٧/٦) كتاب تفسير القرآن / دباب جم عذر ، وأخرجه الترمذى (٩/٣٢٧) وبدائل حسن صحيح

لَمْ يَقْطُعْ عَلَى الْجَاهِدِينَ طَرِيقَ الْفَلَاحِ، بَلْ إِنَّهُ لِيُفْتَحْ لَهُمْ
بَابَ رَحْمَتِهِ، فِي سَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمُوا إِلَى سُلُوكِ الْصِّرَاطِ
الْمُسْتَقِيمِ، وَبِؤْكُدِ لَهُمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُظْلِمُهُمْ مُنْقَلَّ ذَرَةٍ، وَإِنْ
تَلَّ حَسَنَةٌ يَضَاعِفُهَا، فَمَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا يُجْزَى خَيْرًا، وَأَنَّ الْحَسَنَةَ
بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَقَدْ يَضَاعِفُهَا اللَّهُ إِلَى سِبْعَمَائَةِ أَوْ يَزِيدُ. «وَمَنْ
يَقْتَرِفْ حَسَنَةً تَرَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنَةً» كُلُّ ذَلِكَ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ
سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لَا إِنَّهُ غَفَارُ الذُّنُوبِ، وَاسِعُ الرَّحْمَةِ، يَقْبِلُ مِنْ
تَابَ وَأَنَابَ. وَهُوَ - سَبَحَانَهُ - الْوَدُودُ الَّذِي يُفْرِجُ بَعِيَادَهِ
الْطَّائِعِينَ، وَيَشْكُرُهُمْ هُمْ مُتَّهِمُونَ فِي طَاعَتِهِ، وَإِقْبَالَهُمْ عَلَى مُحِبَّتِهِ.

٢ - مِنْ كَيْدِ الْكَافِرِينَ:

إِنَّ الْكَافِرِينَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ
يَرْغُوا لِقَرَابَتِهِ فِيهِمْ عَهْدًا، وَلَمْ تَهْدَأْ نُفُوسُهُمْ لِاسْتِمْرَارِهِ فِي
الْدُّعَوَةِ إِلَى دِينِ إِلَّا سَلَامَ، وَانْصَرَفَتْ عَقْوَلُهُمْ إِلَى الْكِيدِ لَهُ بِمَا
يَحْطُمُ - فِي زَعْمِهِمْ - قَوْنَتِهِ، وَيَقْضِيُ عَلَى مَا كَانَ لَهُ بَيْنَ قَوْمَهُ
مِنْ احْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ. وَمَنْ هَنَا زَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا يَكْذِبُ
وَيَخْتَلِقُ، وَيَنْبِسُ مَا يَقُولُ إِلَى اللَّهِ زُورًا وَبَهَانَةً، وَكَذِبُوا. فَلَوْ
كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا لَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ، وَلَمْ
يَجْعَلْ لَكَ شَأْنًا فِي الدُّعَوَةِ إِلَى دِينِهِ، قَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ أَحَدًا
يَدْعُى الرَّسَالَةَ، وَيَنْبِسُ إِلَيْهِ تَعَالَى وَخَيْرَ الْمُبَوحِ إِلَيْهِ، إِلَّا
خَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ، وَمَحَا بَاطِلَهُ الَّذِي افْتَرَاهُ.

لَكُنَ اللَّهُ أَصْطَفَاكَ وَاجْتَبَاكَ، وَأَيَّدَكَ بِالآيَاتِ الْيَسِيرَاتِ
وَبِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَمْحُو مَا هُمْ عَلَيْهِ
مِنْ ضَلَالٍ وَرَيْفٍ، وَيَنْصُرُ رَايَةَ الْحَقِّ الَّتِي تَحْمِلُهَا، وَيُعْلِمُ
شَانَهُ بِكَلْمَانَهُ، وَصَدِقُ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : « بَلْ نَقْذُفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ
الْبَطْلِ فَيَنْدَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِنٌ »^(١) . وَاللَّهُ - تَعَالَىٰ - مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ
وَبَعْدَهُ - عَلَامُ الْغَيْبِ، لَا تَخْفِي عَلَيْهِ أَسْرَارَ تِكْهُ الصَّدُورِ،
وَلَا أَضْعَانَ تَحْوِيَهَا الْفُلُوبُ « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ » .

٣ - قابل التَّوْبَ شَدِيدُ العَقَابِ :

مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَىٰ عَبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، أَنْ يَتَقْبَلَ تَوْبَتِهِمْ،
وَيَتَحَاوِزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَمِنْ ثُمَّ يُجِيَّ « هَذَا التَّرْغِيبُ فِي الإِنْتَابَةِ
إِلَى اللَّهِ، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَإِلَاقَاعِ عَنِ الْكُفَّرِ »، بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ أَنَّ
عَصِيَانَ الْكَافِرِينَ لِمَنْهَاجِ الْحَقِّ، وَإِصْرَارَهُمْ عَلَىٰ السَّيِّرِ فِي
رَكْبِ الْبَاطِلِ، وَمَحَاوِلَةِ دَعْمِهِ بِرَأْفِهِ مِنَ الْقَوْلِ، وَوَاهِنِ مِنَ
الْحَجَّ - لَنْ يُجَدِّيَهُمْ شَيْئاً، وَلَنْ يُلْبِثُ أَنْ تَزُولَ آثَارُ هَذَا
الْبَاطِلِ، وَتُمْحَى قَوَاعِدُهُ، كَمَا وَعَدَ اللَّهُ - سَبَّحَانَهُ - فِي الْآيَةِ
الْسَّابِقَةِ .

فَالْجَدِيرُ بِالْعُقَلَاءِ أَنْ يَتَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ، تَوْبَةً نَصْوَحاً،
وَيَرْجِعُوا إِلَى كَلْمَةِ الْحَقِّ مُؤْمِنِينَ بِهَا، وَسِجَّدُونَ اللَّهَ تَوَاباً
رَحِيمًا، يَفْتَحُ لَهُمْ - بِرَحْمَتِهِ - أَبْوَابَهُ، وَيَقْبِلُهُمْ عَبْدًا لَهُ

(١) سورة الْأَيَّاتِ / الآية ٦

مخلصين، ويعفو عن سيئاتهم، ويغفر لهم زلاتهم، جزاء
إقبالهم على الله، ورغبتهم في أن يصفح عنهم، ويسألكم
في عباده الصالحين، فهو الذي يعلم صدق التائبين في
توبتهم، ويعلم ما يفعل البشر، ويجزي كلّاً بعمله « ولا يظلمُ
ربك أحداً »^(١)، فليقبل الصالون على الهدى قبل فوات الأوان،
وليخلصوا أنفسهم من هذا الإصرار والمكابرة، ومن هواجرس
الخوف والقنوط من رحمة الله . وليرعلموا أن الله - سبحانه -
يُعلي منزلة من آمن وعمل صالحاً، واستجاب لدعوه رب،
فيستجيب الله لهم، ولا يرد لهم مطلبها، ولا يُغلى في وجوههم
باباً، بل يزيدهم من فضله وكرمه فوق ما سألوا، ويعذّب
عليهم من نعمه وألانه فوق ما استحقوا . أما الكافرون فليس
لهم عنده إلا الخزي والنكاٰل، وشديد العذاب « يَرَأُكُمْ وَفَاقِنًا »^(٢)
إِنَّمَا كَانُوا أَلَا يَرْجُونَ حَيَاً »^(٣) وَكَذِيْرَأَيَّاتِنَا كَذَّابًا »^(٤) ،

٤ - إن الله هو الرزاق :

سبق الحديث في هذه السورة عن مسألة الرزق، والأية
هنا تؤكد أن الله تكفل بالرزق لخلقـه، المسيء منهم
والمحسن؛ لأن الرزق أساس الحياة، ومن خلال الفروق بين
الناس فيه يتم إعمار الكون، وصلاح شؤون الخلائق؛ « لِتَبْعَدَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنِّي »^(٥) . بصرف النظر عن الإيمان والكفر،

(١) سورة الكهف/ الآية ٢٦-٢٨ .

(٢) سورة النازعات/ الآية ٣٢ .

(٣) سورة الزمر/ الآية ٣٤ .

فَلَا يُعْقِلُ فِي دُنْيَا النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا جَمِيعاً مُؤْمِنِينَ «وَلَوْشَاءَ رَبِّكَ
يَجْعَلُ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوْنَ مُخْتَلِفِينَ ⑯ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ
خَلَقَهُمْ ⑰»^(١)

وَمِنْ هَنَا فَلِيسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُسْطِعَ اللَّهُ الرِّزْقَ عَلَى كُلِّ
النَّاسِ، وَيُوَسِّعَهُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَقِ؛ لَأَنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ وَزِيَادَةَ
الْمَالِ تُبَطِّرُ الْإِنْسَانَ غَالِبًاً، وَيُصْبِحُ بِغَنَائِهِ عَدُوَّاً طَاغِيَّاً «إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ⑱ إِنَّ رَءَاهُ أَسْتَغْنَى ⑲»^(٢)

وَلِذَلِكَ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ - جَلَّ فِي عَلَاهُ - أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ النَّاسِ
فِي سَعَةِ مِنَ الْعِيشِ، حَتَّى لا يَسُودَ الْعُدُوانُ، وَتُشَوَّرَ الْفَتَنُ،
وَيَنْتَشِرَ الْبَغْيُ وَالظُّلْمُ، وَحَسِبَنَا أَنَّ نَعْرِفَ مِنْ قَصَّةِ قَارُونَ أَثْرَ
الْغَنِيِّ فِي بَطْرِ النِّعْمَةِ، وَالْبَغْيِ عَلَى النَّاسِ وَظُلْمِهِمْ. قَالَ
تَعَالَى : «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنَ قَوْمٍ مُوْمِنِينَ فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ
الْأَكْنَافِ مَا إِنَّ مَاقِحَّهُ لَتَنَوَّا بِالْعُصْبَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ ذَلِكَ لِمَ قَوْمٌ لَا يَرْجِعُ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْرِحِينَ ⑳ وَابْتَغِ فِيمَا آتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَسْرَةَ وَلَا تَنْسَ
تَعْبِيْكَ مِنَ الدَّهْرِ وَلَا حِنْ حَمَّا أَحْنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي
الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ㉑»^(٣)

فَالصَّالِحُونَ مِنْ جَمِيعِهِ يَنْصُوحُونَهُ أَنْ يُحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ
اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَنْالَ رِضْوَانَ اللَّهِ بِمَا يَنْفَقُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي أَنْعَمَ
اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يَأْبَى وَيُصْرِتُ عَلَى الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ، وَيَرْفَضُ

١) سورة هود / الآيات ١١٦، ١١٨.

٢) سورة العنكبوت / الآيات ٦، ٧.

٣) سورة الفتح / الآيات ٧٦، ٧٧.

الصيحة مستكراً، كأن لم يسمعها، بل إنه اشتد غروراً حين
رُّعِمَ أن ما هو فيه من خير ونعمة نتيجة جُهده وكفاحه، ووليدُ
حُنْكته ودرايته: قال: «إِنَّمَا أُوتِينَاهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي»^(١).

إن هذه هي طبيعة البشر، تكرر على التاريخ، وما أشبه
الليلة بالبارحة، إذ إن جماعة من أهل الصفة^(٢) تمنوا سعة
الدنيا والغنى، فنزل قول الله تعالى: «وَلَوْبَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِرِبَادِهِ
لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ»^(٣).

قال خَيْبَابُ بْنُ الْأَرْتَ: فَيَا نَزَلتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّا
نَظَرْنَا إِلَى أَمْوَالِ بَنِي قَرِيبَةِ وَالنَّضِيرِ فَمَنَّيْنَاهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: «* وَلَوْبَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِرِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ
يَنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّ رَبَّ رِبَادِهِ خَيْرٌ بِصَيْرٍ»^(٤).

وهكذا فإن الله - سبحانه - يتولى أمر عباده، ويحسن إليهم
بما ينفعهم في دنياهم، وما يصلح شرورهم فيها؛ لأن الخير
بهم، العليم بأحوالهم، البصير بما يُئْمِنُ عليهم الاستقرار
والامن في حياتهم. فهو سبحانه ينزل الرزق بقدر وفق عليه
وحكمة ومصلحة عباده، كما جاء في الحديث القديسي الذي
رواه أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن

(١) سورة الفصل الآية ٧٨.

(٢) هم قوم من فقراء المسلمين الذين لم يكونوا يملكون شيئاً من حطام الدنيا، صغاراً للعافية، ولا يداً سمح لهم
بأن يلمسوا إبله، ويسكنون فيه، ويتكلل المسلمين بمعاناتهم.

(٣) سورة التورى الآية ٢٧.

(٤) انظر / أسد الرزول الراوسي الساويري المعنوي ١٦٨ ص ٢٥١ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٩٥ م.

١٩٧٣ م/التلقي في أسد الرزول للسوسي ص ١٦٨ الطبعة الرابعة دار إحياء العلوم - بيروت ١٤٠٣ هـ.

ربه: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا العني، ولو أفرغته لافتدى
عليه دينه. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أخفيته
لافتدى عليه دينه».

على أن من نعم الله الجليلة على عباده إرسال الغيث بعد
الجذب، ومن أسباب الرزق المعروفة للعيان هطول الأمطار
حين تكون الأرض عطشى إلى المياه من بعد مخل وفحط،
ومن بعد يأس من نزولها. فينشر الله رحمته، ويسوق الغيث؛
ليمسح الكرب، ويعث الأمل، ويُغيث الملهوف، ويدرك
المؤمنون آثار بره وفضله». فَإِنَّمَا يُنَزَّلُ مِنْ رَبِّكَ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِي إِنَّ ذَلِكَ لِمُحِيمِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١).
لكن الله لا يضيع عباده، بل يشملهم برعايته، ويكفلهم
برحمته، فينزل عليهم المنطر بقدر ما ينفعهم، فتسقى
الأرض، ويروى الحيوان، ويشرب الناس. وهو بهذا يغاثهم
معاً ألم بهم من سوء، وينشر الخبر والخبرة، فتورق الدنيا
وتزهر، وتدب الحياة في الأرض الميتة، فتنفس وتهتز، ويعم
النفع البلاد والعباد، فما كان الله ليتخلى عن خلقه، ويفحش
عنهم سر الحياة حتى يموتون عطشاً (وهو الولي الحميد) الذي
يرعى عباده الصالحين؛ لأنه ولهم وناصرهم، وجالب الخير
لهم، وهو المحمود المستحق للشكر والحمد والعرفان
بالنعم.

^(١) سورة الفروم الآية ٥

(٥)

من الآية ٢٩ إلى الآية ٣٥ من سورة الشورى

وَمِنْ هَا يَنْهِيْهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَ فِيهَا
مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَسَأَهُ قَدِيرٌ ⑯ وَمَا
أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصْبَبَةٍ فِيمَا كَبَتُ أَنْذِيْكُ وَيَعْنُوا عَنْ
كَبِيرٍ ⑰ وَمَا أَنْتُمْ بِعَجِيزِنَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نِصِيرٍ ⑱ وَمِنْ هَا يَنْهِيْهِ
أَبْحَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْظَمِ ⑲ إِنْ يَنْأِيْسِكَنَ الْرَّبْحَ
فَيَظْلَلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهِيرَةٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَلِكُ
صَبَارٌ شَكُورٌ ⑳ أَوْ يُوْقِنُنَ إِيمَانَكُبُرَا وَيَعْفُ عَنْ
كَبِيرٍ ㉑ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجْهِلُونَ فِي هَا يَنْهِيْهَا مَالِمُ
مِنْ حَمِيسٍ ㉒

معاني الكلمات والجمل

وَمَا بَثَ فِي سَمَاءٍ مِنْ دَأْبٍ : وما نشر فيهما من مخلوقات تدب وتحرك.

جَعْلُهُمْ : خَشْرُهُمْ يوم القيمة.

فِيمَا كَبَّتْ أَيْدِيهِكُمْ : فَيَسِبُّ ما ارتكبتم من المعاصي والذنوب.

وَمَا أَنْتُمْ مُعْجِزُونَ فِي الأرض : وما أنتم بفائقين من العذاب، ولا مستطعين الهرب من عقاب الله.

الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ : السفن التي تجري في البحر كالجبل في العظم، أو كالقصور.

يُسْكِنُ الْرِّيحَ : يوقفها ولا يتبع لها الحركة.
فَبَطَّلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهِيرَةٍ : فتقى السفن ساكنات فوق سطح الماء لا تجري.

أَوْ يُوْقِنُهُنَّ بِمَا كَبُوا : يُعرّفهن بسبب ذنب أهلها.
جَهِيزٌ : مهرب ومفر.

الشرح

١ - الخالق المهيمن:

إن دلائل عظمة الله - تعالى - وقدرته في الكون كثيرة، لا

يستطيع أحد عدها أو حصرها، والأية الكريمة هنا تشير إلى بعض هذه الدلائل وأبرزها للناس، وهي خلق هذا الكون العجيب الهائل في أروع صورة، وأدق ترتيب، وأعظم تنسيق، يربط بين السموات والأرض، ويشكل منها وحدة متماسكة الأطراف، مُحْكَمَة الصنْعِ، لا يُعْتَرِفُ بِهَا خَلْلٌ، ولا يدرك المتمعن بجمالها وجلالها مَلَلٌ. فسبحان من أبدع هذا الكون العظيم وأوجده من عدم !! وسبحان من خلق الحياة والاحياء في السموات والأرض !! **فَلِمَنْظُرِهِ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَبَدُ وَالنَّدْرُ عَنْ قُوَّرٍ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴿١١﴾

ماذا في السموات ؟ هناك ملائكة الله، وهم خلق من خلقه، عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمِنُونَ . وهم جند من جنده، وما يعلم جنود ربكم إلا هو. وما في السموات موضع شير إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد إلى يوم القيمة، فسبحان من خلق الملائكة وأحصاهم عددا !! وماذا فوق الأرض ؟ حياة منتهية على ظهرها وفي باطنها، وفي أجواء فضائتها، وفي أعماق بحارها، ويدب في أرجائها ما بث الله فيها من دابة من الإنس والجن والحيوان صنوفاً وأجناساً، وأنواعاً ولواناً لا يحيط بها علم الإنسان إلى اليوم.

فَبِحَانَ مِنْ عَنْ أَرْضٍ بِمَخْلوقَاتِهَا، وَجَعَلَهَا صَالِحةً
لِحَيَاةٍ مَا عَلَيْهَا مِنْ دَوَابٍ ! « هَذَا خَالقُ اللَّهِ فَارُوفٌ مَاذَا خَالقُ الَّذِينَ
مِنْ دُونِهِ » (١) .

هذه الأحياء من الإنس والجن والملائكة الذين لا يعلم
عدهم إلا الله الذي بهم في السموات والأرض - سوف
يجمعهم الله حين يربد جمعهم، لا يختلف منهم أحد « أَوْلَئِكَ
يَرَوُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِنْ بِخَلْقِهِنَّ يُقْنَدُرُ عَلَى
أَنْ يُعْلَمَ أَتْمَقُونَ بَلْ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقَدِيرٌ » (٢) .

فهو سبحانه لا يقف أمام قدرته شيء، ولا يعجزه أن يجمع
هذه الكائنات كما بدأ تخلقها ونشرها في الكون، لا فرق
عنه بين بشّها وجمّعها، ولا بين خلقها من عدم وإحيائها بعد
موتها « وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَسَّأَهُ قَدِيرٌ » (٣) .
 فَحَرِّي بالعقلاء أن يندثروا مصيرهم، وأن يستعدوا ل يوم
الجمع، فذلك يوم التغائب.

٢ - المصائب بما كتب أيديكم :

ومن واجب الناس أن يشكروا آلاء الله ونعمه، فهم في
خير دائم من فيض الله وفضله، كما يجب لا ينسوا عدله،
 فهو لا يسوى بين الحسنة والسيئة، فإذا أصابهم سوء في

(١) سورة النحل / الآية ١١

(٢) سورة الألطاف / الآية ٣٣

حياتهم فإن مرجع هذا السوء إلى تصرفاتهم المترفة،
وسلوكيهم القبيح، وما يرتكبون من أثام وذنوب: **وَلَوْاَنْ أَهْلَ**
الْقُرَىٰ ءَامْنُوا وَأَنْقُوا الْفَعْنَاحُ عَلَيْمِ بَرَكَتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ
كَبُرُوا فَأَخْذَنَهُمْ مِمَّا كَانُوا يَسْكُنُونَ (١١) (٥)

ف والله - سبحانه وتعالى - ينبه الكافرين بذلك المصائب إلى ضرورة الإيمان والبعد عن الكفر والمعصية، وينظر المؤمنين بهذه العقوبات من بعض ما اقترفوا من سيئات، وهو الغفور الرحيم الذي يغفو عن كثير من زلات خلقه، ولو أنه عاقبهم على كل ذنب فعلوه لأهلüküm عن آخرهم، ولم يُعِنْ منهم أحداً، قال تعالى: **وَلَوْيُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ إِمَّا كَبُرُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهِيرَهَا** **مِنْ دَآبَةٍ** (٦).

فال المصائب في الدنيا تكون عقاباً للكافرين لعلهم يرجعون، دون أن تکفر لهم ذنبها، أو تكتسبهم ثوابها، ومع ذلك فالله تعالى لا يعاقبهم على كثير من آثامهم؛ إمهالاً لهم إلى يوم الدين. أما المؤمنون فقد تكون المصائب كفارات لذنباتهم، وتطهيرًا لنفسهم.

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا

(١) سورة الأعراف / الآية ٩٦

(٢) سورة فاطر / الآية ٤٠

غم، حتى الشوكة يُشاكلها - إلا كفر الله بها من خطایاه^(١) كما أنها قد تكون ابتلاء من الله لعباده المؤمنين رفعاً لدرجاتهم، وإظهاراً لصدقهم وقوة إيمانهم.

قال تعالى : « وَلَبِلُونَكَ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالظَّاهِرِينَ وَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ »^(٢).

ثم تستمر الآيات لعرض لنا آخر من دلائل قدرة الله - عزوجل - وآياته في الكون، فتذكّر أنه لا يملك أحد من عباده - إيكاك نفسه من قبضته، ولا فال رقته من سلطاته، ولا يستطيع أن يفلت من عقابه، أو يهرب من ملكه وحكمه، فain المفتر، وهو سبحانه المُهيمن على خلقه، والسيطر على الكون بما فيه ومن فيه؛ لأنّه خالقه ومالكه، فلا يعجزه أحد من خلقه مهما يكن شأنه، أو يعظم على الأرض جاهه؟ ولن يجد الناس غير الله ولن يتولاهم برعايته، ولا نصيراً يحميهم برحمته.

فليُاقبوا الله في السر والعلن، وليحسنوا به الصلة، فهذا صمام أمانهم في الدنيا والآخرة.

٣ - الفلك المشحون من دلائل قدرة الله:

ثم يكشف الله للناس جانبًا من رحمته البالغة بهم، إذ

(١) النَّفَرُ: النَّفَرُ، والوَرْسَبُ: الوجه الدائم الثابت. والحديث يتعلّق عليه والنقطة للباحث في كتاب دالبروس، باب ما حد في كثرة المرض

(٢) سورة محمد/ الآية ٣١

يسمح للسفن بأن تجري في البحر بإذنه، فتنقل الناس من بلد إلى بلد، لم يكونوا بالغين إلا بشق الأنفس، وتحمل لهم من البضائع وألوان التجارة ما تستقيم به حياتهم، هذه السفن الضخمة الكبيرة تمخر عباب البحار والمحيطات، وتبعد وسطها كأنها العجائب العالىات في الأرض، أو القصور الشامخات. هذه السفن يسيّرها الله في البحار بحركة الهواء؛ ليتشرّ على الناس شؤون حياتهم، قال تعالى: «رَبُّكُمْ أَلَّذِي يُزِيجُ لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَتَغَرَّبُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّمَا كَانَ يُكَوِّنُ رَجْمًا»^(١).

نعم، إنها آية عظيمة ناطقة بقدرة خالقها، وإن فمن سخر البحر لجري الفلك فيه بأمره؟ ومن أودع في هذه السفن خصائصها التي تطفو بها على سطح الماء مُحملات بآلاف الأطنان الثقيلة من كل ما خلق الله في البر والبحر؟ ومن يرسل الرياح فتزجي الفلك، وتسوقها إلى حيث يشاء الإنسان؟ ومن يهدى الناس إلى الاستيعاضة عن الريح بأنواع من الطاقة البخارية أو الذرية أو النفطية؟ ومن يهدى الناس في ظلمات البر والبحر؟ إله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون!! وإذا كانت رحمته - سبحانه - تسبق غضبه، فإنه قادر كذلك على أن يوقف حركة الهواء، ويسكن الريح، فلا

(١) سورة الإسراء/ الآية ٦٦

تستطيع سفينة أن تتحرك، بل تظل راكرة فوق سطح الماء.
 إنَّ فِي جَرِيَانِ السُّفُنِ وَسُكُونِهَا لَعْبًا وَعَطَاتٍ لِكُلِّ مَنْ فَتَحَ
 لِلْحَقِّ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِي الْكَوْنِ عَقْلَهُ وَفَكْرَهُ، وَإِنْ فِيهَا لَا يَابِ
 عَظِيمَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ كَثِيرٌ الصَّبْرُ فِي الْبَاسَاءِ، وَالشُّكْرُ فِي
 الرُّخَاءِ؛ لَأَنَّ رَكُوبَ الْبَحْرِ يُنَزِّلُ قَدْرَ إِيمَانِ الْإِنْسَانِ أَوْ كُفَّرَهُ،
 فَيُظَهِّرُ صَبْرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَحْمِلُهُمْ لِلشَّدَائِدِ، إِنْ سَكَنَ الرِّبَعُ،
 فَوَقَفَتِ الْحَرْكَةُ، أَوْ هَاجَتِ الرِّبَعُ فَأَغْرَقَتُ، أَوْ هَدَدَتِ
 بِالْغَرْقِ، كَمَا يَتَضَعُ شُكْرُهُمْ لِلَّهِ حِينَ يَفْرَجُ عَنْهُمْ هَذَا
 الْكَرْبُ، أَوْ حِينَ تَجْرِي بِهِمُ الْفَلَكُ بِرِبَعِ رُخَاءٍ طَيِّبَةٍ..

أَمَا مَوْقِفُ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ الْجَحْودُ، وَنُكْرَانُ النُّعَمَ فِي
 الرُّخَاءِ، وَعَدْمُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ إِلَّا وَقْتُ الشَّدَّةِ وَالضَّيقِ، وَصَدَقَ اللَّهُ
 الْعَظِيمُ إِذَا يَقُولُ مُخَاطِبًا يَهُولَهُ الظَّالِمِينَ الْجَاهِدِينَ: « هُوَ
 الَّذِي يُسَرِّئُكُمْ فِي الْأَبْرَارِ وَالْأَبْحَرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَنَ زَيْمَ
 بِرِبَاعٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَهُمْ بِعُنْصُرٍ عَاصِفٍ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
 وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ أَحْجَطُهُمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يُنْجِنُسْـا مِنْ
 هَذِهِ الْأَرْضِ لَتَكُونُ مِنَ الشَّرِكِـينَ (١) فَلَمَّا أَعْنَبُهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ
 يَغْيِرُ الْحَقِّ يَنْأِيَهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَغْبُرُ عَلَى أَفْسِرِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَمُمْ
 إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنَنْتَشِمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢) ».

(١) سورة يسوس / الآيات ٢٣، ٢٤

ألا ما أضعف هذا الإنسان عندما تزداد جرأته على ربه
وخلقه، فيتخلّى الله عن نصرته، ويعرض هذا المسكين
لنقمة ، حيث يدوس على حقيقته أضعف مخلوقات الله .

فماذا تفعل حيلة هذا الإنسان حين يرى ربك أن يُوبق
السفن في عرض البحر أو المحيط ؟ وحين يرى أن يأخذ
الناس بذنبهم، فيفرق سفنهم، وبذلك ما عليها ومن
عليها ؟ لكن الله تعالى يعفو عن كثير مما يقع فيه عباده من
آثام ، وما يتورّطون فيه من ذنوب وحماقات .

ولعل في هذا ما يكشف لكل ذي عقل وبصيرة أن الله
تعالى هو المهيمن العزيز الجبار، وليعلم الذين يجادلون في
الإيمان بالله سبحانه، وفي آياته ودلائل قدرته، وبخاصمون
في اتباع دينه، وتحذّرون رسّله - أنهم واقعون في إطار
هيمنته - عز وجل - وسلطاته ، وأن ليس لهم مهرب يلجأون
إليه «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ^(١) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقُلْبٍ سَيِّئٍ^(٢)» .

* * *

(١) سورة الشمراء / الآيات ٨٩، ٨٨

(٦)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٦ من سورة الشورى

فَأَوْتِنُمْ مِنْ شَيْءٍ وَقَنْطَنَ الْحَيَاةِ
الَّذِيَا وَمَا يَعْنِدَ اللَّهُ خَيْرٌ وَلِيَقِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ⑥ وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كُثُرَ الْإِثْمِ وَالْفَحْشَ
وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ⑦ وَالَّذِينَ أَسْنَجَابُوا
رَبِّهِمْ وَأَقْامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمَا
رَزَقَنُهُمْ يُنْفِقُونَ ⑧ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابُوهُمْ أَبْيَهُمْ
يَنْتَصِرُونَ ⑨ وَجَرَأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِنْهَا قَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَبْرُمَ عَلَى اللَّهِ إِنَّمَا لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ⑩ وَلَمَنْ
أَتَصْرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأَوْتَهُكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ⑪
إِنَّ السَّبِيلَ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ
فِي الْأَرْضِ يَغْتَرِرُ الْحَيَّ أَوْتَهُكَ هُمْ عَذَابُ أَيْمَنٍ ⑫
وَلَمَنْ صَرَرَ وَغَرَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ ⑬

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَأَلَّهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى
 الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَّا مَرَدٌ مِنْ
 سَبِيلٍ ⑩ وَرَبُّهُمْ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا أَخْشِعَيْنَ مِنْ
 الْمُلْكِ يَسْتَطِعُونَ مِنْ طَرْفِ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ
 الْخَنِيرَيْنَ الَّذِينَ حَسِرُوا النُّفُسَمْ وَاهْلِيَّوْمِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ
 إِلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيْمٍ ⑪ وَمَا كَانَ لَهُمْ
 مِنْ أُولَيَاءِ يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ
 فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ⑫

معاني الكلمات والجمل

فَآأَوْتَيْنَمْ مِنْ شَيْئِنْ وَ : فما منحك الله من نعمه، وما
 أعطاك من خير.

فَقَنَعَ الْجَبَرَةَ الدُّنْيَا : فإنما هو متاع مؤقت في حياتكم
 الدنيا، مآلها إلى الزوال.

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

: الذي عند الله من ثواب الطاعات

خير من مثاب دنياكم وأبقى .

يَعْتَنِيُونَ

: يتعدون عنه ولا يقرُّونه .

كَبَرَ الْإِيمَانُ وَالْفَوْحَشَ

: الشرك وما عظُم قبحه من الذنب
كالقتل والزنى .

هُمْ يَغْفِرُونَ

: من طبعهم الصفح عن المسيء ،

والحلم عن ظلمهم .

أَصَابَهُمْ الْبَقْعُ

: يتحكمون إلى رأي الجماعة عن

طريق التشاور، و اختيار الرأي

السديد .

هُمْ يَنْتَصِرُونَ

: نالهم الظلم .

: هم يدفعون هذا الظلم بكل ما أوتوا

من قوة .

سَيِّئَةٌ

: فعلة قبيحة تُسيء من تقع عليه .

عَمَّا وَأَصْلَحَ

: سامح وأصلاح ما بينه وبين

المعتدى ، فكسب وده .

أَنْتَصَرْ بَعْدَ ظُلْمِهِ

: رد الظلم ، وانتقم من من ظلمه .

مَا عَذِيزُهُمْ مِنْ سَبِيلٍ

: لا حرج ولا لوم عليهم؛ لردهم

السيئة بمثلها .

صَبَرَ وَغَفَرَ

: تحمل الأذى ، وسامح من اعتدى

عليه .

عَزْمُ الْأُمُورِ : أعلى الدرجات في ضبط النفس،
وَالإِحْسَانُ إِلَى الْآخْرِينَ.

فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ : ليس له أحد يهديه وينصره بعد أن
أضلته الله.

هَلْ إِنَّكَ صَرِيدٌ مِنْ سَبِيلٍ : يتمسّون العودة إلى الحياة الدنيا؛
لِيؤْمِنُوا بِاللهِ، وَيَحْظُوُا بِثَوَابِهِ.
وَتَرَهُمْ يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا : وتراهم أيها المخاطب يعرضون
على النار.

خَشِيعِينَ مِنَ الْأَذْلِ : خاضعين في ذلة و هوان.
يَنْتَظِرُونَ مِنْ طَرِيفٍ خَفِيٍّ : ينتظرون في انكسار نظره الخائف
الذليل الذي يُسْرِقُ النَّظرَ مِنْ شِبَّهِ
الفزع.

أَنْخَسِيرِينَ : الكافرِينَ الَّذِينَ خسِروا أَعْظَمَ
خُسْرَانَ.

عَذَابٌ مُّقِبِّلٌ : عذاب متصل أبيدي.
وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أُولَيَاءَ : ليس لهم من أَعْوانٍ ولا نُصْرَاءَ.

الشرح

١ - المتع الحقيقى :

إن كل ما يكسبه الإنسان في حياته من مُنْعِنِ الدُّنيا ولذائذها
ومغرياتها، وما يتفاخر به من كثرة المال والولد والسلطان

والجاه - ما هو إلا متع زائل لا بقاء له؛ لأن المتعة موقته،
وأجال الناس محدودة. وإنما المتع الحقيقى هو ما يتظر
الأبرار ^{الستقين} الذين يفعلون الخير في حياتهم الدنيا،
ويرجون ثواب الله تعالى ورضوانه في دار الخلود؛ لأن الحياة
الأجرة باقية، والنعيم فيها دائم، وصدق الله إذ يقول: «مَا
عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ»^(١).

فالإنسان الذي يعيش حياة البذخ والترف والنعيم في الدنيا
لن تستمر به الحياة على هذه الوتيرة؛ لأنه ربما أصابته ^{الغير}،
أو ^{المت} به المحن، أو واته الميئه وعاجله الموت.

أما نعيم الآخرة فلا يتعرض للمُمتعون به لشيء مما سبق،
بل يستمرون في التمتع بما منحهم الله من ثواب ونعم، لا
يزول ولا ينقطع.

روى أن أبي بكر الصديق أنفق جميع ماله في سبيل الله،
فتعجب الناس من فعله، ولاموه، ونسوا أنه أقرض الله قرضاً
حسناً، وتوكل على ولية النعم سلطانه، فوعده الله بنعيم لا
يفنى، وأنزل على نبيه - صلى الله عليه وسلم - قوله: «فَإِنَّ
أُولَئِكَ مِنْ شَيْءٍ وَفَتَحْنَا لَهُمْ الْأَنْوَافَ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَابْنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٢).

(١) سورة العنكبوت / الآية ٩٦

(٢) سورة الشورى / الآية ٣٦

٢ - صفات عباد الرحمن:

إن عباد الرحمن الذين أذخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى من متع الدنيا الزائل ، يتميزون عن غيرهم بصفات عالية، وشمائل لا يقدر عليها إلا من زكت نفسه ، وطهرت سريرته ، وحُسنت سيرته ، وآمن بالله حق الإيمان ، وتوكل على الله حق التوكل آملاً فيما عنده سبحانه من خير باق ، ونعم مقيم ، ومن هذه الصفات :

أ - اجتناب كبار الإثم والفواحش :

إن المؤمنين يجتنبون الآثام الكبرى وعلى رأسها الشرك؛ لأن إيمانهم أعظم من أن يخالجه رب ، وطاعتهم الكريمة أكرم من أن تُدنسها موبقات الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فكبائر الذُّنُوب كالقتل والزنى والسرقة وشرب الخمر - تُنْفَرُ منها طباعهم السليمة ، مadam الله قد حرمها ، مؤمنين بأنه تعالى لا يحرِّم عليهم إلا الخباث ، فهم لا يقرُّونها ، وليس لهم بها أو بمرتكبيها أدنى صلة؛ لأنهم يربّون بأنفسهم أن يتورّطوا في هذه الدنيا التي لا تتفق مع إيمانهم بالله العظيم ، ولا يرتكبها في نظرهم إلا مجرم فاجر أثيم . ولاشك أن من رحمة الله بعباده أن جعل القدر الذي يستحقون به رضاه هو أن يجتنبوا كبار الإثم والفواحش . أما الصغار فإن سعة رحمته تعالى تتجاوز عنها؛ لأنه واسع المغفرة ، علیم بضعف

الإنسان. غير أن المؤمن الحق يستحب من الله حق الحياة، ويختار هذه الصفات قدر الإمكان.

ب - العفو عند المقدرة:

ومن صفاتهم التي تسمى بـ مترز لهم عند الله، وترفع أقدارهم بين الناس، الصفح عن المسيء، وإطفاء نار الغضب بالعفو والسماحة، وكظم الغيظ، فهم لا يسعون بالانتقام إذا وقع عليهم من الآخرين ما يغضبهم، أو يثير حميتهم. بل إنهم يحكمون في افعالاتهم، ويسعدون السيطرة على أنفسهم، فتراهم يصفحون عن آساء إليهم، ويرحمون من اعتدى عليهم، برغم قدرتهم على الانتقام، تأسيا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث كان أعظم الناس جلما، وكان يعلم المسلمين ضبط النفس بقوله: «ليس الشديد بالصرامة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١). ومن شمائله - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يتقم لنفسه قط إلا أن تنتهي حرمات الله تعالى، فيغضب حتى لم يقم لغصبه شيء، وكان إذا غضب يُعرف الغضب في وجهه.

ج - الاستجابة الكاملة لأمر الله:

ومن صفات المؤمنين الصادقين الاستجابة الكاملة لأمر

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل عن أبي هريرة.

الله - سبحانه - والنزامُ دينه، والنزولُ على حُكمه، والتغلبُ على كل هوى ينأى بهم عن رحاب الله. فهم يقيمون الصلوات في أوقاتها، مستوفاة شروطها وأركانها، متقربين بها إلى الله في خشوع وضراوة، مقدرين أثرها في تهذيب النفس، وإعلاه دوافعها، وتحصيئها ضد الفحشاء والمنكر، وإكسابها السكينة والراحة والطمأنينة.

وهم يقيمون حياتهم على الشُّورى، فلا يُسرمون أمراً دون تفاصِّل، وتقليل لوجهات النظر، واستقراء لكل الآراء، وانتفاع بكل الخبرات، واحترام لرأي الفرد، فلا يشتَّتِّ حاكمهم برأيه، ولا يفرض وجهة نظره، بل يستشيرهم فيما يعنُّ لهم من مشكلات، وما يصادفه من قضايا ومسائل تعني المجتمع المسلم، وقدوتهم في هذا الجانب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أمره الله تعالى بقوله: «وشاورهم في الأمر»، فكان يُقبلُ مشورة أصحابه، بل كان ينزل عن رأيه حين يتبنّون صواب رأيهم، ويعمل بمشورتهم، كما حدث في غزوة بدر والخندق، وغيرهما من المواقف. حتى عُرف المجتمع المسلم بأنه مجتمع الشورى الذي لا يقبل الاستبداد والدكتورية الفردية. وينمي عباد الرحمن - كذلك - بأنهم ينفقون من أموالهم التي رزقهم الله بها، إيماناً منهم بأنهم مستخلفون في مال الله، وهو الذي يَحثُّهم على البذل والعطاء في سبيل الخير، كما أنه جعل في أموالهم حقاً

معلوما للسائل والمحروم.

وهم بذلك يرتفعون عن الشُّح الذي يتُصف به أكثر عبادِ
المال، وهم يُدلّلون بهذا السُّخاء على أنهم يَقْنون بما عند الله
أكثراً من ثقفهم بما في أيديهم، ويكرهون البُخل؛ لأن الله
يكرهه، ويحبون الجود؛ لأن الله يحبه، وينتفعون أموالهم في
سبيل الله وابتغاء مرضاته.

٣ - العدل والإحسان:

وإذا كان هؤلاء المؤمنون يتضيقون عن أساء إليهم برغم
قدرتهم عليه - فإنهم يدفعون الظلم، ولا يقبلون الفسق،
وينتصرون مُمْنَعِين بعْنَ عَلَيْهِمْ بِظُلْمٍ، واعتدى على حُرُمَاتِهِمْ
في عدوان آثم، ولا يدعُونه يُعْلَمُ بِذَنْبِهِ بِدُونِ عِقَابٍ. وهم في
ذلك إنما يتَجَاوبُون مع طبيعة النُّفُس البشرية المؤمنة العزيزة
التي لا ترضى الذُّلُّ، ولا تقبل المهانة، وإنما تُرَدُّ البُشَّة
بِمُثَلِّهَا، «وَبَرَأَ وَأَسْيَثَ سَيِّئَةَ مَثَلَّهُ»^(١)، فهذا هو العدل، وهو
الأصل في الجزاء، وبه تستقيم حياة الناس آمنة مطمئنة، لا
يَغْنِي فيها ولا عُدوان.

فالشُّرُّ إِنْ تَلْفَهُ بِالْخَيْرِ فَيُفْلِتُ بِهِ
ذَرْعًا وَإِنْ تَلْفَهُ بِالشَّرِّ يَنْحِسِمُ
أما من كانت نفسه طيبة بالعفو والصفح عند المقدرة،
وأصلاح ما بيته وبين من أساء إليه بالمؤودة ومقابلة الإساءة

بِالْإِحْسَانِ - فَإِنْ لَهُ جَزاءً هَذَا السُّمُوُ الرُّوحِيُّ مِنْزَلَةُ رَاقِيَةٌ عِنْدَ
الله تَعَالَى ، وَأَجْرًا عَظِيمًا «وَمَا زَادَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْهَا بِعْنَوْ إِلَّا عَرَفًا» ،
لأنَّهُ ارْتَفَعَ فَوْقَ طَلْبِ الْعَدْلِ إِلَى الرَّحْمَةِ بِالْمُسْكِيِّ ، وَهَذَا خُلُقٌ
كَرِيمٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ ، كَمَا أَنَّهُ سَبْحَانَهُ - لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
الْبَادِئِيْنَ ، بِالْعَدْوَانِ ، وَالْمُتَجَاوِزِيْنَ الْحَدَّ فِي الْقَصَاصِ . وَمِنْ
هَذَا فَإِنَّ اللَّهَ يُؤكِّدُ أَنَّ لَا حَرَجَ عَلَى مَنْ رَدَ الْاعْتِدَاءَ بِمِثْلِهِ ، وَلَا
عَقَابَ عَلَى مَنْ اتَّصَفَ مِنْ ظَالِمِيهِ دُونَ يَغْنِيِّ ، وَإِنَّمَا الْمَوْاخِذَةُ
وَالْعَقَابُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلَمُونَ النَّاسَ بِالْبَاطِلِ ، وَيَشْتَدُ جَوْرُهُمْ
بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَهُمُ الَّذِينَ أَشَارَ اللَّهُ إِلَى ضَرُورَةِ السُّوقَوْفِ فِي
وَجْهِهِمْ ، وَرَدَ بِغَيْرِهِمْ ، وَالْاِنْتِصَارِ مِنْ ظَلْمِهِمْ ، حَتَّى يَكُفُّوا عَنْ
إِيْذَاءِ الْبَشَرِ ، وَظُلْمِ الْخَلَقِ؛ لَأَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَسْتَقِيمُ إِذَا هَابَ
النَّاسُ الْبَاغِيُّ ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ . وَقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ
بِمَا أَعْدَهُ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

٤ - الصَّبْرُ وَالْعَفْوُ مِنْ عِزَّاتِ الْأَمْرِ :

وَتَبْقَى لِلسمَاحَةِ وَالْقَدْرَةِ عَلَى الصَّبْرِ ، وَضَبْطِ النَّفْسِ
الْمِنْزَلَةُ الْعَالِيَّةُ ، وَيَظْلِلُ لِلْعَفْوِ صَدَاهُ الْمُؤْثِرُ فِي النُّفُوسِ؛ لِذَلِكَ
يَصِفُ اللَّهُ الَّذِينَ يَمْلَكُونَ الصَّبْرَ عَلَى الْأَذْنِيْعِ مِنَ الْقَدْرَةِ عَلَى
الْاِنْتِقَامِ وَالْاِنْتِصَارِ لِلنَّفْسِ ، وَيَحْبُّونَ الصَّفْحَ عَنِ الْمُسْكِيِّ إِيْشَارَةً
لِلْعَفْرِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ ، يَصِفُّهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْهَمَمِ
الْعَالِيَّةِ ، وَمِنْ اتَّصَفُوا بِعَزْمِ الْأَمْرِ ، وَبِالْخُلُقِ الْكَرِيمِ

المحمود الذي يُذَكَّرْ فِي شَكَرْ، لأنها منزلة لا يُقْدِرُ عليها إلا أقواء الإيمان، كبار النفوس الذين يستحقون الثواب العظيم عند رب العالمين، روى أنسٌ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إذا كان يوم القيمة نادى مناد: منْ كَانْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ». فيقال: من ذا الذي أجره على الله؟ فيقولون: العافون عن الناس، يدخلون الجنة بغير حساب»^(١).

ولا يغيب عننا في هذا المقام عفو يوسف - عليه السلام - عن إخوته، الذين كادوا له، ورموه في الجب، ليتخلصوا منه. لكنه عندما أصبح على خزائن مصر، وأصبح ذا سلطان وقوة، وأصبحوا هم في حاجة إليه، واعترفوا بخطئهم «قَالَ لَا تَثْرِبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِ»^(٢). وفي سيرة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - أعلى مثل في العفو عند المقدرة، وذلك عندما عاد إلى مكة فاتحًا لها، متصرفاً على أهلها، بعدما لاقى من شرورهم واضطهادهم هو وأصحابه، قال لهم:

- «ما تظلونَ أَنِّي فَاعْلَمُ بِكُمْ»^(٣).

- قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابنٌ أخٌ كريم !!

- قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

(١) انظر نفس الموردين ج ٣ ص ٤٦٦.

(٢) سورة يوسف/ الآية ٩٢.

٥ - الضلال خزيٌ ومهانةٌ وذلةٌ وخسرانٌ:

أَمَّا الَّذِينَ نُسَا اللَّهَ، وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ هُدَايَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْهَا مُنْفَعَهُمْ، وَيَنْدَعُهُمْ حِيَازِيٌّ، لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، مَادَامَ اللَّهُ قَدْ تَخْلَى عَنْهُمْ. بَلْ إِنْ شَيْطَانَهُمُ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا أَنْ ابْتَعِدُوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ يَتَخَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَقُولُ لَهُمْ مُسْتَهْزِئًا، وَهُوَ أَشَدُّ حَسْرَانًا مِنْهُمْ: «فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصِيرِكُمْ وَمَا أَنْتُ بِمُصِيرِنِي»^(١).

وَلِذَلِكَ تَرَى الَّذِينَ ظَلَّمُوا أَنفُسَهُمْ بِالْكُفُرِ حِينَ يَرَوُنَ الْعَذَابَ - يَتَمَنُّونَ أَنْ لَوْ عَادُوا إِلَى الدُّنْيَا، لَعَلَّهُمْ يَسْتَدِرُّونَ شَيْئًا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِسَدِينِ اللَّهِ، حَتَّى يَنْجِيَهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْمُعْقِيمِ. وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَلَا يُجْدِي الرَّجَاءُ، وَيَتَمَلَّكُهُمْ عَنْ دُخُولِهِمُ النَّارَ خَوْفٌ شَدِيدٌ، وَرَعْبٌ وَمَهَانَةٌ، فَيَنْظَرُونَ مِنْ طَرْفِ خَفْيٍ، يُسَارِقُونَ النَّظَرَ مِنْ شَدَّةِ الْفَرْزَعِ، لَا يَرْفَعُونَ أَيْصَارَهُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْانْكَسَارِ. عَلَى حِينَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَأْسُونَ لِحَالِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ بِسَبِيلِ كُفُرِهِمْ، خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ بِسَبِيلِ الْعَذَابِ الَّذِي يَلْقَوْنَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمْ «وَمَا هُمْ بِخَلِّيْرِ جِنَّةٍ مِنَ النَّارِ»^(٢)، فَيُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وَلَا يَجِدُونَ هَنَاكَ مِنْ يَنْصُرُهُمْ، أَوْ يَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ، أَوْ يَخْفَفُ عَنْهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْعَذَابِ، نَتْبِعُهُ كُفُرُهُمْ وَضَلَالُهُمْ ! وَمَنْ يُضْلِلَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ نَصِيرٍ وَلَا مُنْقِذٍ، وَلَا سَبِيلٌ إِلَى نَجَاهَهُ أَوْ هُدَايَتِهِ !!

(١) سورة إبراهيم / الآية ٤٧

(٢) سورة البقرة / الآية ٢٢

(٧)

من الآية ٤٧ من سورة الشورى إلى آخر السورة

أَتَحِبُّا لِرِبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَذْيَافِ
 يَوْمٍ لَأَمْرَدَهُ مِنَ اللَّهِ مَالَكُمْ مِنْ مَلَجِلِيْوَمِدِ وَمَالَكُمْ
 مِنْ تِكْبِرٍ ⑦ فَلَذَ أَغْرِضُوا فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
 حَيْطًا إِذْ عَلَيْكَ الْأَلْيَنْ وَإِنَّا إِذَا أَفْقَنَ الْإِنْسَنَ
 مِنَارَةً فَرَحَ بِهَا وَإِذْ نُصِيبُهُمْ سَيْنَةً عَانِقَةً
 أَنْدِيْهِمْ فَلَذَ الْإِنْسَنَ كَفُورٌ ⑧ لَهُ مُلْكُ الْمَوْتِ
 وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْسَانًا
 وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الْأَكْفَارُ ⑨ أَوْ يُرْزُقُهُمْ ذُكْرًا
 وَإِنَّا وَجَعَلْنَا مِنْ يَشَاءُ غَيْبًا لَهُ طَلِيمٌ قَدِيرٌ ⑩
 * وَمَا كَانَ لِيَشَرِّ إِنْ يُكْتَمُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِي
 حَيَّ أَوْ يَرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ لَهُ
 عَلِيُّ حَكِيمٌ ⑪ وَكَذَلِكَ أَوْجَنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ

أَمْرَنَا مَا مَكِنْتَ تَدْرِي مَا أَنْكِتُ^١ وَلَا إِلَيْهِنَا وَلَكِنْ
 جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَنَا وَإِلَّا كَ
 لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِرِ^٢ صِرَاطِ أَهْلِ الدِّينِ
 لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَمْ يَأْتِ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
 الْأُمُورُ^٣

معاني الكلمات والجمل

- | | |
|--|--|
| أَسْتَجِيبُ لِرَبِّكُمْ
لَأَمْرِ رَبِّكُمْ
مَا لَكُمْ مِنْ مُنْجَلِّ
ثَكِيرٌ
فَهُنَّ أَعْرَضُوا | : أجيروا دعوة الله إلى الإيمان والعمل الصالح.
: لا يرده ولا يمنع وقوعه أحد، كما لا يرده الله بعد أن قضى بحلول وقته.
: مالكم من مكان يحميكم، ولا مهرب تلجمون إليه.
: قدرة على إنكار ذنوبكم، أو العذاب الواقع بكم.
: إن انصرفوا عنك وعن دعوتك. |
|--|--|

- فَإِنْ شَاءَكَ عَلَيْهِمْ** : ما كلفناك أن تكون رفيقاً عليهم،
حَفِظًا ومسؤولاً عنهم .
- إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا إِلَنْعُ** : ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة إليهم .
- أَذْفَنَ الْأَنْسَنَ مِتَارَحَةً** : إذا أكرمناه وأسبغنا عليه النعم .
- فَرِحَّ بِهَا** : بطر بها، واغتر وتكبر .
- إِنَّمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** : بسبب ما اقترفوا من الذنوب والآثام .
- كُفُورٌ** : مبالغ في جحود النعم ونفيتها .
- بَهْ** : يعطي ويمنح .
- أُوْزُوجُهُمْ** : أو يجمع لهم بين البنين والبنات .
- عَقِيمًا** : ليست لديه القدرة على الإنجاب .
- وَجَاهًا** : عن طريق الوحي إلهاماً أو مناماً .
- أَوْمَنْ وَرَأَيْ حَجَابٍ** : أو يسمعه كلامه دون أن يراه .
- أَوْرِسَلَ رَسُولًا** : يبعث ملائكة هو جبريل عليه السلام .
- إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ** : إنه تعالى عن صفات المخلوقين ، حكيم في قوله و فعله .
- رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا** : فرقانا من أمر الله به حياة التقوس .
- مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَنْكِتُ** : ما كنت تعرف القرآن قبل أن نوحى به إليك ، ولا شرائع الإيمان التي لا
- وَلَا إِيمَانَ** تُعرف إلا بالوحي .

وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ : وإنك لترشد الناس إلى دين قويم،
مُسْتَقِبِيْهِ هُوَ الْإِسْلَامُ .
إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ : إلى الله ترجع جميع أمور الخلق،
للفصل فيها بعذله.

الشرح

١ - استجيبوا لربكم :

يدعو الله - تعالى - إلى الاستجابة لأمره والإيمان بدينه،
والإقبال على طاعته، وذلك قبل فوات الأوان، وقيل مجيء
هذا اليوم الرهيب الذي لا يدفعه أحد، ولا يرده الله إذا حان
موعده، فما يكون لكم حينئذ من ملجأ تتجوزون إليه، ولا ملاذ
تحتمون به، ولن تجدوا لكم حيلة في إنكار ما افترضتموه من
كفر وعصيان، ولا نصيراً ينكر العذاب الأليم الواقع عليكم.

٢ - ما على الرسول إلا البلاغ :

ثم يذكر الله - سبحانه - نبيه إلى أن الناس لن يستجيبوا
جميعاً إلى دعوته، وإنما سيختلف عنها كثيرون، ولا يتبعونه،
فلا ينفعي للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أن يجزع
من مثل هذا التصرف، أو تأخذ هذه الحسرة على ما فرطوا في
جنب الله، فليس مسؤولاً عن هدايتهم، ولا أرسله الله حفيظاً
عليهم، ورقباً ومكلفاً بهم وبأعمالهم، وإنما مهمته أداء

الأمانة، فما عليه إلا إبلاغ الرسالة إلى الناس قدر طاقته، وقد فعل ذلك على خير وجه.

فلا يحزنك يا محمد كُفُرُهم وشروعُهم، ودعْ أمرَهم الله الذي يعلم عاقبَتِهم؛ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ^(١) لَتَ عَلَيْهِمْ عُصْبَرْ^(٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّ وَكَفَرَ^(٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَدَابُ الْأَكْبَرُ^(٤)

٣ - طبيعة الإنسان الكافر في الشراء والضراء:

وتؤكد الآية أن من شأن الإنسان الكافر الفرج بالنعمات التي ينالها فرحاً يُنسِيهُ فضل الله فلا يشكِّره. فإذا أذاقه الله رحمة، وساق إليه الغنى والعافية والأمن - اشتد بطره وغُروره وتكبُّره حتى أنساه المنعم. وإن ابتلاء بما يسوءه من النقم بالغ في الكفران، وانتابه الجزع، وتبرُّم بما يصبه من سوء كمرض أو خوف أو فقر لم يكن إلا نتيجة عمله وكُبُرِه، وجراة ما قدمت يداه من المعاصي والقبائح. وهذا الوضع من الإنسان جُحود بالنعمات بالغ، وكفران برحمة الله واضح؛ الذي لم يغفر الإيمان قلبه، فتُبَطِّره النعمه وتطعنيه، وتزلزله النسمة وتنسيه. وما لمثل هذا إلا الخزي في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

أما المؤمن فهو في السراء شاكر، وفي الضراء صابر.

(١) سورة المائدة / الآيات ٢٤، ٢٥

وهاب النعم كما يشاء:

إن الله - تعالى - هو مالك الملك، ومدير الكون، وبارئ الخلق، وهو اللطيف الخبير، الذي يوسع الرزق على عباده ويقدر، لا فرق في ذلك بين المال والأولاد. ولذلك نجد أن المولى - عز وجل - يمنع بعض الآباء والأمهات إثاثاً فقط، ويرزق الآخرين بالذكر فقط، وقد يجمع لهم بين الصنفين من الذكور والإناث، على حين نجد بين الناس من حريم إنجاب البنين والبنات. وليس ذلك إلا بعلم وقدرة بالغتين، ولا مر يعلمه المولى، وحكمته لا يدركها سواه. فربما لورزق الله الإنسان العقيم بولد لكنه هذا الولد وبالاً عليه حين يكبر، وسيما في تحنته.

وحسيناً ما جاء في قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح، الذي هيأه الله تعالى لتعليم (موسى)، وإرشاده إلى أن الله حكمة في كل ما يقع في الكون. ومن ذلك أن هذا العبد الصالح قتل غلاماً، فاعتراض موسى - عليه السلام - بأن في ذلك جريمة كبيرة؛ لأنها إزهاق لروح بريئة بدون ذنب ولا جنابة. لكن العبد الصالح أباًه في النهاية أن قتل هذا الغلام قد قدره الله، حتى لا يكون هذا الولد سبباً في إيذاء أبييه المؤمنين، بما سيقع منه من كفر وطغيان عليهم، وأن الله

سيعرضُهُمَا خِيرًا مِنْهُ . قَالَ تَعَالَى : « فَأَنْطَلَفَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَمًا قَتَلَهُمْ قَالَ أَفْلَتَ نَعَازِرَكَ يَعْبُرُ نَفْسٌ لَقَدْ جَنَّتْ سِبَاعَانِكَ » (١) ، ثُمَّ قَالَ فِي سِرِّ هَذَا الْعَمَلِ وَحْكَمَهُ : « وَآمَّا الْغُلَمُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنَيْنَ نَخْبِيْنَ أَنْ يُرْهِقُهُمَا طَغْيَانًا وَكُفْرًا (٢) فَارْدَدَنَا أَنْ يُرْدِلُهُمَا رَهْبَةً خَيْرًا مِنْهُ زَكْرَةً وَاقْرَبَ رُحْمًا (٣) » .

فَلَيَرِضَ الْمُؤْمِنُ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ حُظُّ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ مَا يَخْتَارُهُ اللَّهُ لَهُ هُوَ الْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ، لَا مَا يَخْتَارُهُ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ؛ لَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ.

٤ - وَخْيَ السَّمَاءِ :

إِنَّ اللَّهَ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - حِينَ يَصْطَفِي أَحَدَ عَبَادِهِ لِنُبُوَّةٍ أوْ رِسَالَةً، فَإِنَّهُ يَنْفَضُّ عَلَيْهِ بِالرِّعَايَاةِ وَالتَّوْجِيهِ وَالْعِنَايَاةِ وَالْإِرْشَادِ، وَيَنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ التَّعَالَيمِ مَا يَشَوُّجُهُ بِهَا إِلَى قَوْمَهُ وَاتِّبَاعِهِ؛ لِبِرْشَدِهِمْ بِهَا، وَيَهْدِيهِمْ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ - سَبَحَانَهُ - أَنَّهُ يَتَصَلَّى بِأَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ بِوَسَائِلٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا :

(١) الْوَحْيُ بِأَنَّ يَنْفَتَ اللَّهُ فِي قَلْبِ الرَّسُولِ، وَيُلْقَى فِي رُوعِهِ مِنَامًا، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى لِسَانِ سَيِّدِنَا

(١) سُورَةُ الْكَهْفِ / الآيَةُ ٧١.

(٢) سُورَةُ الْكَهْفِ / الآيَةُ ٨.

ابراهيم عليه السلام : « بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْهَبُكَ
فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَى » ^(١)

أو يقذف الله في القلب إلهاماً، كما قال تعالى : « وَأَوْجَبْنَا
إِنَّ أَمَّ مُؤْمِنٍ أَنْ أَرْضِعَهُ فَلَمَّا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْجَحَّ » ^(٢).

(ب) وقد يكون الوحي بأن يسمع الله الرسول كلامه من وراء حجاب، فهو يسمع الله ولا يراه، وذلك ما حدث مع موسى - عليه السلام - حين كلمه ربه - ومع رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ليلة الإسراء والمعراج؛ فليسبشر قدرة على أن يتلقى كلام الله - تعالى - مباشرة.

(ج) وقد يتم الوحي بطريق إرسال ملك هو جبريل - عليه السلام - فيوحي إلى الرسول بأمر الله ما يشاء الله تبلغه للرسول وأهله.

وبسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إن كنت تبا حقاً فما بالك لا تكلم الله، وتنظر إليه، كما كلام موسى ربّه ونظر إليه؟!! وإنما لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك . فقال لهم: لم ينظر موسى إلى الله . فنزل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهَ إِلَّا وَجَّهًا » الآية.

ومما يحسن التباهي إليه هو أن رسولنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد اتصل بالوحي بكل صوره، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وبسنان من تعالي عن صفات المخلوقين، وتنزه عن مثابتهم، «إنَّمَا عَلَىٰ حَكِيمٍ»^(١)، «مُتَعَالٌ لِّبِسْ كَمْثَلِهِ شَيْءٌ»، حكيم في أقواله وأفعاله.

ثم تختتم سورة الشورى بمثل ما بدأنا به، تختتم بحديث عن الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا» فلم يكن الوحي إليك بداعاً من الأمر، وإنما أوحينا إليك كما أوحينا إلى النبئين من قبلك، وأن هذا الوحي وهو القرآن الكريم يأتيك عن طريق جبريل عليه السلام، «تَرَكَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ»^(٢) على قلبك لينكون من المُنذِّرِينَ^(٣) يُلَيِّنَ عَرَفَتِي مِنْ مِنْ^(٤)، فجبريل هو الروح الأمين، جاء بالقرآن الكريم وهو روح؛ لأنَّه يحيي النفوس العينة التي خَيَّمَ عليها الجهل، ويبعث فيها الحياة بالعلم والنور، ويقضي جناتتها المعتمدة بما تضمنه من الحق والخير والعدل، فالقرآن الكريم ربِّيع القلوب، يتعهدها بنمائها وإعمارها، واستثمار خيرها وبركتها.

(١) سورة الشورى / الآية ١٠

(٢) سورة الشورى / الآيات ١٩٥-١٩٦

مع أنت يا محمد، مَكِنْتَ تَبَرِّى مَا أَلَكَتْ وَلَا إِلَيْنَ^١،
قبل أن يأتيك الوحي، فما كنت تتلو من قيله من كتاب ولا
تحظأ بيمينك، وما كنت تحيط علمًا بشرائع الإيمان
وتفاصيله الدقيقة، وما كنت تحس هذا الأثر الذي تحرثه
الآن بعد ما عمر الوحي الإلهي قلبك، إنه النور الذي أشرفت
به ظلمات الأرض، والنور الذي يسري في أوصال المؤمنين،
الذين شاء الله لهم الهدایة به، ومن لم يهتد بالقرآن فما له من
هاد، وإنك لتهدي به إلى صراط مستقيم، ودين فوريم لا
اعوجاج فيه، هو دين الإسلام.

ففيه الهدایة لمن أراد الله به الخير فاهاهتم إلى الصراط
المستقيم، صراط الله الذي له ملك السموات والأرض وما
فيهما، وهو وحده الذي يعلم ما يصلح أمر عباده فيهم بهم
إليه، حتى لا يشذوا عن ناموس الكون الخاص بامر الله.
وهو وحده الذي إليه المرجع والمأب، حيث يجزي كل
إنسان بما قدم وأخر في دنياه، فَنَّ يَعْمَلُ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ^٢ وَمَنْ يَعْمَلُ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ شَرَّا يَرَهُ^٣.^(١)

(١) سورة الزمر / الآيات ٧-٨.

« سورة الزخرف »

تمهيد:

تبدأ سورة الزخرف بحديث عن القرآن الكريم ، بل يتخللها هذا الموضوع؛ لأن في القرآن أحسن الدين ومعالمه، فنجد في بداية السورة أن القرآن كتاب واضح، أنزله الله بلسان عربي مبين؛ ليُتيح للناس فهمه وتدبره، والإقبال على تعاليمه.

ونجد في أئتها بياناً شافياً عن أن الله اصطفى نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - لحمل هذا القرآن، ونقل دعوة الله إلى الناس كافة، وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وذلك حين رد على المشركين الذين تمنوا أن لو كان هذا القرآن قد أنزله الله على أحد عظمائهم من أغبياء مكة أو الطائف. « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ^(١) ». ^(٢)

ثم تمضي السورة مؤكدة على أن القرآن الكريم هو الحماية والرُّفعة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين؛ يقول الله تعالى: « فَامْسِكْ بِمَا يَأْتِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ^(٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ^(٤) ». ^(٥)

(١) سورة الزخرف: الآية ٣١
(٢) سورة الزخرف: الآيات ١١، ١٢

ولَمْ حَاوَلْنَا تَذَكُّرَ مَا أَمْرَ بِنَا فِي سُورَةِ الشُّورِيِّ لِتَجْدَنْ
الْحَدِيثَ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُوخَبِّه إِلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَصِّلًّا بِمَا وَجَدْنَاهُ فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ.

ذَلِكَ أَنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْوَحْيِ قَدْ تَكَرَّرَ مِنْ أُولَئِكَ السُّورَيْنِ
وَفِي أَثْنَائِهَا أَيْضًا، بِلَّا لِقَدْ خَيَّمَتْ بِهِ السُّورَةُ كَمَا سَبَقَ.

وَيَحْتَلُّنَا بَعْدَ هَذِهِ الْمُقْدِمَةِ أَنْ نَقُولُ: إِنَّ عَنِيَّةَ هَاتِينِ
السُّورَتَيْنِ كَانَتْ مُتَوَجَّهَةَ إِلَى مَا تُعْنِي بِهِ السُّورَةُ الْمُكَبَّةُ عَلَى
وَجْهِ الْعِوْمَمِ، مِنْ تَأْوِلِ قَضَايَا الإِيمَانِ بِاللَّهِ الْحَالِقِ الرَّازِقِ
الْمُبَدِّيُّ الْمُعِيدُ، وَأَسْنَى الْعِقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَبِالْوَحْيِ
الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى أَهْمَّ تَوجِيهَاتِ السَّمَاوَاتِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ
عِقِيدَةٌ وَتَشْرِيعًا، وَمِبَادِيٌّ وَخَلْقًا، وَأَنَّهُ مَعْجِزَةُ اللَّهِ الْخَالِدَةِ.
كَمَا تَعْرَضُ لِأَمْرِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَتَتَسَوَّلُ كَذَلِكَ عَرْضًا
لِمَظَاهِرِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي هَذِهِ الْكُونِ الْفَسِيحِ
بِسَمَائِهِ وَأَرْضِهِ. وَتُعْرِجُ عَلَى بَعْضِ الْعَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ الْقَائِمَةِ
عَلَى الْخَرَافَةِ وَالْجَهَلِ، كَالْوَثْنَيَّةِ الَّتِي أَذْتَ بِهِمْ إِلَى تَوْزِيعِ
الْأَنْعَامِ الَّتِي سُخِّرَهَا اللَّهُ لِلإِنْسَانِ، فَجَعَلُوهُمْ مِنْهَا نَصِيبِهِمْ،
وَنَصِيبِهِمْ الْمَرْعُومَةِ. مَعَ أَنَّهَا نَعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ تَسْتَحْقُ
الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ لِلْمَنْعِمِ «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُبُونَ
② لِتَسْتَوُا عَلَى طُورِهِ»، ثُمَّ لَمْ يَذْكُرُوا نَعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَنَقُولُوا

سُبْحَنَ الَّذِي سَخَرَ لَنَا هَذَا وَمَا كَانُوا مُفْرِزِينَ ﴿١﴾! ومن الآيات الباطل التي سادت في الجاهلية زعمهم أن الملائكة بنات الله، ومع شدة كراهيتهم للبنات كان بعضهم يعبد الملائكة ويقولون: «لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ» . والرواية هنا تكشف ضلال اتجاههم، وتصحح لهم معتقداتهم، مبينة لهم أن إبراهيم عليه السلام - الذي يدعى المشركون أنهن على ملة، كان فانياً لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْدِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بِآثَارِمَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾؟ ثم بين الله لهم أن ما يعتزون به من قيم زائلة قد اعتز بمثلها فرعون من قيل: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَرُ تَجْرِي مِنْ نَحْنِ أَفَلَا تَتَسْرُرُونَ ﴿٣﴾؟

فما أغنى عنه جاهه وملكه وكانت عاقبة أمره خسراً.

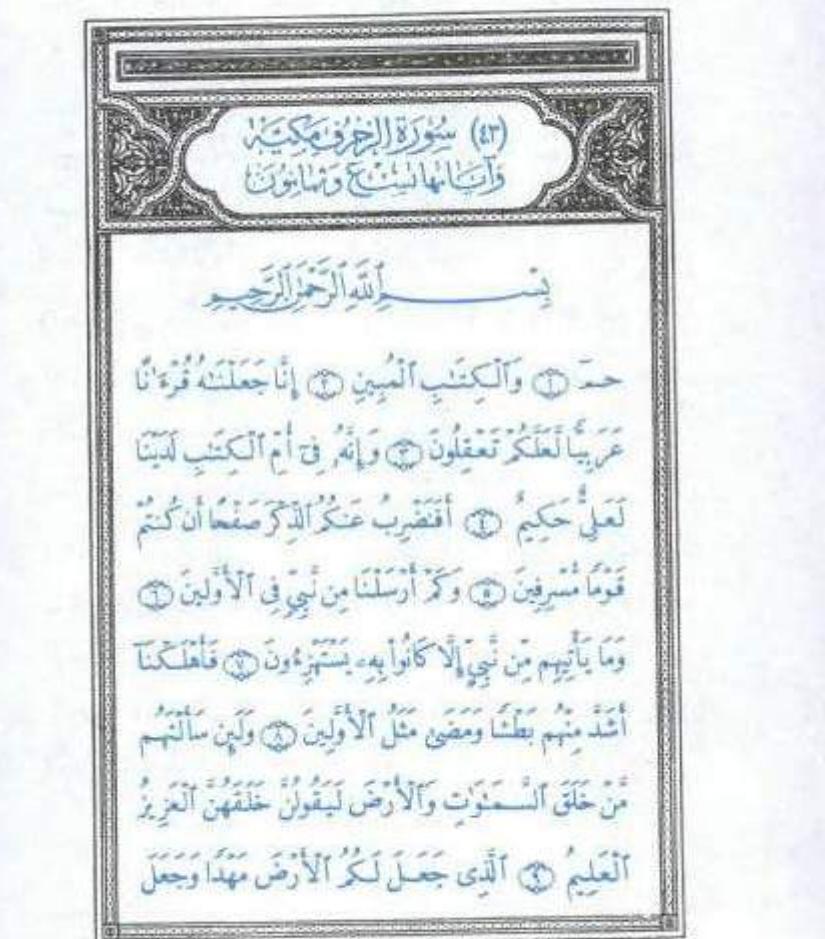
ويأتي ختام السورة موضحاً بعض أحوال يوم القيمة، وما يتظر أهل الشقاء فيها من كذبوا الرسل من بخيزي وعداب اليم.

فمن شاء فليؤمن، وله الجزاء الأولي. ومن تنكر للقرآن الكريم، واستكبار، فإن له نار جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.



(١)

من الآية ١ إلى الآية ١٤ من سورة الزخرف



لَكُمْ فِي هَا سُبُّلٌ لَعَلَّكُمْ تَهْدَوْنَ ⑩ وَالَّذِي زَرَّ مِنَ
 الْأَسْمَاءِ مَا يَهْدِي بِقَدْرٍ فَإِنَّنَا بِهِ بَلَدٌ مِنْ كَذَّالِكَ
 تَخْرُجُونَ ⑪ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ لَهُمَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
 النُّفُكِ وَالْأَنْعَمِ مَا تَرَكُبُونَ ⑫ لَتَسْتَرُوا عَلَى ظُهُورِهِ
 ثُمَّ تَدْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا أَسْتَوْبُتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
 الَّذِي سَعَرَّ لَسَاهَدَأَوْمَا كَالَّهُ مُغْرِبِينَ ⑬ وَإِنَّا إِنَّ
 رَبِّنَا لَمُتَّقِلِّبُونَ ⑭

معاني الكلمات والجمل

وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ : يقسم الله تعالى بالقرآن الواضح
البين.

أَمَ الْكِتَابُ : أصل الكتاب، والمراد به اللوح
المحفوظ.

لَعَلَّيْ حَكِيمٌ : لذو شأن عظيم، وقدر عالي،
وحكمة بالغة، لا يلحقه خلل أو
تناقض.

أَفَنَضِّرُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ
أَعْرَاضًا عَنْكُمْ، وَسَهَلُوكُونَ بِذَلِكَ لَا
مَحَالَةٌ؟

أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسِرِّفِينَ
لَا يَكُونُونَ فِي الْكُفَّارِ
وَالْكَذِيبِ وَالْعُنَادِ وَالْبَعْدِ عَنِ
الْحَقِّ.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيًّا
إِلَى الْأَوَّلِينَ
الْمُسَيَّرِينَ
يَسْخَرُونَ.

فَاهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْنًا
فَقَضَيْنَا عَلَى مَنْ كَانَ أَقْوَى مِنْ أَهْلِ
مَكَّةَ، وَأَكْثَرَ جُنْدًا، وَأَعْزَزَ نَفْرًا.

وَمَنْ يَمْلِأُ الْأَوَّلِينَ
وَسَبَقَتْ حَكَائِيثُ الْأَوَّلِينَ إِلَاهَلَكُوهُمْ
وَقَصَصُهُمُ الْعَجِيبَةُ؛ لِيَكُونُوا عَبْرَةً،
فَاحْدَرُوا هَذَا الْمَصِيرَ.

مَهْدَا
مَهْدَةً لِلْاسْتِقْرَارِ عَلَيْهَا، مَبْسُوتَةً
مَرْبُحةً، كَأَنَّهَا فِرَاشُ الصَّبَّيِّ.

سَبَلَا
سَبَلًا طَرِقًا تَسْلِكُوهُنَا فِي سَعِيكُمْ
وَأَسْفَارِكُمْ.

يُقَدَّرُ
بِمَقْدَارِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَيَفِيدُكُمْ
وَلَا يَضُرُّكُمْ.

فَأَنْشَرْنَا يَهٰءَ بَلْدَةً مِّنَ النَّبَاتِ : فأخينسا به بلدة ميتا حالية من النبات، فأصبحت مُحضره بعد أن كانت فقراء.

كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ : كذلك سوف يبعث الله الخلق، وتحييهم بعد موتهم.

الآزْوَاجَ : أصناف المخلوقات، والأزواج من الإنسان والحيوان والنبات

الْفُلْكُ
وَالْأَنْعَمُ
: السفن، والإبل.

لَتَسْقُرُوا عَلَى ظُهُورِهِ : لستقروا عليها راكبين لها.
سُبْحَانَ الَّذِي شَرَكَ
هَذَا : نزه الذي ذلل لنا هذا، وأعده لخدمتنا وفائدتنا.

وَمَا كَانُوا مُقْرِبِينَ : ما كانا قادرين ولا مطيقين تذليلها،
لولا تسخير الله لها لخدمتنا.

لَمْ يَنْقُلُوهُنَّ : لراجعون إلى الله.

الشرح

١ - المعجزة الخالدة:

بدأت سورة الزخرف بقوله تعالى: «هُمْ»، وهو كما تقدم حرفان من حروف الهجاء العربي التي تتصدر بها بعض سور القرآن الكريم، ولعل ذلك للدلالة على أن القرآن المعجز

مؤلف من هذه الحروف ومثيلاتها، وليس باستطاعة أهل الفصاحة والبلاغة من العرب أن يحاکوه أو يُداوِنه: «وَإِن كُنْتُمْ فِي رَبِّ مَا تَرَكْنَا عَلَى عِدَّنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شَهِيدًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١) إِنَّمَا تَفْعَلُونَ وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنْتُمُ الظَّالِمُونَ وَقُوَّدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعَذِّتُ لِكُفَّارِنَ (٢)».

ومن هذا المنطلق أقسم الله - تعالى - بالقرآن في مطلع السورة باعتباره بِيَّنا وَاضْحَا، لا لِبْنَ فِيهِ، ولا غَمْوضَ يَعْتَرِيهِ؛ لأنَّه أَنْزَلَهُ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ فَيْنَ؛ لِيَتَفَهَّمَهُ الْعَرَبُ الَّذِينَ هُمْ طَبِيعَةُ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا مُّحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَلَيَتَفَكَّرُوا فِي مَعَانِيهِ، وَلَيَتَدْبِرُوا مَذِي ما بَلَغَهُ هَذَا الْكِتَابُ الْمَجِيدُ مِنْ بِلَاغَةٍ مُّعْجِزَةٍ، وَسُمْوَ فِي الْمَقَاصِدِ، وَحِكْمَةٌ فِي التَّنَاؤلِ، فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْأَرْلَيِّ الْمَنْزَلُ مِنَ الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ بِأَنَّهُ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٣) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٤) . فَهُوَ كِتَابٌ كَرِيمٌ عَلَيْهِ حَكِيمٌ، رَفِيقُ الْقَدْرِ، مُحْكَمُ النَّسْخِ: «أَفَلَا يَشَدِّدُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْتِلَافًا كَبِيرًا (٥)».

إنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ أَكْرَمُ اللَّهِ بِهِ أَمَّةُ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَهُوَ شَرْفٌ لَّهُمْ مَا بَعْدَهُ شَرْفٌ، وَعَزٌّ وَرَفْعَةٌ مَا بَعْدَهُ عَزٌّ. وَمَا كَانَ يَلِيقُ بِعَاوِلٍ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَجْلَ نِعْمَةٍ بِالْأَعْرَاضِ عَنْهَا، وَالْطُّعْنُ فِيهَا. إِهْمَالًا لَّهُمْ، وَاعْرَاضًا عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَسْرَفُوا فِي

(١) سورة البقرة / الآيات ٤١، ٤٢

(٢) سورة البقرة / الآيات ٤١، ٤٢

(٣) سورة النساء / الآية ٨٢

الطعن على محمد النبي الأميّ، وعلى كتاب الله، فوصفوهما بالسّاحر والّساحر، ظناً منهم أنهم بذلك يقضون على الدّعوة والذّاعي. ولو لا لطف الله بهذه الأمة لجُنِسَ عنها هذا الفضل، وعاجلها بالعقاب، ولكنه أبقي هذا النور؛ ليهلك من هلك عن بيته، ويحيى من حي عن بيته.

٢ - سُنة الله في المكذبين :

ثم تأخذ الآيات الكريمة في تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنه ليس أول من أودي وكمدّب، فما هي إلا قصة مكررة مع كل الأنبياء، يتصلّى لهم السفهاء من أقوامهم، والمُتّرفرون الغارقون في المُستع واللّذائذ، المتسلطون على رقاب العباد بالباطل، فما يلقى الأنبياء منهم إلا السُّخرية والاستهزاء، والإصرار على الكفر والعناد، حتى يحلُّ بهم غضب الله .

فماذا يتظر أهل مكة من وراء حربهم للرسول ودعوته؟ فما محمد إلا رسول مثل بقية الأنبياء والمرسلين، الذين كلفهم الله إبلاغ دينه إلى أقوامهم .

فماذا كانت نتيجة تكذيب هؤلاء الأقوام وجحودهم، واستهزائهم بأنبيائهم؟ إن الله تعالى أهلكهم بذنبهم، ونكلّ بهم شرّ تكيل ، وأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، فلم يلبثوا أن أصبحوا سيرةً وموعظة، وجرى ذكرُهم مجرّى الأمثال في

العالمين، برغم أنهم كانوا أقوى شأناً، وأشد سلطاناً من العرب المشركين. فليحذر كفار مكة أن يحل بهم ما حل بال مجرمين من الأمم السابقة !

٣ - اعتراف المشركين بأن الله هو الخالق المنعم :

إن موقف هؤلاء المشركين يثير العجب، ويعتبر على الأسى والإشراق ! لا تشعرون بهذا التناقض الواضح في تصرفاتهم ؟ إنهم يعيشون في تضارب فكري بين، وخلل في العقيدة، لا يخفى على من له ذرة من عقل سليم؛ لأنهم يعبدون الأصنام، ويقررون إليها بالقربابين، وحين كانوا يُسألون عن الذي خلق السموات والأرض، لم يكن لهم من إجابة إلا أن يقولوا : إن الله - تعالى - هو الذي خلقهن وحده، ولا يقدر على هذا غيره . وهذا يذكرهم الله تعالى ببعض صفات كماله وجلاله وعظمته، لعل قلوبهم تخشع، وعقلهم تتعي وتتدبر . فالله الذي تُقرون له بالخلق هو العزيز الذي لا يُغلب ، والعلم الذي تطالعكم آثار علمه وقدرته في هذا الكون العجيب ، وفي تسخيره لكم بالصورة التي تناسب تكوينكم ، وتلبي احتياجاتكم . فهو الذي سهل الأرض ، ومهدها لكم ، «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا»^(١) أخرج منها ماءها ومرعها ^(٢) وأحال أرسانها ^(٣) متنعاً كـ«لأنتم» ^(٤) .

(١) سورة الزمر / الآيات ٣٣-٣٤.

وهي لكم فيها سلوكونها، فهي نعمة كبرى من نعم الله عليكم، تستفيدوا منها، وتستمروها، وتنقلوا بين أقطارها، وتهتدوا بمسالكها إلى مقاصدكم ومعايشكم . وهو الذي أنزل من السماء ماء بصورة مفيدة للبشر، فلم يزد على الحد، فيُغرق الناس، وبهلك الزرع والفرسخ، ولم يقل عن الحاجة، فيموت الناس والحيوان والنبات عطشاً . وإنما أنزله مقدراً مناسباً، موافقاً للمصلحة، فأحيا به الأرض الميتة، فالملائكة سر الحياة، يُعيث الله به الإنسان والحيوان والنبات، ويُتيح للزرع والشمار أن تنمو وترثب ^(١) ، إنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَرِيدُ^(٢) الأرض مُخَضِّرَةً إِنَّ اللَّهَ لَغَيِيفٌ خَبِيرٌ^(٣) . وصدق الله العظيم إذ يقول: وَرَزَقَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَا كَانَ مُسِرًا كَمَا فَاجَبْنَا بِهِ جَنَاحَتْ وَحَبَّ الْحَصِيدِ^(٤) وَأَنْجَلَ بَاسِقَتْ هَامَ طَلْعَ تَضِيدِ^(٥) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَاحِيَنَا بِهِ بَلَدَةً مِنْهَا كَذَلِكَ الْخَرُوجُ^(٦) . وكذلك الأمر في إعادة الإنسان ويعشه للحياة من جديد يوم القيمة، ما هو إلا صورة من إحياء الأرض، إِنَّ اللَّهَ أَجَابَنَا لَمُحْكَمِ الْمَوْعِدِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقَدِيرٌ^(٧) . فلا يعجز الله - سبحانه - عن إعادتكم «وكذلك تخرجون» من الأرض أحياه يوم البعث والنشر.

إن هذا الإله القادر على الخلق والإعادة هو الذي أباح

(١) سورة الحجج / الآية ٦٣

(٢) سورة الأنفال / الآيات ٩، ١١

(٣) سورة الحجج / الآية ٦٣

(٤) سورة نوح / الآية ٣٩

يقدرته للناس هذه الحياة الدنيا من خلال التزاوج الذي يتم بين أصناف المخلوقات المختلفة، فهو - سبحانه وتعالى - الذي خلق الأزواج كلُّها في الأحياء وغير الأحياء ليعمر الكون، وتستمر الحياة في ظلِّ من رحمته يمْنَ حلق، وبخاصة الإنسان الذي سخر له مافي الكون، لخدمته وتهيئة سُبُل الراحة والاطمئنان له، والاستفادة من حياته. ومن أهم ما سخره الله لهذا الإنسان أن جعل له من السفن والأنعام وسيلة لانتقاله، ونقل تجارتة، وتسويق منتجاته، **لِتَسْتَوْ أَعْلَىٰ طُهُورِهِ** فِيمَا تَذَكَّرُوا نِعْمَةٌ رِّبِّكُمْ إِذَا أَسْتَوْيُمْ عَلَيْهِ ^(١).

فلا ينبغي لهذا الإنسان إلا أن يشكر نعمه الله عليه، وفضله العظيم. ولعل من أبرز ما يُظهر امتنان الإنسان، وشُكره للنعم - أن يقول حين يركب السفن أو الدواب، ويُدرك أسرار تكوينها، وأنه في الحقيقة أعجز منها: **سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** وَلَمَّا أَنَّا إِلَيْهِ رَدَّسْأَلَّمْنَقِبُونَ ^(٢) إيمانا منه بفضل الله وواسع رحمته، وتنزيها له عن كل مالا يليق بجلاله وكماله وعظمته، إذ هيأ له هذه الأشياء وسخرها وذللها لخدمته، وما كان باستطاعته وحده أن يُسْخِرُها، ويستفيد منها، لو لا أن هداه الله الذي إليه المرجع والمأب.

(١) سورة الزمر / الآية ١٣
(٢) سورة الزمر / الآية ١٦، ١٧

(٢)
من الآية ١٥ إلى الآية ٢٥ من سورة الزخرف

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُرُوا إِنَّ
الإِنْسَنَ لَكَفُورٌ مِّنْ ⑯ أَمْ الْحَدِيدُ مَا يَحْمِلُ بَنَاتِ
وَأَصْنَمُكُمْ بِالنِّسَنِ ⑰ وَإِذَا يُرَأَيُهُمْ يَمْضِيَنَّ
لِلرَّحْنِ مُشَاهِلًا خَلَلَ وَجْهَهُمْ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ⑱
أَوْ مَنْ يَنْتَزِعُ فِي الْخَلَبَةِ وَهُوَ فِي الْحِصَامِ غَيْرُ مِنْ ⑲
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْنِ إِنَّهُمْ أَشَدُ دُوَّا
حَلْقَهُمْ سُكُنَّ شَهْدَتِهِمْ وَيُسْكُنُونَ ⑳ وَقَالُوا لَنَا
شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبْدَنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ
بِالْأَبْحَرِ صَدُونَ ㉑ أَمْ مَا تَنْهَىَهُمْ كِتَابًا مِّنْ قَبْلِهِ فَهُمْ يَهْدِي
مُنْتَكِبُونَ ㉒ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا عَابَةَ نَا عَلَىْ أَعْمَةٍ
وَإِنَّا عَلَىْ هَذِهِ رِهْبَانَ ㉓ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُنْتَهُوْهَا إِنَّا وَجَدْنَا

ۚ إِبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ قَاتِرِهِمْ مُفْتَدِعُونَ ۝
 * قُلْ أَأَتُوْجِنْتُكُمْ بِأَقْدَى مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ۖ إِبَاءَنَا
 قَالُوا إِنَّا عَلَىٰ أَرْسَلْنَا بِهِ كَفِرُوْنَ ۝ فَأَنْتَمْ مِنْهُمْ
 فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْنُهُمُ الْمُكَذِّبُوْنَ ۝

معاني الكلمات والجمل

وَجَعَلُوْلَاهُ مِنْ عِبَادِهِ : نسبوا الله تعالى أولاداً، فقالوا: إن

بُزْءَة : الملاتكة بنات الله.

كَمُورٌ مِّنْ : مبالغ في كفره مظہر له، بنسبة الولد

إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَذِبًا ، وَعَدَمِ شُكْرِ
النعم.

وَاصْفَنُكُمْ بِالنِّينِ : اختار لكم البنين، واختصكم بهم.

وَإِذَا بَثَرَ أَحْدُهُمْ بِمَا : إذا نقل إلى أحدهم أن زوجته

ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا : ولدت له بنتا.

ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا : صار وجهه مسوداً من الكآبة والغم
وشيء الغيظ.

وَهُوَ كَظِيمٌ

يُنْثَوُا فِي الْحَلَبَةِ

وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ

: وهو صامت كثيف حزين .
: يشب في الزينة، ويربي مدللاً .
: وهو غير قادر على الإدلاء بالبرهان
البين، والحججة الواضحة عند
المجادلة .

أَشَهِدُوا لَهُ قُلُّهُمْ

: أكانتوا موجودين عندما خلق الله
الملائكة، وعرفوا أنهم إناث؟!

سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ

وَإِسْلَوْنَ

: ستأجل عليهم معتقداتهم
وأقوالهم، ويسألون عنها يوم القيمة .
إِنَّهُمْ إِلَّا كَاذِبُونَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الكذب .

أَمْ ءَاكَبْتُهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ، أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ - فِي هَذَا الشَّأنَ -
كتاباً من قبل القرآن .

فَهُمْ بِهِ مُسْتَمِكُونَ

بما فيه .

عَلَى أَمَّةٍ

وَإِنَّا عَلَىٰ مَا تَرِهُمْ

مَهْتَدُونَ

مِنْ نَذِيرٍ

مُتَرْفَهَا

: على طريقة ومذهب ودين .
: تبعهم ونهادي بهم، ونقفي في
آثارهم .
: من نبيٍّ مثل .
أَغْبَيْهَا الْمُنْعَمُونَ الَّذِينَ أَبْطَرْتُهُمْ
النعمة .

أَتَصْرُونَ عَلَى اتَّبَاعِ آيَاتِكُمْ، وَلَوْ
كَانَ مَا حَتَّنَكُمْ بِهِ مِنْ دِينٍ هُوَ أَهْدِي
وَأَرْشِدِي؟

الث

١ - افتراءات جريئة على الله :

ما أجهل المشركين وما أصلحهم !! إنهم يقترون على الله الكذب ، وينسبون إليه مالا يليق بجلاله وكماله ، وينسون أو يتناسون أنهم شهدوا بأنه خالق السموات والأرض ، ومن كانت هذه قدرته فهو الغني عن خلقه ، المتفرد في الوهبة ، وهو يحيي ولا يُحْجَر عليه « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُورًا أَحَدٌ ④ ». ولكن الكافرین يتخبطون في الصلاة ، ويتحكمون على أنفسهم بالجهالة ، حين يجعلون لله من عباده جزءاً ، ويدعون أن الملائكة بنات الله . وما الملائكة إلا خلق من خلقه المكرمين عند الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ⑤ «) فما أجرأ هذا الإسان الكلذوب حين يطأول على ربه ، ويدعي أن له ولدأمن خلقه !! وقلوا ألمَّ أَرْجُنْ وَلَدًا ⑥ لَقَدْ جَنِّتْ شَيْئًا إِذَا ⑦ تَكَادُ الْمَرْتَأَتْ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجَبَالُ هَذَا ⑧ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ⑨ وَمَا يَنْبَغِي

(٤) سورة الإخلاص، كافية
(٥) سورة التوبة / الآية ٣

للرَّحْمَنِ أَن يُطْهِدَ وَلَدًا ^(١) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ
 الرَّحْمَنُ عَبْدُهُ ^(٢) ^(٣) . فَلَا يَدْعُونِي أَنْ هُوَ وَلَدًا إِلَّا مَنْ أَمْعَنَ فِي
 الْكُفَّرِ، وَأَقَامَ الدَّلِيلَ الْبَيِّنَ عَلَى شَدَّةِ جُحْودِهِ . ثُمَّ تُظَهِّرُ الْآيَةُ
 الْعَجَبُ مِنْ مَوْقِفِ هُولَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَتُنَكِّرُ عَلَيْهِمْ سُخْفَ
 اتِّجَاهِهِمْ، فَكَيْفَ تُصَوِّرُ لَهُمْ عَقْوَلَهُمُ الْمَرِيضَةُ أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى - لَوْ أَرَادَ أَنْ يَتَخَذَ لَهُ وَلَدًا اصْطَفَى لِنَفْسِ الْبَنَاتِ ثُمَّ
 اخْتَصَّهُمْ بِالْبَنِينَ؟ أَيْمَكُنْ أَنْ يَتَصَوَّرَ هَذَا عَاقِلٌ؟ إِنَّهُمْ لَا
 يَقْبِلُونَ هَذَا لِأَنَّهُمْ حَتَّى إِنْ أَحْذَمُهُمْ كَانَ إِذَا بُشِّرُوا نَبَّأُ زَوْجَهُ
 وَلَدَتْ بِنَتًا، اعْتَرَّتِهِ الْكَابَةُ، وَسَبَطَرَ عَلَيْهِ الْغَمُّ، وَاسْوَدَ وَجْهَهُ
 غَبِيظًا وَكَمْدَا، وَظَلَّ حَزِيزًا، صَامِتًا، كَائِنًا جَمِيْهُ أَهْمُ . بَلْ إِنَّ
 بَعْضَهُمْ كَانَ يَهْجُرُ الْبَيْتَ الَّذِي وَلَدَتْ فِيهِ الْأُنْثَى وَلَا يَدْخُلُهُ،
 وَكَانَهُ يَعْاقِبُ هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمُسْكِيَّةِ الَّتِي تَلَدَّ الْبَنَاتَ . قَالَ
 تَعَالَى: «أَفَأَصْنَقْتُكُمْ رِبِّكُمْ بِالْبَيْنَ وَأَخْدَمْتُمُ الْمَلَكَيْكَهُ إِنَّنَا إِنَّكُمْ لَتَقْرُولُونَ
 فَوْلًا عَظِيمًا» ^(٤) ^(٥) . ثُمَّ كَيْفَ يَسْبُونَ إِلَى اللَّهِ الْبَنَاتَ، وَهُنَّ
 صَنْفٌ مَدْلُلٌ يُنْشَأُ عَلَى التَّعْوِيمَ وَالرَّقَّةِ، وَالْإِهْتِمَامِ بِالزَّرِينَةِ،
 وَالْحُرْصِ عَلَى مَا يَكْشُفُ عَنْ جَمَالِهِنَّ وَحَسَنِهِنَّ، وَلَا يَقْدِرُنَّ
 عَلَى إِدَارَةِ الْجَدَالِ الْمُقْبِعِ، وَلَا عَلَى تَوْضِيحِ الْحُجَّاجِ حِينَ
 الْخِصَامِ، وَلَا عَلَى الْجَلَادِ وَالْكَفَّاجِ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَانِهِنَّ،
 وَإِنَّمَا هُوَ شَأنُ الرِّجَالِ الَّذِينَ رُزِقُوا مِنَ الصَّفَاتِ مَا يَجْعَلُهُمْ
 قَادِرِينَ عَلَى الْمُحَاجَةِ وَالْمُخَاصِّيْةِ، وَعَلَى الطَّعَانِ وَالْقَتَالِ؟

(١) سورة صميم / الآيات: ٨٨-٩٠

(٢) سورة الإسراء / الآية: ٤٣

كيف استساغوا أن يختاروا لأنفسهم الأفضل ، ويتركوا لربِّهم
المفضول؟!

٢ - افتراءات على الملائكة :

ولقد أجرم هؤلاء في حق الملائكة أيضاً حين وصفوهم
بأنهم إناث ، فما دليلهم على هذا؟ وما حجتهم؟ «أشهدوا
خلقهم»؟ . أكالنوا حضوراً وشهوداً قصة خلق الله للملائكة ،
فرأوا رأي العين أنهم إناث ، وليسوا ذكوراً ، أعاشروا الملائكة
وخارطوهم وتأكدوا أنهم من الإناث؟ أم إنهم يخداون
ويخمنون كذباً وبهتان؟ لا إن هذه الشهادة الظالمة التي لم
تستند إلى دليل سُكْتَبٍ عليهم ، وتحملون وزرها ، وسائلهم
الله عنها يوم القيمة ، فليستعدوا للحساب ، وفي هذا من
التهديد والوعيد ما فيه .

٣ - اعتذار باطل مرفوض :

ومن أشد معايب هؤلاء الكافرين استمرارُ الكذب ، وتبريءُ
الضلال ، فحين لم يجدوا حجةً مقنعةً في عبادتهم للملائكة ،
حاولوا أن يتخذوا من هذا الخلل الذي وقعوا فيه دليلاً لهم
«وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ » فهم يرون أن الله تعالى
راضٍ عن عبادتهم ، ولو لا رضاه ما سمح لهم بتلك العبادة ،

ولولا مشيته ما عبدوها. وهذا جدال بالباطل، وعذر أقبح من الذنب، وحق أزيد به باطل؛ لأنهم يتعللون بمشية الله، ولا يستطيع أحد أن يُنكر أنه لا يحدث شيء في الوجود دون مشيته سبحانه. لكن مشيته هي التي منحت الإنسان القدرة على الاختيار، وقد بين الله له طريق الهدى وطريق الصلال، **«فَنَّ شَاءَ فَلَيُؤْمِنُ وَمَنْ شَاءَ فَلَيَكُفُرُ»**^(١)

فقد خلق الله الإنسان، وووهه العقل الذي يميز به الخير من الشر، كما أرسل إليه الرسول، وأنزل الكتب التي تأمره بالخير وتنهيه عن الشر. فإن سار في طريق الخير اهتدى وأفلح، وإن سلك غير سبل المؤمنين فإن جزاءه عند الله الخزي في الدنيا والعداب الأليم في الآخرة. ولا يصح لأحد أن يبرر خطأه وقبح فعله بمشية الله، فإنه لم يطلع على المشية قبل أن يقدم على الفعل، وهؤلاء الذين يعلقون ضلالهم وعبادتهم الخاطئة على مشية الله «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»^(٢). فما أمرهم الله بهذا ولا ارتضاه لهم، فالله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، فهم يكتسبون على الله حين يدعون أنه راض عن عبادتهم، فلا عذر لهم في عبادة غير الله تعالى.

(١) سورة الكهف/ الآية ٢٩

(٢) سورة الزمر/ الآية ٤٠

٤ - كفر وتقليد مذموم :

سُلْ إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يَزِيدُ لَهُمُ الْأَمْرُ وَضُوحاً، وَيُؤْتُ
عَلَيْهِمْ كُلَّ مَنَافِدِ الْفَضْلَالِ، وَيُكَشِّفُ لَهُمْ عَنْ فَسَادِ تَصُورِهِمْ
وَاعْتِقَادِهِمْ يَقُولُهُ: «أَمْ ءَاتَيْتُهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ، فَهُمْ بِهِ مُسْتَبِكُونَ»^(١)
هُلْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ كِتَاباً قَبْلَ الْقُرْآنِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الشُّرُكَ وَعِبَادَةِ
الْأَصْنَامِ وَالْمَلَائِكَةِ فَهُمْ مُتَمَكِّنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ، مُصْرُونَ عَلَى
مَا فِيهِ، مُتَجَذِّذُونَ مِنْهُ دَلِيلًا وَحْجَةً؟ وَهُوَ سُؤَالٌ يَتَضَمَّنُ اسْتِكَارَةً
عَقِيْدَتِهِمْ، وَيُشَيرُ إِلَى انْحرافِ فِطْرَتِهِمْ.

وَإِذَا كَانَ هُؤُلَاءِ لَمْ يَسْتَنِدُوا إِلَى دَلِيلٍ عُقْلَى أَوْ نَقْلِي فِيمَا
اعْتَقَدوْهُ، فَمَنْ أَيْنَ جَاءَهُمْ هَذَا الْفَضْلَالُ؟ إِنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ
الَّذِي يَقُودُ خَطَايَاهُمْ هُوَ التَّقْلِيدُ الْأَعْمَى، وَالْعَصْبُ الْمُعْقَيْتُ
لَأَبَانِهِمْ وَأَجَدَادِهِمُ الَّذِينَ تَوَارَثُوا عَنْهُمْ هَذَا الْفَهْمُ السُّقِيمُ،
مُدَعِّينَ أَنَّهُ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَوْهُ، وَمُذَهِّبِهِمُ الَّذِي لَا يَحِدُّونَ
عَنْهُ، وَأَنَّ الْهُدَى فِي التَّمْسِكِ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ، حَتَّى لَوْ تَبَيَّنُوا
خَطَأَهُ وَبُطْلَانَهُ. وَهَذَا هُوَ الْوَقَاءُ الْأَحْمَقُ الْقَائمُ عَلَى الْبَاطِلِ،
وَالْمَوْعِلُ فِي الْفَضْلَالِ، وَالْمُؤْدِي إِلَى الْهَلاَكَ وَالْخَسْرَانِ!!

ثُمَّ تَسْضِي الْآيَاتُ يَوْاَسِي اللَّهَ فِيهَا نَبِيُّهُ مُحَمَّداً - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّ هَذَا هُوَ شَانُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِكَ مَعَ
أَفْوَاهِهِمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمَصْرٍ، إِذْ يَقْفَ سَرَّاً الْقَوْمَ وَأَغْنِيَاهُمْ

(١) سورة الزمر / الآية ٢١

في وجه الدعوة إلى الله . ويتصدى هؤلاء، المتنعمون للحق بعد أن أبظرتهم السمعة ، وأفقدتهم الرغبة في تعرف المنعم ، وأعمت أبصارهم وبصائرهم عن التدبر والنظر في هذا الخير الذي يدعوهم إليه الرسُل ، وما لهم من حجَّة في الإصرار على الكفر إلا حجَّةٌ واحدةٌ تتكرر مع الزمن « إِنَّا وَجَدْنَا أَبَابَةً نَّاعَلَنَّ أَمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْتَرِهِمْ مُهْتَدُونَ »^(١) . إنهم يعتزون بالجهل ، وينمكرون بالإثم ، ويؤكدون أنهم لن يتخلوا عمما كان عليه آباءُهم وأجدادهم ، إذ هم بهم مقتدون ، وعلى آثارهم يسلكون ، إنه التقليد المُزري الذي لا يليق بالإنسان الذي يحترم عقله ، ولا يسر حلف غيره كالقطيع .

٥ - عناد وجحود وإصرار على الكفر :

ومن هنا نجد الآيات الكريمة تسمِّ هؤلاء بالثُّنْطَع وعَدْم الوعي ، وانطمس القلب والعقل ، وتكتشف عن إصرارهم على الموروث مهما يكن مُجافياً ، مُتباعدةً عن الحق ، فلقد كان كلنبي يقول لهؤلاء المقلدين من قومه مستنكراً منهم هذا الإصرار على الفساد : أنتظلون على كفركم ، وضلال نهجكم ، وتقاليد آبائكم ، ولو دللتُمُّ على طريق الخير والنجاح ، وعلى سبيل المؤمنين الصالحين ، الذي هو بالتأكيد أسلم من نهج آبائكم ، وأهدى وأقومُ ما أنتم عليه وأرشد؟

(١) سورة الزمر / الآية ٢٤

لكن القوم يأبُونَ أَنْ يمِيلُوا إِلَى الْحَقِّ، وَيَظْلَمُونَ عَلَى كُفَّارِهِمْ
عَنَادًا وَاسْتِكْبَارًا، وَحَرَصًا عَلَى مَا لَهُمْ بَيْنَ قَوْمِهِمْ مِنْ جَاهَ أو
نَفْوذَ، وَخَوْفًا عَلَى مَصَالِحِهِمُ الْمَادِيَةِ فِي الدُّنْيَا، فَيُؤْكِدُ أَنَّهُمْ
لَنْ يَتَزَحَّجُوا عَنْ دِينِ آبَائِهِمْ، وَيَقُولُونَ لِرَسُولِهِمْ: إِنَّا كَافِرُونَ
بِمَا أَرْسَلْتَ بِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُولِ، مَهْمَا يَكُنْ
مَعَكُمْ مِنْ حُجَّجٍ سَاطِعَةٍ، وَمَعْجَزَاتٍ باهِرَةٍ، وَبِهَذَا يَكُونُ قدْ
انْقَطَعَ الرَّجَاءُ فِي إِصْلَاحِهِمْ، وَأَوْصَدَتْ أَبْوَابَ الْهُدَى فِي
وُجُوهِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ طُرُقِ الْعَلاجِ إِلَّا اسْتِتِصالُهُمْ، وَتَطْهِيرُ
الْأَرْضِ مِنْ شَرُورِهِمْ.

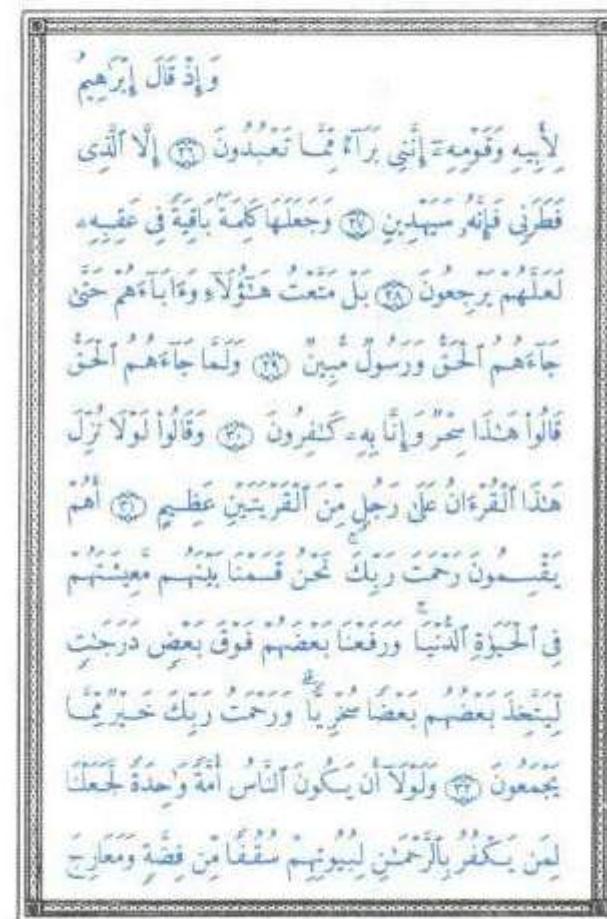
وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ الَّذِي أَمْهَلَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ،
إِلَّا يَتَّقَمُ مِنْهُمْ انتِقامًا مُرْوِعًا، يَكُونُونَ بِهِ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ،
وَمَثَلًا لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ «فَإِنْتَقَمْتَ مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقِيَّةُ
الْمُكَذِّبِينَ»^(١)، فَلَا تَبْتَشِّسْ يَا مُحَمَّدٌ بِمَعْوِقَةِ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ قَوْمِكَ،
فَإِنَّهُمْ لَنْ يَنْالُوكُمْ وَلَا مِنْ دُعَوَتِكَ، وَسُوفَ تَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ،
وَيُعْلِي اللَّهُ دِينَكَ وَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ.
وَأَمَّا أَنْتُمْ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ فَاحْذَرُوْا أَنْ يَحْلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ
مِنَ الْأَمْمِ السَّابِقَةِ.

* * *

(١) سورة الزمر / الآية ٢٤

(٣)

من الآية ٢٦ إلى الآية ٣٥ من سورة الزخرف



عَلَيْهَا يَظْهِرُونَ ② وَلِبَرِّهِمْ أَبُو بَرْ وَسَرَّا عَلَيْهَا
يَكْفُونَ ③ وَزَرْفَا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَعَامَتْنُ الْحَيَاةِ
الْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُغْفِرَةِ ④

معاني الكلمات والجمل

لأبيه : آزر.

إِنِّي بِرَبِّهِ مَا تَعْبُدُونَ : إنني بريء من معبوداتكم
وعبادتكم. وكلمة «براء» مصدر
يُستعمل للواحد والجمع والمذكر
والمؤنث.

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي : إلا الله الذي خلقني.

فَإِنَّهُ سَيِّدِنَا لِدِينِهِ : فإنه سيرشدني لدينه.

وَجَعَلَهَا كَلْمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيدَةِ : جعل (إبراهيم) - عليه السلام -
كلمة التوحيد باقية دائمة في ذريته
التي تأتي من بعده إلى يوم القيمة.
وَالْعَقْبُ : الولد، وولد الولد.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

: لعلهم يرجعون إلى التوحيد
الخالص، دين أبيهم إبراهيم عليه
السلام.

وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَنْ

: ولما جاءهم القرآن الكريم بدعوة
التوحيد.

وَرَسُولٌ مِّينَ

: رسول يوضح لهم أوامر الله، وهو
محمد - صلى الله عليه وسلم - .

لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ

: من إحدى القربيتين: مكة أو
الطائف.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ

: عجباً لهؤلاء يقسمون رحمة ربكم،
ويختارون للنبيوة من شاؤوا !!

لِبَخْدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

: ليكون كل منهم ساحراً الخدمة
الآخر، وعوناً له على قضاء
مصالحة.

وَغَرِيَّا

: ولو لا أن يكون الناس بالدنيا،
فيصبحوا أمة كافرة، لأعطينا الكفار
أمة واحدة
كل ما يشاؤون من زخارفها.

وَلَوْلَا إِنْ يَكُونَ النَّاسُ

: فيصبحوا أمة كافرة، لأعطينا الكفار
ـ

سُقُّفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ

: جمع (سقف) «ومعراج» مفرده

(معراج) سقفاً ودرجات من فضة.

عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ

: يصعدون عليها إلى السطح.

وَزَعْفَرَانٌ

: زينة وذهبًا .

وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَاءَتْنَعُ

: مَا كُلُّ الذي سبق ذكره إلا متاع

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

قليل زائل في هذه الحياة الدنيا .

الشرح

١ - محمد على ملة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام :
بعد أن انكر الله - سبحانه وتعالى - على المشركين
ضلالهم وتمسّكهم بتقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام ،
وعاب عليهم هذا التقليد الأعمى الذي توارثوه حتى أعمتهم
عن الحق - نبههم إلى أنه لو كان لا بد لهم من التقليد فليتم
يقلدون أباهم إبراهيم - عليه السلام - الذي يزعمون أنهم
على دينه .

فذكرهم يا محمد بمحوقه من أبيه وقومه ، فلقد حارب
إبراهيم الشرك ، وكان يدعوا إلى التوحيد الذي يدعو إليه
محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنه في سبيل توحيد الله ،
وبيذه للشرك - تعرض للأذى والقتل والتحرق ، وتحمّل ما
يتحمّله أولو العزم من الرسل ، ولم يقلّد آباء وقومه ، وإنما جاء
إعلان براءته من آلهتهم وشركتهم في قوة وصراحة ووضوح ،
مستعيناً ربه الخالق المستحق للعبادة ، قائلاً في يقين وثقة:
بأنه لا إله إلا الله واحد ، هو الذي خلقني ، وهو الذي
سيرشدني ويهديني إلى الصواب . . . إلى الدين الحق . .

إلى طريق السعادة

٢ - إبراهيم عليه السلام بورث غببه كلمة التوحيد:

لقد أشرت الأرض بكلمة التوحيد منذ آدم عليه السلام، ولكن إبراهيم خليل الرحمن تحمل عبئاً كبيراً في نشرها وتعهُّد غيرها، وتبنيت راياتها، وتوريتها للأجيال من بعده على لسان رسول من بنيه وعقبه. فكان لكلمة التوحيد، كلمة الحق التي أعلنها إبراهيم - عليه السلام - في قومه صفة الثبات في ذريته. فلقد أوصاهم بها؛ ليبلغها الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد، والجيل بعد الجيل؛ لأنها صلة الأرض بالسماء، ودعوة كل الأنبياء، ونذء الفطرة، ومبعد الرجاء. (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ) جعلها (إبراهيم) باقية خالدة في ذريته، ونهض بها منهم رسول كثيرون، بعضهم من أولي العزم (موسى وعيسى ومحمد) عليهم الصلاة والسلام... وستبقى... يعلنها الكون، ويشهد بها الوجود، ويحملها من ذرية إبراهيم ومحبيه دعاء إلى يوم القيمة؛ رجاء أن يعود من ضلّ منهم إليها... فيؤمن المشرك، وفيفي إليها الجاحد، ويُسْعَد بها الشقي، ويترى إلى الله من يتوب.

٣ - موقف مشركي مكة من محمد وكتابه:

ومن نسل إبراهيم جاء خاتم المرسلين يحمل إلى مشركي مكة الهدى، ويعلن فيهم كلمة التوحيد، ويُخْبِي فيهم دعوة أبيهم إبراهيم، ويجدد ملائكته، فكيف استقبلوا محمداً - صلى

الله عليه وسلم - ودعوتهم؟ . إنهم استحبوا الغنى على الهدى، وقابلوا نعمة الله عليهم وعلى آبائهم بالكفر، وطال عليهم العهد فقتلواهم، وشغلتهم المتعة والانهماك في الملذات عن الله، ونسوا كلمة التوحيد، - وهم من عقب إبراهيم - واغتروا بالنعمة والمهملة، وتمادوا في تقليد الآباء، وغرهم إمهال الله لهم، وعدم أخذهم بالعذاب ، فلما جاءهم القرآن الكريم معجزة حالدة ناطقة بالحق ، وجاءهم رسول منهم، واضح الرسالة، بين الحجة، يؤيده الله تعالى بالمعجزات ، وأعظمها شأن القرآن الكريم - أعرضوا واعترضوا، وقالوا: هذا سحر وإنما به كافرون ، وتأهلا في الضلال والعناد ، والاستهانة بمحمد وكتابه ، مع أنهم على يقين بأن القرآن هو الحق المبين ، وأن السحر كذب وغش وخداع ، ولكنهم بذلك يحاولون حرف الناس عن نور الله . . ! . . ويش ما اختاروا . . ! .

٤ - مقياس خاطئ لأهل مكة في النبوة:
ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعا آخر من كفرهم وتعثّرهم ،
وجرأتهم على الحق ، ومجافاتهم للعقل ، واعتراضهم على
حكم الله على أساس من قياسهم الخاطئ ، واعتقادهم بأن
النبوة لا تليق إلا برجل عظيم الشراء والتقدّم ، كثير الجاه ،
مُفتَدِّ السلطان ، ومحمد بن عبد الله ليس كذلك . . ! . فهو
اليتيم الفقير ، الذي كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة ،

ويعمل في تجارة خديجة بنت خويلد وأولى بالنبوة أن تكون لأحد سادة مكة أو الطائف، كالوليد بن المغيرة، عم أبي جهل في مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي في الطائف، وكان أغنى رجالات بلديهما.

لقد غلب عليهم المتع الزائل حتى جعلوه مقاييساً لكل القيم، ومرشحاً للنبوة، وحكموا بذلك أهواهم زاعمين أن الرسالة لا يصلح لها إلا غني عظيم، صاحب بطاش ومال وسلطان، ونقود وجهه. والله - تبارك وتعالى - أعلم حيث يجعل رسالته، إنها شرفٌ إلهي يختار الله له من شاء، ويصنته على عينة في كل مراحل حياته، ويُقيضُ عليه عظمة ساوية، تصفو بها نفسه ، ويزکو بها فزاده، وتتجزد بها روحه من مطامع الحياة، ويستمد بها القوة من الله، الذي اختاره واصطفاه، فهو.. غني بالله.. قوي بالله.. مؤيد من عند الله.

٥ - أمر النبوة لله وحده:

ورَدَ الله تبارك وتعالى منكراً عليهم تدخلهم في قسمة النبوة؛ لكون من نصيب هذا أو ذاك، متعجبًا من أمر هؤلاء الناس الذين تجاوزوا حدودهم، فهل من حقهم أن يقسّموا رحمة ربك، فيختاروا للرسالة من شاؤوا ، ولو لم يكن لها أهلاً؟ إن الله وحده هو الذي يعلم من يُصلح لحمل هذه الأمانة العظيمة «الله يُصَلِّيْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْلَأِكَهُ رَسُلًا وَمِنْ أَنْسَهُ»^(١) .

^(١) سورة الحج / الآية ٧٠

ولو ثدِّير هؤلاء أمرهم لعلموا أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً
ولا ضرراً، ولا يقسمون بين الناس معيشة ورزقاً، فـالله هو
الذي قسم الأرزاق في هذه الحياة، وفضل بعض الناس على
بعض فيها؛ ليتمُّ نظام الحياة بالتعاون. وإذا كان الله - تبارك
وتعالى - هو وحده المتصرف في توزيع الأرزاق الهبة الفانية،
ولم يفُوض ذلك الأمر البسيط لأحدٍ من خلقه، فكيف يترك
أمر النبوة - وهو عظيم وخطير - لأهواء البشر، واختيار
الناس؟!

٦ - الحكمة الإلهية في تفاوت الناس في الأعمال والأرزاق:
لقد فاض الله تعالى بين الناس في توزيع الأرزاق، ورفع
بعضهم فوق بعض درجات، وميّز بينهم في القدرات
والذكاء، والموهاب والاستعدادات، والقدرة والرزق، والعلم
والعمل، والرياسة والحرية، والممال والولد، وما هذا التفاوت
إلا أثر علم الله وحكمته؟ ليستخدم بعضهم بعضاً في أمور
الحياة، ويتبادلوا الخدمات والمنافع، ويستشعروا التعاون
والتكافل، فالطيب يحتاج إلى المدرس في تعليم أبنائه،
ومال المدرس يحتاج إلى الطيب في علاج أسرته، وكلاهما
 يحتاج إلى المهندس، والمهندس يحتاج إلى صاحب العمل
والعامل.. وهكذا.. جرَّت إرادة الله في حاجة الناس
للناس، والتفاوت في توزيع الأرزاق؛ وذلك لتنظم أمور
البشر، ويدور دولاًب الحياة، ويتحقق الإنسان الهدف من

استخلاف الله له في الأرض بعمارتها، ويعاونه معبني
جنسه، لأنه مدنىٌ بطبيعة كما يقولون . . .
الناس للناس من بدء وحاضرة بعض بعض وإن لم يشعروا خدم
وسيقى التفاوت في كل شيء ثابتة، وقانوناً إلهياً،
يحكم الحياة والأحياء، إلى ما شاء الله، رب الحياة
والحيات.

هذا شأن الأرزاق والدرجات والتفاوت فيما في الحياة
الدنيا، والكل يعجز عن تدبيرهما وتوزيعهما، ومع ذلك ينال
منهما البر والفاجر. لكن رحمة ربنا يا محمد، وفضله عليك
بالبيبة، وما يتبعها من الهدایة، وانتظام الحياة - يشرع الله -
خير مما يجمعون من المال، وما يحرضون عليه من متاع
الدنيا وزخرفها.

٧ - هوان الدنيا على الله:

ثم بين سبحانه حقاره نعيم الدنيا بالنسبة للأخرى، وأن ما
فيها ظل زائل، ومتاع رخيص فاني، وهو من الهوان على الله
بمكان، ولو لا كراهة أن يكون الناس أمة واحدة في ميلهم إلى
الدنيا وزخرفها، واخبارهم لها على الآخرة، وتفضيلهم
الكفر على الإيمان - لجعلنا لبيوت الكافرين بالرحمن سقفاً
من فضة، وسلامٌ يصدون عليها من فضة، وأبواباً من

فضة، ولجمعنا لهم فيها أفحى الأسرة والآلات والرِّياش ، بها يستمتعون، وعليها ينكشون، شأنهم شأن الملوك المترفين الغارقين في ألوان المتع والذهب والفضة، وكفى بهذا التعيم الزهيد هُوَاً أن يُذَلَّ رخيصاً لمن يكفر بالرحمن !! .

وأين هذا من التعيم الدائم الذي يُذْخره الله للمتقين في الآخرة؟! إنها دارُ الكِرامة التي خص الله بها المتقين .. فعلى المؤمن أن يطمئن إلى عدل الله وحكمته، ويرضى باختيارة وقسمته للحظوظ في الدنيا والآخرة، فما بَعْدَ الرِّضا إِلَّا الرِّضوان من الله تعالى .. وهو أعظم الحظوظ وأفضلها !! .

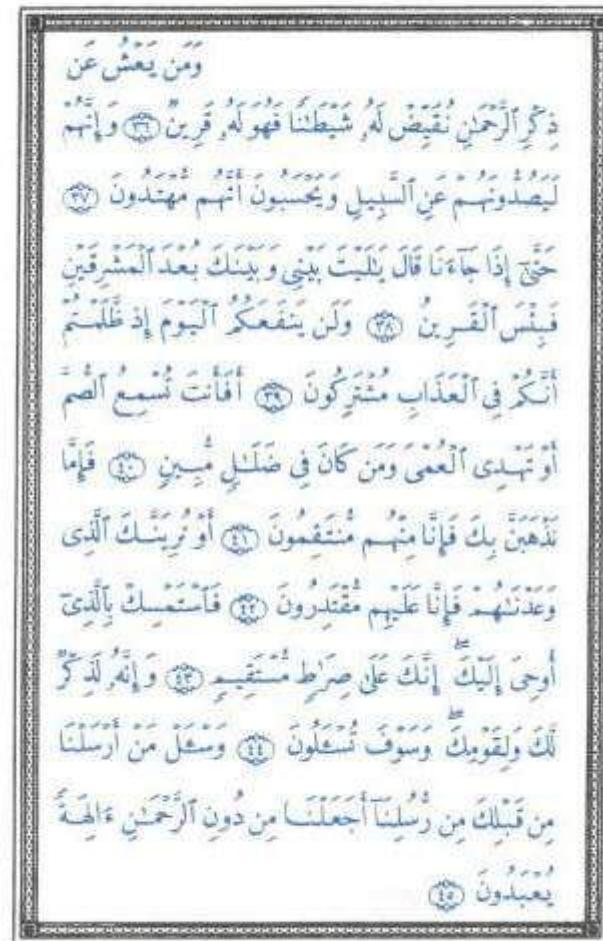
هكذا يكشف القرآن الكريم عن هذه العبرة؛ لستقر في النفوس المؤمنة، يقيناً .. وثقة .. وطمأنينة، ويعيها عقل المعتبرين على اختيار الله تعالى للرسالة من يشاء، واصطفائه محمداً - صلى الله عليه وسلم - ليكون خاتم الأنبياء دون أصحاب المتع الزائل، فالعظيم الذي يختار للنبوة .. هو العظيم في الآخرة .. وما عظمة الدنيا إلا شيء تافهٌ حقير.

فعن (سُهْل بن سعد) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لو كانت الدنيا تُزنٌ عند الله جناحَ بَعْوضَةٍ ما سقى منها كافراً شَبَّةً ماء»^(١).

(١) أخرجه الترمذى، وصححه ابن ماجة

(٤)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٥ من سورة الزخرف



معاني الكلمات والجمل

- يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الْجَنِّ** : يتعاطف ويتعامل ويعرض عن القرآن الكريم.
- نُقِيقٌ لَهُ شَبِطَنَا** : نهجه له شيطاناً يستولي عليه.
- فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** : مصاحب له لا يفارقه، ولا يستطيع الخلاص من وسوسته.
- وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ الْسَّبِيلِ** : وإن الشياطين ليحولون بينهم وبين سبل الهدى، والنظر في كتاب الله.
- حَنِقٌ إِذَا جَاءَتْنَا** : الكافر والشيطان الملائم له للحساب يوم القيمة.
- بُعْدَ الْمُشْرِقَيْنِ** : بعدهما ما بين المشرق والمغارب، فغلب المشرق، كما تقول: الشسان للشمس والقمر.
- فَيْنَ الْقَرِينُ** : بشّ أنت أيها الشيطان المصاجب.
- وَلَنْ يَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ إِذَا عَذَابَ الدُّنْدُلِ** : لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب الذي أوقعكم فيه ظلمكم وشرككم.
- أَفَإِنَّ نُسِيمُ الْأَصْمَاءِ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَاءِ** : هل تشقي نفسك بهداية أنساس كالصم والعمي؟! هؤن عليك، ودع أمرهم لله.

فَإِنَّا نَذَهَبُ إِلَيْكَ

العذابِ.

فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ

وَلَنْ يَفْلُحُوا مِنْ قِبْلَتِنَا.

فَأَسْتَبِّنْكَ بِالَّذِي

أُوحَى إِلَيْكَ

إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ : إنك على الحق البين، والطريق المستقيم المؤصل إلى رضوان الله.

وَإِنَّمَا لَدُكُّ لَكَ وَلِقَوْمِكَ

وَلِقَوْمِكَ وَلِلْسَّائِرِينَ عَلَى هُدَيْهِ مِنْ أَمْتَكَ.

وَمَنْشَلٌ مِنْ أُرْسَلَنَا مِنْ قَبْلِكَ : وسائل الرسل الذين سبقوك، أو
اسأل المؤمنين بهم.

أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الْرَّحْمَنِ : أحكمنا وقررتنا بأن هناك آلهة تعبد
من دون الله؟ .
إِلَهٌ يُعْبُدُونَ

الشرح

١ - من أعرض عن الله سلط الله عليه الشيطان:
ما أضيع هذا الذي تشغله الفانية عن الباقيا ! فيتعاقب عن
ذكر الرحمن صاحب الفضل والمنة، ويعتمى عن قوله
وهديه، ويعرض عن عبادته وشكوه. فمن يفعل ذلك يمحى

الله عنه الْهُدَى وَيُسْلِطُ عَلَيْهِ شَيْطَانًا يَلْازِمُهُ وَلَا يَغْرِبُهُ
وَيَخْدُعُهُ، فَهُوَ قَرِيبٌ سُوءٍ، يَزِينُ لَهُ الشَّرَّ، وَيَنْحُضُهُ عَلَى الْإِثْمِ
وَالْكُفْرِ، فَيَتَضَاعِفُ عَقَابُهُ فِي الْآخِرَةِ، يُقْدِرُ نَمَاءَ أَثْمَاهُ،
وَانْصِرافَهُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ، وَعَدْمِ اسْتِشْعَارِ وجُودِهِ وَخَشْبِهِ.

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ الْقَرْنَاءَ لِيَمْنَعُونَ الْمُتَعَامِينَ الْمَلَازِمِينَ عَلَى
سَبِيلِ الْهُدَايَةِ وَالْخَيْرِ، وَيَحْرُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ طَرْقِ الْحَقِّ،
وَيَجْنَحُونَ بَعْدَهُمْ إِلَى الضَّلَالِ، وَيُوَهِّمُونَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى نُورٍ
وَبِصِيرَةٍ وَهُدَايَةٍ مِّنْ أَمْرِهِمْ، وَيَلْأَخْفُونَهُمْ بِذَلِكَ؛ حَتَّى يَظْنُنَّ
هُؤُلَاءِ الْمُعْرِضُونَ - خَطَا - أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ، دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا
أَنَّهُمْ وَقَعُوا فِي خَطَرٍ عَظِيمٍ.. حَتَّى يَأْتِي يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَيَحْيِي
كُلَّ كَافِرٍ وَمَعْهُ قَرِيبَهُ، وَقَدْ رُبِطَ بِسَلْسَلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ زَالَتْ
حُجُّ الْعِمَامَةِ، وَأَنْصَحَتْ صَنْفُ الْعَقَابِ، وَرَأَتِ الْأَعْيُنِ -
بَعْدَ التَّعَامِيِّ - النَّهَايَاةَ الْمُفْجِعَةِ.. هَنَا.. يَقُولُ الْكَافِرُ لِشَيْطَانِهِ
بِمَرَارَةِ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَمِ: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنِكَ بَعْدَ الْمُشْرِقَيْنَ»!!
وَهَلْ تَفِيدُ وَقْتَنَدَ الْحَسْرَةُ الْمُرَّةِ، أَوَ النَّدَمُ الْفَسَائِعِ، أَوْ تَمَنَّى
الْمُسْتَحِيلِ؟!!

يَتَنَدَّمُ الْكَافِرُ وَلَاتَ سَاعَةً مَنْذَمُ ، وَيَنْدِعُ الْكَلامُ الْخَانِقُ مِنْ
فَمِهِ.. يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنِكَ مَا بَيْنَ الْمُشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَبَشِّسْ

القرین والصاحب أنت؛ لأنك كنت السبب في شقائی
وعذابي . . فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار.

ثم يقول الله تعالى توبیخاً للقرنة، وتبیضاً لهم من رحمة الله؛ لن ينفعکم الیوم ندم او اعتذار بعد ما ظللمتم انفسکم في الدنيا، ولن يخفف عنکم العذاب اشتراککم جمیعاً فيه، فلکل واحد نصیہ الأوفر من هذا العقاب الألیم، فلا أمل في تخفیف العذاب عنکم، فإنکم آیسون من رحمة الله؛ لأنکم لا تستحقونها!

٢ - تسلیة النبي - صلی الله علیه وسلم - وتبیته :

ولما كان - صلی الله علیه وسلم - يُجهدُ نفسه في هداية قومه، ويحرص على دعوتهم إلى الإيمان، وهم لا يزیدون إلا عناداً واستکباراً . . فبشق ذلك على نفس الرسول الكريم، أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يُطلعه على حقيقة أمرهم، وما تُکه ضمائرهم، في أسلوب تعجبٍ من هذه المشقة ومن هذا التعب مع من لا يؤمن، فلا تنفع الدعوة إلى الله مع من سبقت عليه الشقاوة، فلا تحمل نفسك هذا العناء محاولاً إسماع صوتك للمعرضين عنك، ممن عطلوا حواسهم التي وهبها الله لهم، فَصَمُّوا آذانهم عن دعوتهم، وأغلقوا عيونهم وعقلوهم وقلوبهم عن نور الله ، وغَرِّقُوا في الظلام والضلالة،

وتاهموا.. فلا تشنُّ على نفسك، ولا يضيق صدرك بما وصلوا
إليه، فما لهدائهم عليك من سبيل فلقد أذيت الأمانة، وبلغت
الرسالة، ونصحت قومك، وقمت بواجبك.

وفي هذا تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وطمانة
لنفسه، وإخبار بأن أمر الهدایة بيد الله عز وجل، هو الذي
يتولى أمرهم، ويتصرف فيهم بما يشاء، بعد أن تمكنت فيهم
الجهالة ، فصاروا حُمَّاً لا يعقلون، وعُمَّيَا لا يُصررون [إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَنْ أَحَبَّتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ] ^(١).

ثم طمأن الله - سبحانه - نبيه بأنهم لن يُغتلو من العقاب،
ولا بد أن يُرثي الله ما يحل بهم جزاء عنادهم، إن في حياته أو
بعد مماته، فإن قبضناك إلينا قبل أن ترى ذلك، فإننا متقمون
منهم في الدنيا وفي الآخرة. وإن امتد بك العمر فسوف ترى
فيهم وعد الله وعقابه، فذلك سهل علينا، ل تمام قدرتنا عليه.

ولقد حقق الله وعده، وأرى رسوله شيئاً من عذابهم في
حياته. ففي يوم بدر أصابهم ما أصابهم من القتل والتنكيل،
والأسير والذل والعار، ويوم فتح مكة أقر الله عين رسوله،
ومكنته من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، فالله قادر على
الانتقام متى شاء وكيف شاء.

(١) سورة القصص / الآية ٥٦

فتمسّك يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه إليك ، وابتُتْ على
دعوتك ، وسر في طريقك كما أمرت ، وإن كذب به من
كذب ، أو صدق به من صدق ، وسواء عجلنا لهم العقوبة في
الدنيا ، أو آخرناها إلى يوم القيمة ، فلا يصرفتك عن الحق
صارف ، فإنك على صراط مستقيم ، وعلى دين قويم لا عوج فيه
ولا انحراف . وهكذا شأن الدُّعَاء إلى الله ، فباتهم وتبثتهم
على الحق ركيزة لحمل الدُّعَوة ، وغُونٌ على تحمل أعبائهما
ومسئoliاتهما ، وما أعظمها من تبعية ! وما أشقها من أمانة !

٣ - قريش تعادي القرآن مع أنه شرف لهم :

إن القرآن الذي أوحيناه إليك ، وجعلناه هدى للناس ،
وأمرناك أن تثبت عليه . له شرف عظيم لك ولقومك من
قريش ، ولمن اتبعك من المؤمنين إلى يوم الدين ، ففيه
تذكرة ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وفيه رفع لذكرك ولقومك ،
 فهو شرف لك أيها النبي ، لأن الله اختارك وأصطفاك هادياً بهذا
الكتاب إلى التي هي أقوم ، وأعلى به قدرك في العالمين ،
وجعلك ملء سمع الدنيا وبصرها ، وخلي ذكرك بأن جعل
مثاب الملائين المؤمنة على مدار التاريخ تختنق قلوبها
بحبك ، وتلتفج ألسنتها بذكرك والصلوة والسلام عليك ،
حتى يقوم الناس لرب العالمين ، وإنه لشرف لقومك كذلك

حيث نزل بلغتهم، وفي بقائها ذكر لهم، لَقَدْ أَرْلَنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا
 يُذَكِّرُ أَفَلَا تَعْلَمُونَ (٢١) . وتزول على رجل منهم، فعرفتهم طلاق
 الأرض، وأرجاء المعمورة، واحتاج أهل اللغات إلى أن
 يأخذوا من لغتهم؛ ليقفوا على مافي القرآن، فشرفوها به قرآنًا
 عربياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأي شرف
 أَجْلُ من شرف القرآن العظيم الذي سُوِّدَ العرب، وملأكم
 ناصية العالم، ونشر حضارتهم في آفاق الأرض بعد أن كانوا
 في جهالة جهلاء، وضلاله عمياً؟!

وهو شرف أيضاً لكل من اهتدوا بهديه، وتدارسوه وعملوا
 بما جاء فيه؛ إذ يذكُرُهم الله فيمن عنده من الملائكة في الملا
 الأعلى، بقصدأً لقوله عليه الصلاة والسلام: «وما اجتمع قوم
 في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم
 إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم
 السكينة، وذكْرُهُمُ الله فيمن عنده» (٢).

ومن أجل ما لهذه النعمة من قدر عند الله، وفضل على كل
 النعم، جعلها الله أمانة في أعناقكم لها تعانها ومسؤولياتها،
 ولسوف تسألون عنها يوم القيمة، وعن القبام بحقوقها، وعن
 شكر الله تعالى لامتنانه عليكم بهذه النعمة الجليلة التي

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه.

(١) سورة الأنبياء / الآية ١٠.

شرفكم بها، وجعلكم بذلك خير أمة أخرجت للناس.

٤ - تسفية المشركين لمخالفتهم كل الأديان :

ثم أراد الله تسفية مشركي مكة وغيرهم، بأنهم خالفوا كل الأديان، وجادلوا في وحدانية الله، وأصرّوا على أن الله شريكًا، وأن له ولدًا، فمن أين جاءتهم هذه الضلالات الباطلة؟ والافتراءات الظالمة؟ فسأل يا محمد منْ آمن بك من أهل الكتاب من أتباع موسى وعيسى : هل جاءتهم رسالهم إلا بالتوحيد؟! وهل هناك أحد من رسول الله دعا إلى الشرك وعبادة غير الله؟! وهل أبخا لهم في أديانهم وكتبهم أن يعبدوا ربًّا سواه؟! فالتوحيد هذا أساس دين الله الواحد، وبه نادى كل الرسل، وما أذن الله تعالى بعبادة الأوثان في ملة من ملأ الأنبياء السابقين . فما عليه مشركو مكة لم يرُد في شريعة من الشرائع . فهم لم يخالفوك وحذرك، بل خالفوا جميع من سبقك من الأنبياء والمرسلين . فعلى أي شيء يعتمد هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمن آلهة يعبدون !!

* * *

من الآية ٤٦ إلى الآية ٥٦ من سورة الزخرف ^(٥)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ إِلَيْكُمْ بِكَاتِبِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ
وَهَامَانِٰهُمْ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ① فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِكَاتِبِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ② وَمَا نَرِيدُ
مِنْ عَابِثَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْخَبَاهَا وَأَخْذَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ③ وَقَالُوا يَا يَاهُ أَسَرِّ أَدْعُ لِنَارِكَ
إِمَّا عَاهَدْتَ إِنْتَكَ إِنْتَ الْمَهْتَدُونَ ④ فَلَمَّا كَتَبْنَا
عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَكْثُرُونَ ⑤ وَنَادَى فِرْعَوْنَ
فِي قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُومُ الْيَسَرَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْزَلُ
تَحْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا يَتَسْرُرُونَ ⑥ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا
الَّذِي هُوَ مِهِينٌ وَلَا يَسْكَدُ يُبْيَسْنُ ⑦ قَلُولًا أَنِّي عَلَيْهِ
أَسْوَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاهَ مَعَهُ الْمُلْكَةُ مُفْتَرِنَ ⑧
فَاسْتَحْفَ قَوْمَهُ فَأَطْاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ⑨

فَلَمَّا أَسْفَنَا أَنْتَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْعِينَ ﴿٤٢﴾

بِعَذَابِهِمْ سَلَقًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٤٣﴾

معاني الكلمات والجمل

وَمَلَائِكَةٌ : كبار قومه وأشرافهم.

غَایِنَتَا : جمُع آية، وهي المعجزة.

مِنْهَا يَضْحَكُونَ : يضحكون سخرية واستخفافاً بها.

أَكْبَرُ مِنْ أَخْيَاهَا : أبلغ في الإعجاز والتأثير من أختها التي سبقتها.

أَخْدَدَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ : أخذناهم بالعذاب بالآيات.

بِرِيدُونَ (موسى) عليه السلام، ولم يكن السحر عندهم صفة دم.

فِرَادُهُمْ : أيها العالم الماهر.

إِمَاعِهَدَ عِنْدَكَ : ادع الله لنا بالعهد الذي أعطاه لك، وهو كشف العذاب عن اهتدى.

بِسْكُنُونَ : ينقضون العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالاheedاء.

الأنهر تجري من تحت : فروع نهر النيل تجري من تحت
قصوري، أو تحت سلطاني
وتصرفي

أَفَلَا تُصْرُونَ؟ : ألا ترون قوتي وعظمتي، وضعف
موسى وفقره.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُنَّ : (أم) بمعنى بل، بل أنا خير.
ضعف حقير، ليس معه جند ولا
أعون ولا حدم.

وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ : لا يستطيع أن يُفْصِحَ عن مراده،
(بسبب لغة في لسانه، وقد عافاه
الله منها).

فَلَوْلَا أَتَيَ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ : هلا ألقى رب موسى عليه أسوره من
ذهب! لو كانوا إذا رأسوا رجلاً أيسوه
سواراً من ذهب؛ علامة للشرف
والسيادة في قومه.

مُقْتَرِنِينَ : مقرنيين به، أتباعاً له، وشهادة
على صدقه.

فَاسْتَخْفَ قَوْمًا : وجد في عقولهم حفة؛ فاستجهلهم
لطاعته وتکذيب موسى.

فَتَرَيْنَ : خارجين عن طاعة الله.
فَلَمَّا آتَيْنَا : أغضبنا أشد الغضب بأعمالهم
السيئة.

بَعَلْتُهُمْ سَلَفًا وَمُثَلًا : جعلنا فرعون وقومه قدوةً لغيرهم من
الكفار، ومثلاً وعبرةً لمن بعدهم .
لِلآخِرِينَ

الشرح

١ - الشريعة عن الرسول بعرض لمحة من قصة موسى مع فرعون :

حين اغترّ كفار قريش بعرض الدنيا، ومتاعها الزائل، فأعمى الغرور أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحق، حتى قالوا: إنَّ الْوَحْيَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِرَجُلٍ غَنِيٍّ وَاسِعِ الْثَّرَاءِ، ذِي مَكَانَةٍ وَسُلْطَانٍ، وَطَعَنُوا فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأنَّه لَيْسَ مِنْ ذُوِّ الْجَاهِ الْعَرِيفِ - أَرَادَ الْحَقُّ تَبَارِكُ وَتَعَالَى - أَنْ يُسْرَىٰ عَنْ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون الطاغية؛ ليُظْهِرَنَّهُ إِلَى أَنْ افْتَخَارَ الْجَبَابِرَةِ بِدُنْيَاهُمْ قَصَّةٌ تَكْرَرُ مَعَ كُلِّ الرُّسُلِ، وَأَنَّ مَا قَالَهُ قَرِيشٌ فِي حَقِّهِ، سَبَقَ أَنْ قَالَهُ فَرَعُوْنَ فِي حَقِّ مُوسَى ، فَمُنْطَقُ السَّادَةِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مِنْ حِيثِ اغْتَرَّهُمْ بِالْمَالِ وَالْمُلْكِ، وَالْتَّبَاهِي بِالْعَظَمَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَالْتَّعَالَى بِالْفَخْرِ وَالْخِيلَاءِ، وَالرُّفْضُ لِقَبْوُلِ دُعَوةِ الْحَقِّ. فَاصْبِرْ بِإِيمَانِكَ مُحَمَّدًا كَمَا صَبَرْ قَبْلَكَ أُولُو الْعِزَمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَاثْبُتْ عَلَى دُعَوْتِكَ، فَسَتَكُونُ عَاقِبَةُ الْمَكْذُوبِينَ إِلَى الْبَسَارِ وَالْهَلَالِ كَمِنْ سَبَقُهُمْ .

ولقد جاءت قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون على حلقات في القرآن الكريم، بدءاً من سورة البقرة، ومروراً بسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة القصص. وفي كل سورة من هذه السُّور تأتي الفضة متناسبة مع مسيرة البيان، متوازنةٌ مع ما يناسبها من المواقف. وهي هنا في سورة «الزخرف» تعنى بتشابه موقف كفار قريش من محمد - صلى الله عليه وسلم - مع موقف فرعون وقومه من (موسى) عليه السلام، ثم تسوق نهايته الأليمة تعميقاً للعظة والاعتبار. وهناك إشارات لتلك القصة المثيرة في بعض سورٍ أخرى.. تذعّم قضية الثبات على الحق، وتحذر المشركين المعارضين من سوء المصير الذي يتغطّفهم، وتضيف أبعاداً جديدة في تربية المؤمنين؛ ليصبروا على الدين القويم، فإن جند الله هم الغالبون.. وذلك كما جاء في سورة غافر، وسورة الدخان وسورة الحاقة، وسورة المزمل، وسورة النازعات.

٢ - (موسى) رسول مُؤيدٌ بالمعجزات :

لقد أرسل الله موسى - عليه السلام - إلى فرعون وقومه؛ ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويُخَيِّرُهم أنه رسول رب العالمين، خالق الكون ومنظمه وقيده، ومالك أمرهم في

حياتهم ومقاتلهم. وقد أيدَهُ الله تعالى بالأيات الباهرة، والمعجزات الدافعة؛ لتكون شاهداً على صدقه، فلما جاءهم بهذه الآيات الدالة على نبوته، فوجئوا بفضحهم منها ساخرين مستهزئين؛ دون أن يتأملوها ويتدبروها، ويندركونا عظمتها وقوتها. وزعموا أنها سحرٌ ساحرٌ؛ وفي استطاعتهم أن يكونوا أسرع منه وأقوى، وأوهموا أتباعهم أن ما جاء به موسى لا يُعدُّ معجزة؛ حتى لا يتذمرون بصدقه وقوته دعوته.

وكانت الآيات التي رأوها كلُّ واحدة منها أوضح من سابقتها، وأبلغ في الإعجاز من أختها التي تقدمتها، مع أنها عظيمة في نفسها، وكلها متناسبة في الدلالة على صحة نبوة (موسى) عليه السلام. ولكنهم عاندوا وكذبوا، ولم تُجدهم هذه الآيات الكبرى أثرها في نفوسهم المريضة، و قالوا مهما تأثروا، من آيةٍ نُسْخِنَّهَا فَأَنْعَنُّ لَكُمْ مُؤْمِنِينَ^(١).

فيعاقبهم الله تعالى بأشد أنواع العذاب: كالطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، وكالجفاف، والقطط، ونقص المحاصيل والثمرات؛ لعلهم يرجعون عن إصرارهم على الكفر والتكذيب: فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطُوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقَمْلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ إِنَّمَا يُفَصِّلُنَا فَإِنْ كَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ^(٢).

(١) سورة الأعراف / الآية ١٣٢

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٣٣

٣ - استنجادهم بموسى وقت الشدة:

ولما رأوا العذاب، ووقعوا في البلاء، لجأوا إلى موسى مستنجدين به قائلين: يا لها الساحرُ والعالم العظيم، (وكانوا يسمون العلماء سحرةً، وقدرُونهم في مجتمعهم) إنا نتوسلُ إليك أن تدعُونا ربكم بما عهدي إليك وأكرمك به من النبوة، والاستجابة لدعائكم، وكشف العذاب عن المؤمنين. ونحن نعاهدك إن كشف الله عنا العذاب الذي نزل بنا فإننا لمهتدون فيما يأتي من الزمان، ومؤمنون بما جئت به. فلما رفع الله عنهم العذاب بدعاء موسى - عليه السلام - سرّغأن ما نكثوا عهدهم، ونقضوا ما شفّعهم، وأعلنوا إصرارهم على الكفر والعصيان.

٤ - خوف فرعون من تأثير قومه بما جاء به موسى:

وخف فرعون أن تؤثرُ الخوارق التي جاء بها (موسى) في قومه، فعمد إلى مظاهرة إعلامية بقصد التشویش، وجمعَ الكثيرَ من عظماءِ القوم، ونادى فيهم متسائلاً مفتخرًا: يا قوم: أليس لي مُلك مصر وحُكُمها والتصرف فيها؟ أليس نهر النيل وفروعه تجري من تحت قصورِي؟ أفلَا تبصرون عظمة مُلْكِي واتساعِه، وقوتني فيكم فلا يناظعني أحد، ولا يخالفني مخالف؟ ألا تستدللون بذلك على عظيم منزلتي، وضعف (موسى) وقلبه وذلته؟ بل أنا فرعون وأبنُ فرعون، عريقٌ في

الْمَجْدُ وَالْجَاهُ، فَلَا يَدِنُ أَكُونْ خِيرًا مِنْ (موسى) الْمُضِيِّفِ
 الْمُهَمِّنِ، الَّذِي لَا عَزَّ لَهُ وَلَا سُلْطَانٌ وَلَا أَبْيَاعٌ، وَلَا قُوَّةٌ بَيْانٌ،
 وَلَا فَصَاحَةٌ لِسَانٌ. فَهُوَ يَمْتَهِنُ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ لِقَمَةِ الْعِيشِ
 الَّتِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا بِالْكَدْرِ وَالْتَّعبِ، وَهُوَ مَعْقُودُ اللِّسَانِ،
 مَحْبُوسُ الْبَيْانِ، فَكَيْفَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا؟!
 إِنَّ فَرْعَوْنَ الَّذِي عَلَا فِي الْأَرْضِ يَعْبُرُ عَلَى (موسى) فَقَرَأَهُ
 وَجْهَهُ لِسَانَهُ، تَلَكَ الَّتِي أَدْهَبَهَا اللَّهُ عَنْهُ بِدُعَائِهِ: «رَبِّ أَشْرَحْ
 لِي صَدَرِي (١) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢) وَأَخْلُلْ عَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي (٣) يَفْقَهُوا
 قَوْلِي (٤)» (١). قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَتَمُومِي (٥) (٦). وَحَلَّتْ عَقْدَةُ
 لِسَانِهِ فِعْلًا، وَعَادَ يُبَيِّنُ وَيَضْدُعُ بِكَلْمَةِ الْحَقِّ، وَهُوَ فِي مَقَامِ
 النَّبِيَّةِ، وَفَرْعَوْنُ الطَّاغِيَةِ فِي مَوْقِفِ الْكَذْبِ وَالْبَهْتَانِ.
 ٥ - فَرْعَوْنُ يَسْتَمِرُ فِي الْمَغَالَطَةِ وَالتَّضْليلِ:

اسْتَمِرَ فَرْعَوْنُ فِي تَضْلِيلِ سَامِعِيهِ، مُدْعِيًّا أَنَّ مُوسَى لَوْكَانَ
 عَظِيمًا وَشَرِيفًا، وَنَبِيًّا يَتَبَعُّ، وَرَسُولًا مِنْ عِنْدِ إِلَهٍ غَيْرِي حَقًّا۔
 فَهَلَا الْبَسْتَهُ رَبِّهِ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ كَرَامَةً لَهُ، وَدَلَالَةً عَلَى نَبُوَّتِهِ!!
 إِنَّهُ الْمَنْطَقُ الْمَادِيُّ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يُخْضِعَ الْقِيمَ الرُّوحِيَّةَ
 لِلْقِيمِ الْمَادِيَّةِ، وَالَّذِي يُفَضِّلُ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ عَلَى كُلِّ مَاجَاهٍ
 بِهِ (موسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْخَوارِقِ الْمَعْجَزَةِ، مَعَ
 أَنَّ كُلَّ ذَهَبٍ الدُّنْيَا لَا يَعْدِلُ آيَةً مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءَ
 بِهَا مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ!! لَكُنُّهَا الْمَغَالَطَةُ، وَاسْتِمْرَاءُ

(١) سُورَةُ طَه / الآيَاتُ ٢٨ - ٢٩

(٢) سُورَةُ طَه / الآيَاتُ ٣١

الضلال، وخداع السُّدُج المستغَلُين، بقياس أمر النبوة على ما كان يصنعه فرعون مع من يعم عليهم بالرِّياضَة، فيُضَعُ في يد أحدهم أسوة، وفي عنقِه طوقاً؛ كلاهما من الذهب، علامَةٌ على سيادته ورياسته وشرفه. فلابد أن يكون الرسول ذا مُلْك وسِيادة.

وأيضاً لو كان (موسى) صادقاً في أنه رسول من رب العالمين؛ فلماذا لم يجعل له رئيسي أنصاراً من الملائكة، يُصاحبونه في مشيته جنداً، وأعواناً، وآتياً له، يشهدون بنبوته، ويدافعون عنه، ويضمون له هيبة المُلْك؟! وبهذا.. أُوهِمَ ساميَّه أن الرسل لابد أن يكونوا على هيئة الجبارية، محاطين بالملائكة، ويتقدُّمُونَ الحُلُبَيْنَ من الذهب كعادة أشرافهم.

ووُجِدَ فرعون في عقول قومه جفنةً وطيشاً، فاستغلُّهم واستجهلُّهم، واستطاع أن يستغلَ ذلك بمكره وخداعه؛ فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلال، وانقادوا له انقياداً أعمى، وغفلوا عن قوة البراهين ووضوحها؛ لأنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعة الله تعالى، يُبعدين عن الهدى، غارقين في الغواية والضلال، فحُفِّتُ عليهم كلمة العذاب.

٦ - انتقام الله فيه المثل والعبرة:

بعد طول الجُلُم على فرعون وقومه، والإلحاح على

عقولهم بالحجـة بعد الحجـة، والأية بعد الآية، لم تخـش
قلوبـهم، ولم تـستـير عقولـهم، وأصـروا إـصرـارـا على تـكـذـيب
موسى والـاسـلام لـضـلـال فـرـعـون . . فـانتـقـم الله مـنـهـم؛ لأنـهـم
أـغـضـبـوهـ أـشـدـ الغـضـبـ، وـأـسـخـطـوهـ عـلـيـهـمـ أـشـدـ السـخطـ،
فـأـغـرـقـهـمـ أـجـمـعـينـ، جـزـاءـ وـفـاقـاـ، وـأـنـقـامـاـ عـادـلاـ، «إـنـ يـطـشـ زـيـكـ
لـشـدـيدـ»^(١).

قال بعض المفسـرينـ: إنـ فـرـعـونـ اـغـتـرـ بالـجـاهـ وـالـسـلـطـانـ،
وـافـتـخـرـ بـالـأـنـهـارـ الـتـيـ تـجـريـ مـنـ تـحـ قـصـورـهـ؛ فـأـهـلـكـ اللهـ بـماـ
كـانـ يـفـتـخـرـ بـهـ، وـأـغـرـقـهـ فـيـ مـاءـ الـبـحـرـ، فـمـنـ تـجـبـرـ بـشـيـءـ أـهـلـكـ
الـهـ بـهـ.

وـجـعـلـ اللهـ فـرـعـونـ وـقـوـمـ سـلـفـاـ مـتـقـدـمـاـ سـابـقاـ، وـقـدـوةـ يـسـرـ
عـلـىـ خـطـاطـهـاـ كـلـ خـلـفـ مـنـ الـظـالـمـينـ، وـكـلـ مـنـ يـسـتـحقـ
الـعـذـابـ مـنـ يـعـمـلـ عـلـمـهـ مـنـ الـكـفـارـ، كـمـاـ جـعـلـهـمـ مـثـلـاـ فـيـ
الـعـبـرـةـ وـالـمـوـعـذـةـ لـمـنـ يـاتـيـ بـعـدـهـمـ، وـقـصـةـ عـجـيـبـةـ تـجـريـ
مـجـرـىـ الـأـمـالـ، وـحـدـيـثـاـ غـرـيـثـاـ يـسـرـيـ بـيـنـ النـاسـ سـرـيـانـ
الـمـثـلـ.

فـلاـ تـحـزـنـ يـاـ مـحـمـدـ إـنـ عـانـدـكـ قـومـكـ مـنـ قـرـيـشـ، وـكـذـبـوكـ،
وـأـثـبـتـ إـنـكـ عـلـىـ الـحـقـ الـمـبـيـنـ. وـلـيـحـذـرـ الـمـشـرـكـوـنـ مـنـ قـومـكـ
أـنـ يـتـزـلـ بـهـمـ غـضـبـ اللهـ وـنـقـمـهـ، كـمـاـ اـنـقـمـ لـمـوـسـىـ مـنـ فـرـعـونـ
وـقـوـمـهـ.

(١) سورة البروج / الآية ٤٩

(٦)

من الآية ٥٧ إلى الآية ٦٥ من سورة الزخرف

* ولما ضربَ

أَبْنَ مَرِيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمًا مِنْهُ يَصْدُونَ ⑥ وَقَالُوا
هَلْ نَحْنُ خَيْرٌ مِنْهُمْ هُوَ مَاضِرُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَيْرٌ ⑦ إِنَّهُمْ لَا يَعْدُونَ عَمَّا عَلَيْهِ وَجَعَلْتَنَّهُمْ
مَنَّا لَيْسَ بِإِيمَانٍ ⑧ وَلَوْنَاهُ بِحَلْعَنَّا مِنْكُمْ مُلْكَةٌ
فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ⑨ وَإِنَّهُ لَعِلمٌ لِلْمَسَاعَةِ فَلَا يَمْتَرُونَ
بِهَا وَأَتَيْعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ⑩ وَلَا يَصْدِرُنَّ
أَشْبِعَلُنَّ إِنَّهُ لَكُنْ عَدُوٌّ مُسِينٌ ⑪ وَلَمَّا جَاءَهُ عِيسَى
بِالْبَيْتِ قَالَ اللَّهُمَّ إِذْ جِئْتُكُمْ بِالْحَكْمَةِ وَلَا بَيْنَ لَكُمْ يَعْصَى
الَّذِي تَعْبَلُونَ فِيهِ فَأَتَقْرَأُ اللَّهَ وَأَطْبَعُونَ ⑫ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
رَبِّنِي وَرَبِّكُمْ فَأَعْبُدُهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ⑬
فَانْخَلَقَ الْأَزْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْحِجَّةِ ⑭

معاني الكلمات والجمل

- يَصْدُونَ : يضجّون ويصبحون فرحاً وضحكاً ،
رَاعِمِينَ أَنَّهُمْ أَفْحَمُوا رَسُولَ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
- أَمْ هُوَ : يقصدون عيسى عليه السلام .
- مَا ذَكَرُوكُمْ لَكُمْ إِلَّا جَدَلًا : ما ذكروالله هذا المثل إلا على
سَبِيلِ الْجَدْلِ وَالْمُغَالَةِ .
- بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِّصُونَ : بل هم قوم خصّصون
الْخُصُومَةُ، وَالْتَّجَاجُ بِالْبَاطِلِ،
وَالْغَلْبَةُ بِالْمُغَالَةِ .
- إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ : ما (عيسى) إلا عبد الله ، أنعم عليه
بِالنَّبِيُّوْنَ، وَلَيْسَ ابْنًا لِلَّهِ كَمَا زَعَمَ النَّصَارَى .
- وَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَثَلًا لِنَبِيٍّ إِسْرَائِيلَ : جعلنا منكم مثلاً لنبيٍّ
إِسْرَائِيلَ ، كالمثل السائر في
غَرَابَتِهِ؛ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى قُدرَةِ اللَّهِ تَعَالَى .
- جَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ وَيَعْمَرُونَ .

وَإِنْ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةٍ : إن عيسى - عليه السلام - علامه
 واصحة على قرب الساعة.
 فَلَا تَكُنُ فِي قِيَامِهَا وَوَقْعُهَا .
 وَأَتَيْعُونَ : اتبعوا هداي وشرعى .
هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ : هذا دين قيم ، وطريق موصل
 للحق .
وَلَا يُصَدِّكُ الشَّيْطَانُ : لا يصرفكم الشيطان ، ويمنعكم
 بواسوسه عن اتباع الحق .
إِنَّمَا لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ : فإنه لكم عدو بين العداوة حيث الزم
 نفسه بإغواء بني آدم إلا
 المخلصين .
بِالْبَيِّنَاتِ
بِالْحَكْمَةِ
وَلَا يَبْغِي لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي : لأوضح لكم ما تختلفون فيه من
 تختلفون فيه
 أحكام التوراة ، وأمور الدين .
هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ : هذا الذي جثكم به من عبادة الله
 وحده ، والعمل بشرائعه - طريق
 مستقيم لا يصل سالكه .
فَأَخْتَلَفَ الْأَجْرَابُ مِنْ : اختلفت فرق النصارى
بِيَرْبِّيهِمْ
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا : فهلاك للذين كفروا وأشركوا .

الشرح

١ - التوأة في الجدل وبراءة بالباطل :

كانت قريش تدافع عن عبادتها للأصنام، ويُدعى بعضهم أنهم اتخذوها تماثيل للملائكة بنات الله، ويجادلون بالباطل عن عقليتهم، ويلجأون في ذلك إلى سُيُّل التضليل والمحاجة. فلما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قول الله تعالى : «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ» عَرَفُوا أنَّ كُلَّ عابدٍ وما يعبدُ من دون الله في النار، سارع بعضهم إلى تضليل العامة، وهو (عبد الله بن الزبير) قبل أن يشرح الله صدره للإسلام ، وقال : يا محمد ، أهذا أنا وألهتنا ، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هولكم ولأهلكم ولجميع الأمم . فقال : قد خصمتُك وربُّ الكعبة [أي غلبتك في الجدل]. أليست النصارى يعبدون المسيح ، والميهود يعبدون عَزِيزاً ، وينوِّ مُلِيئاً يعبدون الملائكة؟!! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وألهتنا معهم . فسكت عليه الصلاة والسلام انتظاراً للوحى ، فظنوا أنه ألم الحجة ، فضحك المشركون ، وضجوا وصاحوا فرحاً وبتهاجرا بهذا الفوز المتوهם ، فأنزل الله تعالى : «وَلَمَّا ضُرِبَ آبُنَّ مَرِيمَ مثلاً إِذَا قَوْمَكَ مَنْ يَصْدُونَ^(١)، وَنَزَلَ أَيْضاً قَوْلَهُ تَعَالَى : «إِنَّ الَّذِينَ سَبَّتُ لَمْ مِنَ الْحَسَنَى أُنْكِتُكُمْ بَعْدَ مَعْدُونَ^(٢)، فالمسيح وعَزِيزُ الملائكة سبق لهم الحسنى من الله تعالى ، ولن يكونوا

(١) سورة الزمر / الآية ٦٧

(٢) سورة الأسرار / الآية ١٠١

حصب جهنم. أما اليهود الذين عبدوا عزيزاً، والنصارى الذين عبدوا المسيح، والمشركون الذين عبدوا الأصنام والملائكة فهم وقود النار.

وهذه صورة توضح طبيعة مشركي مكة، وأسلوبهم في الجدل، مع فهمهم وإدراكم لأسلوب القرآن الكريم حين قال: «إنكم وما تعبدون». ولم يقل: ومنْ تعبدون، لأنه يريد الأصنام ونحوها مما لا يعقل. ولكنهم قوم معاندون مكابرون، أغرتهم المغalaة، وأعمامهم الضلال عن طلب الحق والحقيقة، فبرزت طبائع العناد والأثرة في صورة منكرة، ووضاحت سفاهتهم في الشريرة والجدل مع التوائهم في المناقشة والمراء.

والإسلام حذر أتباعه من الجدل العقيم الذي لا يستهدف إلا المناوشة في الحديث، والمراء في المناقشة، لاطلاعاً للوصول إلى الحق، وإنما رغبة في إشعاع شهوة الانتصار، والغلبة بآية وسيلة. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن أبغض الرجال إلى الله الآلة الخصم»^(١). وقال - صلى الله عليه وسلم -: «ما ضلّ قوم بعد هُدُي كانوا عليه إلأ أتوا الجدل»^(٢).

ولقد حدث أن واحداً من هؤلاء الأغوار وفد على النبي -

(١) رواه البخاري

(٢) رواه الترمذى

صلى الله عليه وسلم .. وعليه شارة حسنة، فجعل لا يتكلّم النبي بكلام إلا كلفه نفسه أن يأتي بكلام يعلو كلام النبي ، - صلى الله عليه وسلم .. ! فلما اتّصرف، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : «إن هذا وأخْرَاه، يُلُّون أَسْتَهْم للناس لِي الْبَقِيرُ بِلسانِه الْمَرْعَى، كَذَلِكَ يَلُوِي اللَّهُ تَعَالَى أَسْتَهْمَ وَوَجْهَهُمْ فِي النَّارِ»^(١).

٢ - القرآن الكريم يوضح حقيقة عيسى عليه السلام :

عِلِّمْنَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ قَرِيبٌ فِي اتِّخاذهَا الجَدْلَ وَالْمَرَاء وَسِيلَةً لِلتَّفْلِبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْتَّشْوِيشِ عَلَى دُعَوَتِهِ، كَمَا فَعَلَ (ابن الرَّبَّعِي) وَهَاهُمْ أَوْلَاءِ يَغَالِطُونَ وَيَكَابِرُونَ، «وَقَالُوا: أَلَهُنَا خَيْرٌ مَّا هُوَ؟ هَلْ أَلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ عِيسَى؟ فَإِنْ كَانَ عِيسَى وَمَنْ عَبَدُوهُ فِي النَّارِ، فَقَدْ رَضِيَنَا أَنْ نَكُونَ وَالْهُنَّ مَعْهُمْ! وَمَا ضَرَبُوا الْمَثَلَ بِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِأَلَهُمْ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْتَّحْاجَجِ بِالْبَاطِلِ، وَالْجَدْلُ وَالْمَكَابِرَةُ، وَلَيْسْ لِتَطْلُبِ الْحَقِّ، «إِلَّا هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ» شَدِيدُو الْخُصُومَةِ، كَثِيرُو الْجَدْلِ؛ لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا بَعْدَ الْمَثَلِ الَّذِي غَالَطُوا بِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَّتْ لَهُمْ مَا حَسِنُوا أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ». وَلَا شَكَّ أَنَّ ابْنَ الرَّبَّاعِيَّ وَأَمْثَالَهُ مِنَ الْمُجَادِلِينَ مَا كَانَ لِيَخْفِي عَلَيْهِمْ أَنْ عِيسَى - عَلَيْهِ

(١) رواه أبو داود.

السلام - لا يدخل في قوله تعالى : «حَضْبُ جَهَنَّمْ» وهم يدركون تماماً أنهم المقصودون هم وأصحابهم التي يعبدونها من دون الله . ولكنهم يُذَلِّلُونَ بذلك على أنهم فُعْلًا قوم خصمون .

وهم يدركون كذلك أن ضرب المثل بعبادة النصارى ليعيسى - عليه السلام - لا يصلح تبريراً للكفر به ، لأن عمل النصارى هذا عصيان لله ، ويُعَذَّبُ عن التوحيد . ومن هنا . . بين الله - سبحانه وتعالى - حقيقة عيسى وملائكته ، وأنه عبد من عباد الله الصالحين ، أتعم الله عليه بالتبوه ، وجعل ولادته من غير أن يكون له أب آية وعبرة لبني إسرائيل ، ودليلًا على قدرة الله تعالى التي لا يُعْجِزُها شيء . كما أن الله شرفه بالرسالة ، فهو ليس إليها ، ولا ابن إلى كما يزعم النصارى . ويعيسى - عليه السلام - رفض هذه الفبرقة ، واستنكر هذا الزعم من أتباعه ، وسيأله ربه على ملاً الأشهاد يوم القيمة ليثراً مما نسب إليه الضالون «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْبُسِي أَبْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أَخْدُونِي وَأَمِّي إِلَّا نَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيَسَ لِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتَ قُلْتُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَمُ الْغَيْبِ (١) مَا فُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَنَّنِي بِهِ إِنْ أَعْبُدُوَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكَ ... (٢) .

والقرآن الكريم يحكي على لسان عيسى قوله: «قَالَ إِلَيْ
عَبْدَ اللَّهِ أَتَنِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ② وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا إِنْ مَا كُنْتُ
وَأَوْصَتِي بِالصَّلَاةِ وَأَرْكَزَهُ مَادْمُتْ حَيًّا ③ وَرَأَيْتُ بِوَلَدِنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَارًا
شَيْقَانًا ④ وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَوْمِ الْمَرْدُثِ وَيَوْمِ الْمَوْتِ وَيَوْمِ أُبْعَثُ حَيًّا ⑤»^(١)

٣ - تهديد كفار قريش وتخويفهم:

ثم هدد الله - سبحانه وتعالى - كُفَّارَ قَرِيشٍ بِأَنَّهُ لَوْ شاءَتْ
إِرَادَتُهُ وَقُدرَتُهُ لَأَهْلِكُوهُمْ، وَجَعَلَ بَدَلًا مِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً
يَخْلُفُونَهُمْ، أَوْ لَحُولٍ بَعْضِ النَّاسِ مَلَائِكَةً، فَالْمَشِيشَةُ لَهُ
وَحْدَهُ، وَالْمَلَائِكَةُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، يَأْتِمُونَ بِأَمْرِهِ، كَمَا أَنَّ
عِيسَى عَبْدُ مِنْ عَبَادِهِ، فَلَوْ شَاءَ لَأَهْبَطَ الْمَلَائِكَةَ مِنَ السَّمَاءِ
لِعِمَارَةِ الْأَرْضِ، وَالاستِقرارِ فِيهَا، وَعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى،
فَوَجْهُوكُمْ فِي السَّمَاءِ لَا يَعْنِي أَنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَسْبِيحًا حَتَّى
يُعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ يُوَضِّفُوا بِأَنْهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ. فَاللَّهُ تَعَالَى
لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَلَا صَلَةً لَأَحَدٍ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ سَبَّاحَهُ إِلَّا
صَلَةُ الْخَالِقِ بِالْمُخْلُوقِ، وَالرَّازِقِ بِالْمَرْزُوقِ، وَالْعَابِدِ
بِالْمَعْبُودِ.

ثم خوّفهم الله بعد ذلك بقرب قيام الساعة، وهذا شيء خطير؛ لأن فيه انتهاء العالم، وعليهم أن يتيقّنوا أن عيسى -

^(١) سورة صریم / الآيات ٣٣ - ٣١.

عليه السلام - علامه قرب قيامها، فليس بعده من رسول إلا خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا يش肯 أحد في مجئها أو وقوعها، ولا يجادل فيها، فإنها آتية لا محالة في يوم لا زب فيه، وهي من الأمور التي اخض الله بعلمها نفسه، وسيكون من علاماتها نزول (عيسى) إلى الأرض قبيل قيامها. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «والذى نفسي بيده، ليوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مفisteأ، فيكير الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقيض المال حتى لا يقبله أحد»^(١).

وكانوا يشكون في مجيء القيمة، ويكتذبون بها، فدعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتبعوا شرعة وهداء؛ لأن ما يدعوهم إليه طريق مستقيم متصل إلى النجاة، وحذرهم أن يصرفهم الشيطان بوسوسته وغوايته عن اتباع الحق والتوحيد، ويزين لهم انحرافهم وشرودهم عن الصراط المستقيم، فالشيطان عدو ظاهر العداوة، والعاقل لا يأمن عدوه، بل يأخذ الحذر منه دائمًا، فلقد أخرج هذا اللعين أيانا آدم من الجنة، ونزع عنه لباس النور، وألزم نفسه بإغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين.

(١) رواه الشبيطان

٤ - عيسى - عليه السلام - رسول إلى قومه :
شَرِعَ سُبْحَانَهُ - فِي قَصَّةِ عِيسَى وَقَوْمِهِ، وَحَقِيقَةِ مَا جَاءَ
بِهِ؛ لِيُبَيِّنَ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَتَابَعَهُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ
لِلْمُتَقِينَ، فَعَلِيهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَشْتَوِّا عَلَى الْحَقْنِ الْمُبِينِ .

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِبَنِي إِسْرَائِيلَ .. قَالَ
لَهُمْ .. قَدْ جَئْتُكُم بِالْأَيَّاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ،
الَّتِي وَقَعَتْ مِنْهُ بِإِذْنِ اللَّهِ: كِلَاجِهِ الْمُوتَىٰ، وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ
وَالْأَبْرَصِ، وَخَلْقِ الْعَلِيِّ مِنَ الطَّيْنِ، وَإِنْزَالِ الْمَائِدَةِ مِنَ
السَّمَاءِ، وَالْإِخْبَارِ بِعَضِ الْأَمْرُورِ الْغَيْبِيَّةِ، وَكُلُّهَا خَوَارِقُ
أَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى يَدِيهِ . كَمَا جَاءَهُمْ بِالشَّرِائِعَةِ الْوَاضِحةِ، وَمَا يَأْخُذُ
بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَنَّهُ جَاءَهُمْ بِالْحِكْمَةِ
مِنَ اللَّهِ «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوْتَ خَيْرًا كَثِيرًا»^(١)، فَهُوَ يَعْرِفُهُمْ
الْحَقِيقَةَ بِالْحِكْمَةِ الَّتِي تَكْمِنُ فِي التَّشْرِيعِ الإِلَهِيِّ الَّذِي تَأَوَّلُهُ
الْإِنْجِيلُ، وَيُوضَعُ لَهُمْ جَوْهَرُ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، مِنْ أَمْرَ الدِّينِ،
وَأَحْكَامِ النُّورَةِ، بَعْدَ أَنْ حَرَفُوهَا تَبَعًا لِشَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَاهِهِمْ،
وَانْقَسَمُوا مِنْ جَرَأِهِ ذَلِكَ فِرَقًا وَشَيْعَةً، فَدَعَاهُمْ عِيسَى - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - إِلَى تَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، فَهُوَ الْمُسْتَحْقُ
لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، «هُوَ رَبُّنَا وَرَبِّكُمْ»^(٢)؛ وَكُلُّنَا عَبْدٌ لَهُ، فَقْرَأَ إِلَيْهِ،

وهذا الذي جنكم به طريق واضح مستقيم ، فاتبعوني ليصلوا إلى الخير والفلاح .

٥ - اختلاف الذين جازوا من بعد عيسى :

بعد البيان والإرشاد الذي قام به عيسى - عليه السلام - لقومه ، كان عليهم أن يكونوا على جادة الحق سواء ، ولكن من جاء بعده فرقهم الأهواء ، وجعلتهم فرقاً متميزة ، وأحزاباً مختلفة ، وطوائف متناحرة ، واختلف النصارى في شخصية المسيح شيئاً ، منهم من يقول : إنه ابن الله ، ومنهم من يقول : إنه ثالث ثلاثة أخذهم الله ، ومنهم من يقول : إنه الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وضاعت كلمة التوحيد التي جاءهم بها عيسى - عليه السلام - بعد أن شوّهوا عقيدته ، وانحرروا عن طريقه المستقيم - ولا زالوا إلى الآن منحرفين - فالويل والعذاب الشديد لهم ولأمثالهم يوم القيمة : لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك ، وكفروا بما قالوه في عيسى ، وما نسجوا حوله من أساطير وخرافات .

* * *

(٧)

من الآية ٦٦ إلى الآية ٧٨ من سورة الزخرف

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَسْعَادَ أَنْ تَأْتِيهِمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْرُونَ ⑥ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَى الْمُنْفَيِنَ ⑦ يَنْعِدُونَ إِلَى حَوْفٍ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزُنُونَ ⑧ الَّذِينَ عَامَنُوا إِيمَانًا وَكَانُوا
مُسْلِمِينَ ⑨ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنَّمَا وَارْجَحُكُمْ لَحْيَرُونَ ⑩
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَاحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْرَابٍ وَفِيهَا
مَائِسَيْهِ الْأَنْفُسُ وَتَذَلَّلُ الْأَعْيُنُ ⑪ وَلَنْتَمْ فِيهَا حَلَدُونَ ⑫
وَنِلَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ ⑬
لَكُمْ فِيهَا فَنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ⑭ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ
فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ حَلَدُونَ ⑮ لَا يَقْتَرُونَ وَهُمْ فِيهِ
مُلْسُونَ ⑯ وَمَا ظَلَّتْهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ⑰
وَنَادَوْا يَمْلَكَ لِيَقْضِي عَلَيْهِ رَبَّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مُنْكَرُونَ ⑱
لَقَدْ حِنْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَنْتُمْ كُلُّكُمْ بِالْحَقِّ كَرِهُونَ ⑲

معاني الكلمات والجمل

- هُل يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَسْأَعَةً : ما يتضرر كفار مكة إلا قيام الساعة.
- تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً : تأتيمهم فجأة دون توقيع.
- الْأَخْلَاءُ : الأحياء في غير ذات الله.
- يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يوم القيمة.
- إِلَّا الْمُتَقِينَ : إلمن كانت صداقتهم ومحبتهم لله.
- يَعَايَنَا : بالقرآن الكريم.
- وَكَانُوا مُتَّلِّمِينَ : استسلموا الحكم الله وأوامره، وانقادوا لطاعته.
- أَنْتُمْ وَازْوَاجُكُمْ : أنتم ونساؤكم المؤمنات.
- تُخَبِّرُونَ : تُخَبِّرون وتسرون سرورا ظاهر الآخر في ملامح وجوههم.
- يَصَاحِفُونَ مِنْ ذَهَبٍ : أواني الأكل من الذهب.
- وَأَكْوَابٍ : جمع كوب، وهو إناء لا عُرُوة له؛ ليشرب منه الشارب من حيث شاء.
- [زيادة في المتعة].
- مَا تَسْتَهِنُ بِهِ الْأَنْفُسُ : ما تطلب النفس وتهواه.
- وَتَذَلَّلُ الْأَعْيُنُ : وما تُسرُّ برؤيته الأعين من المشاهد الجميلة.
- وَأَنْتُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ : وأنتم في الجنة باقون دائمون.

أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ
 إِنَّ الْمُجْرِمِينَ
 الصَّالِحةَ فِي الدِّينِ.
 لَا يُغَفَّلُ عَنْهُمْ
 وَهُمْ فِيهِ مُلْسُونٌ
 وَنَادَوْا يَدْنَالِكُ
 جَهَنَّمْ.
 لِيَقْبِضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ
 سَلْ رَبِّكَ أَنْ يُمْيِتَا؛ لِتُسْتَرِيعَ مِنْ
 العَذَابِ.
 إِنَّكُمْ مُنْكَرُونَ
 لَقَدْ جَنَّتُمْ بِالْحَقِّ
 أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مُحَمَّداً - صَلَى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْحَقِّ.

الشرح

١ - غفلة الظالمين عن قيام الساعة بغنة:

اختللت فرق النصارى في شأن (عيسى) عليه السلام،
واحتاج كفار قريش على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
بما فعلته هذه الأُفْرِقَ من بعده، فكانوا جميعاً ممن ظلموا

أنفسهم بالإصرار على الشرك والكفر عناداً ومكابرة .
فما الذي يتظره هؤلاء المشركون الفضالون ؟ هل يرتكبون إلا
أن تباغتهم القيامة فجأة على غير توقعِ منهم ؟ وهم مشغولون
بأمور الدنيا ، غافلون عن الطامة الكبرى التي تأتيهم بغتة
فَيَهُمْ قَلَّا يُسْتَطِعُونَ رَدُّهَا ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ . وَحِينَذِ
يندمون حيث لا ينفعهم الندم !! ويخررون كل شيء حتى
أنفسهم وأهليهم ، وذلك هو الخسران المبين !!

٢ - الأخلاء يومئذٍ صنفان :

فالاصدقاء والأحباب الذين تالفوا على المعصية ،
وتجمعوا على غير محبة الله ، لا ينفع بعضهم بعضاً ، بل
يُضيّخون أعداء؛ لأن الشر هو الذي وحد بينهم وهذا الشر
والضلال هو اليوم سبب بلالتهم وعداوتهم ، فينقلبون إلى
خصوم يتلاؤمون ، ويتركون من هذه الصحبة التي ساقتهم
إلى الجحيم .

أما المتقون الذين كانت صداقتهم ومحبتهم لله تعالى ،
فإن علاقتهم باقية ، وموتها دائمة وخلطهم صادقة نافعة راجحة
في الدنيا والآخرة ، فقد كانوا يجتمعون على الخير والهُنْدِي ،
ويتبادلون المحبة في الله ، فبارك الله لهم هذه الصحبة ،
ومنحها البقاء؛ لأنها كانت حُبًّا في ذاته الباقي ، وستزداد قوّة
يوم القيامة؛ لأنها ستكون بينهم من أسباب الخير والثواب ،

وسِيَّلًا إِلَى النِّجَاهِ، وَالْخَلُودِ فِي دَارِ النِّعَمِ، فَقَدْ كَانُوا
يَتَوَاصُّونَ بِالْحَقِّ، وَيَتَوَاصُّونَ بِالصَّبْرِ.

٣ - ثواب المُتَّقِينَ الْمُتَّهَابِينَ فِي اللَّهِ:

هُؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا
عَلَى الصِّفَاءِ وَالنَّقَاءِ وَالْحُبِّ وَالْأَخْرَوَةِ فِي اللَّهِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى
الْإِيمَانِ وَالْتَّقْوَىٰ - يُشَرِّفُهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ، وَيُطَيِّبُ قُلُوبَهُمْ ، وَيُلَطِّفُ
بَهُمْ فِي نَدَاءِ عُلُوِّيٍّ كَرِيمٍ: يَا عَبَادِي لَا خُوفٌ عَلَيْكُمْ ، بَلْ
الْآمَانُ لَكُمْ ، وَالرَّحْمَةُ بِكُمْ ، وَالرَّضَا عَنْكُمْ ، .. فِي هَذَا الْيَوْمِ
الْعَصِيبِ، فَأَنْتُمْ فِي ضِيَافَةِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آمِنُونَ، وَفِي
سَاحَةِ أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ مُظْمِنُونَ، وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَحْزَنُونَ عَلَىِّ ما
فَاتَّكُمْ فِي الدُّنْيَا، مِنْ ضَيْبَاعِ مَرْغُوبٍ، وَفَوَاتِ مَطْلُوبٍ،
وَحِرْمَانٍ مِّنْ شَيْءٍ مَحْبُوبٍ. فَلَا يَبْقَى فِي نَفْسِهِمْ بَعْدَ هَذَا
ظِلٌّ لِلْخُوفِ أَوِ الْحُزْنِ .

ثُمَّ يُوضَّحُ اللَّهُ تَعَالَىٰ صَفَةُ هُؤُلَاءِ الْعِبَادِ الَّذِينَ سَيَّنُوا لَوْنَهُنَّ هَذِهِ
الْمُنْزَلَةِ .. فَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَصَدَقُوا بِالْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ، وَصَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَكَانُوا مُسْلِمِينَ حَقًّا،
وَمُسْلِمِينَ لِأَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَحْكَامِهِ حَدِيدًّا. فَاسْتَحْقَوْا هَذَا
الْتَّكْرِيمَ، وَنَالُوا هَذَا الْجَزَاءَ الْعَظِيمَ، وَاسْتَمْعُوا إِلَىِّ هَذَا النَّدَاءِ
الْحَيِيبِ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: « ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَازْوَاجُكُمْ
مُّجَاهِرُوْنَ »^(١)؛ ادْخُلُوهَا وَمَعَكُمْ نَسَاؤُكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ، وَأَقِمُوا فِي

(١) سورة الزخرف / الآية ٧٠ -

نعيدها مسرورين أعظم السرور، محبورين يملا الفرج
جوانحكم، ويظهر الحبور على وجوهكم، وتبعد آثاره في
محياكم، يشراً ورضاً وسعادة.

هبتا لكم أيها المتقوون بما لكم في الجنة من ألوان
النعم، ومن أطعمة وأشربة، يُطاف بها عليكم، في أوان
وأقداح من الذهب، فكيف بما فيها من طعام شهيٌّ ،
وشراب هنيٌّ؟ إن في الجنة ما تشتهي أنفسُ نزلائهما من
فنون المتعة واللذائذ والمشتفيات، وفيها ما تلذ الأغصان من
مباهج المشاهدات، والمناظر الجميلة الخلابة، وأي جمالٌ
أعظم وأكمل من الذي يصفه الرحمن بأنه متعة للنفس، وفرة
للعيون؟! وأي جمال أحل من رؤية صاحب الجمال
والكمال والجلال، والنظر إلى وجهه الكريم .. «وجه يومئذ
ناصرة» ^(١) إلى ربها ناظرة ^(٢)، وكما ورد في الخبر «أسالك لذة
النظر، إلى وجهك».

ثم يمن الله على عباده بتمام النعمة والإكرام، ويشرفهم
مخاطباً إياهم بما يزيدهم رضاً وسعادة وأمنا: « وَأَنْتُمْ فِيهَا
خَلِدُونَ ^(٣) وَرِبِّكُمُ الْجَنَّةُ الَّتِي أُرِشَّمُوهَا إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٤) لَكُمْ
فِيهَا فَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ^(٥) » ^(٦)؛ فهم باقون في الجنة أبداً، لا
يخافون موتاً ولا قيقاً، ولا انقطاعاً للنعم ولا منعاً، فقد
ضمن الله لهم بقاءها وخلودها، وأعطاهما لهم ميراثاً، لا

(١) سورة الطهارة / الآيات ٧١ - ٧٢ . (٢) سورة الزمر / الآيات ٤٢ - ٤٣ .

يتنازعهم فيه منازع كما يملك الوراثة ميراثه ، وكان ابن عباس يقول: «خلق الله لكل نفس جنة وناراً، فالكافر يرث نار المسلمين، والمسلم يرث جنة الكافر».

فالجنة قد حوت كل أنواع النعيم، وهو نعيم عظيم لا يمكن وصفه، كما ورد في وصفها «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ومن هنا . . . حُمِّلت إلى الطعام والشراب الفاكهة الكثيرة الأنواع والأصناف، وال مختلفة الألوان والطعمون، يأكلونها تلذذاً وتفكهها، ويتناولون ما يشاءون منها، فلا هي مقطوعة ولا ممنوعة، وببقى الشجر دائمًا سخيًا معطاء، لا تقطع منها ثمرة إلا ظهر مكانها غيرها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٤ - ما أعد الله للمجرمين الكافرين:

وبعد أن بين الله تعالى نعيم أهل الجنة، أتبعه بشقاء أهل النار؛ ليُرَبِّ في حال السعادة، وينفر من حال الأشقياء. فكما أعد الله للمؤمنين المتقين نعيمًا مقىماً، فقد أعد للكافرين المجرمين في حق الله وفي حق أنفسهم عذاباً أليماً في نار جهنم، لا ينقطع عنهم أبداً، ما كثيرون فيه دائمًا لا يخفُّ عنهم لحظة من الزمن، «لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»^(١). وهم صامتون حُمِّلوا القتوط، وياشون من النجاة، فلا رجاء لهم في رحمة ولاأمل لهم في خلاص. وما ظلمهم الله بهذا العذاب، وهذا المصير المظلم؛ لأنه بين لهم طريق الخير من

(١) سورة الزمر / الآية ٧٥

الشر، والرُّشْدُ من الغَيْ، فكانتوا هم الظالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ
بِالانغماصِ فِي الْآثَامِ، وَالإِصرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كُلُّمَةُ العَذَابِ.

لَكُنْهُم بَعْدَ اِنْقِطَاعِ أَمْلَهُمْ فِي الْخَلاصِ مِنَ الْعَذَابِ،
وَصَمْبِيَّهُمُ الْيَائِسُ الْحَزِينُ - أَطْلَقُوهُ صَبِيَّاتُ الْاسْتِغَاةِ،
وَصَرْخَاتُ الْفَسِيقِ: يَا حَازِنَ النَّارِ.. يَا مَالِكُ.. ادعُ اللَّهَ أَنْ
يَقْضِيَ عَلَيْنَا بِالْمَوْتِ؛ لِنُتَرِّجَعَ مِنَ الْعَذَابِ.

تَوَسُّلُ الْمُجْرِمِينَ بِمَالِكِ طَلَباً لِلْمَوْتِ لَا لِلنَّجَاهِ، فَالْعَذَابُ
لَا يُحْتَمِلُ: «يَعْلَمُكُلُّ بِعَصْمٍ عَلَيْنَا رَبُّكُ»، وَبِأَيْمَانِهِ مُحْيَيَا
لِأَمْلَهُمْ حَتَّى فِي الْمَوْتِ مَؤْكِدًا بِقَاءُهُمْ، كَذَلِكَ لَا يُقْضَى
عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوْهُ وَلَا يُخْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهِ: «فَقَالَ إِنَّكُمْ مُنْكَرُونَ»^(٧)
فِي جَهَنَّمَ، فَلَا خَلاصٌ وَلَا رَجَاءٌ !!

ثُمَّ يَخَاطِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مُتَعَجِّلًا وَمُوْبِخًا، وَمِبَيْنِ لَهُمْ سَبِيلٌ مَا
هُمْ فِيهِ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ: «لَقَدْ جَنَّتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَعْذَرُكُمْ
بِقَعْدَتِكُلِّهُونَ»^(٨). فَلَقَدْ بَيَّنَ لَكُمُ الْحَقُّ عَلَى لِسانِ رَسُولِنَا
مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصَّادِقُ الْأَمِينُ الَّذِي مَا
جَرِيتُمْ عَلَيْهِ كَذِيَّا. وَلَكِنَّكُمْ كَرِهْتُمُ الْحَقَّ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ
الْهُدَى، اسْتِجَابَةً لِأَهْوَانِكُمْ وَشَهْوَاتِكُمْ، فَكُنْتُمْ مِنَ الْحَقِّ
نَافِرِينَ، وَلَدِينَ اللَّهَ كَارِهِينَ. فَلَا تَلُومُوا إِلَّا أَنْفُسَكُمْ، وَلَا
تَتَنَظَّرُوا أَنْ تُجَازِوا عَلَى مَا قَدَّمْتُمْ مِنْ شَرًّا إِلَّا بِمَثَلِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ
مِنْ جَزَاءٍ !!

(٨)
من الآية ٧٩ إلى آخر سورة الزخرف

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَلَمْ يَمْبِرُوهُنَّ ⑦٩١ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْعِ
يَرْهُمْ وَجْهُنُّمُ بَلَى وَرَسُولُنَا لِدِينِ يَكْتُبُونَ ⑦٩٢ قُلْ
إِنْ كَانَ لِرَحْنِي وَلَدٌ فَإِنَّا أَوْلُ الْعَذَابِينَ ⑦٩٣ سُبْحَنَ
رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصْفُونَ ⑦٩٤
قَدْرَهُمْ يَخْوُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلْكُفُوا بِوَهْمِ الَّذِي
يُوعَدُونَ ⑦٩٥ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ⑦٩٦ وَبَارَكَ اللَّهُ لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بِنَاهَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑦٩٧ وَلَا يَعْلَمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْقَنْعَةُ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ⑦٩٨ وَلَئِنْ
سَأَلْتُمُ مِنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولُنَّ أَنَّهُ فَقَنْ يُؤْفَكُونَ ⑦٩٩
وَقَبْلِهِمْ يَزَرَبُ إِنَّ هَنْزَلًا وَقَرْمٌ لَا يُرْبَمُونَ ⑧٠ فَلَا سَفَحَ
عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ⑧١

معاني الكلمات والجمل

أَمْ أَرْمَوْا أَمْرًا	: بل أَحْكَمُوا كِيدًا الرَّسُولُ اللَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاعْتَزَمُوهُ.
فَإِنَّا مُحْكَمُونَ	: فَإِنَّا مُحْكَمُونَ أَمْرَنَا فِي حِمَايَتِهِ وَنَصْرَتِهِ، وَكَيْدُنَا فِي تَدْمِيرِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ.
أَمْ يَخْبُونَ	: أَمْ يَظْنُونَ؟
بِرَّهُمْ	: مَا يُضْمِرُونَهُ فِي أَنفُسِهِمْ، أَوْ يَحْدُثُونَ بِهِ غَيْرَهُمْ فِي خَفَاءِ وَغَيْوَنِهِمْ.
بَنِّ	: نَحْنُ نَسْمَعُ وَنَعْلَمُ حَدِيثَ أَنفُسِهِمْ، وَهُمْ مِنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ.
وَرَسُلُنَا لَدُنْهُمْ يَكْتُبُونَ	: وَرَسُلُنَا لَدُنْهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ.
سُبْحَنَ	: تَرْزُّهُ اللَّهُ وَتَعَالَى، عَنْ صَفَاتِ الْمَحْلُوقِينَ.
عَمَّا يَصْفُونَ	: عَمَّا يَصْفُهُ الْكَافِرُونَ مِنْ نِسْبَةِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ.
فَذَرُوهُمْ	: اتْرَكُهُمْ، وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ.

يَحْوِضُوا وَيَلْتَعِبُوا
يَدْخُلُوا مَدَارِخَ الْبَاطِلِ ، وَيَفْعَلُوا
فِي دُنْيَا هُمْ فَعْلَ الْلَّاعِبِ الْغَافِلِ .
حَتَّى يُلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي : حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَ الرَّهِيبِ الَّذِي
يُوعَدُونَ
وَعِنْهُمُ الْعَذَابُ فِيهِ ، وَهُوَ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ .

وَهُوَ أَلَّا يَنْجُونَ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَهُوَ إِلَهٌ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ ، وَإِلَهٌ مَنْ فِي الْأَرْضِ .

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ
الْبَالِعُ الْحِكْمَةِ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِ خَلْقِهِ ،
الْكَثِيرُ الْعِلْمُ بِمَصَالِحِهِمْ .

وَبَشَارَكَ أَلَّا يَلْمُزُ
تَعَالَى وَتَمْجَدُ ، وَتَكَاثُرُ خَيْرُهُ
وَإِحْسَانُهُ وَبِرُّهُ وَبِرْكَاتِهِ .

وَعِنْهُمْ عِلْمُ الْأَسْأَعَةِ
وَعِنْهُمْ وَحْدَهُ الْعِلْمُ بِوقْتِ قِيَامِ
الْقِيَامَةِ .

إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِيقَةِ
إِلَّا مَنْ نَطَقَ بِكُلِّمَةِ التَّوْحِيدِ ، وَآمَنَ
عَنْ عِلْمٍ وَبِصِيرَةٍ .

فَأَنَّ يُؤْفَكُونَ
كِيفَ تَصْرِفُهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ عِبَادَةِ
الرَّحْمَنِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْنَانِ ؟

وَقِيلَهُ
وَعِنْهُمْ تَعَالَى عِلْمُ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شَاكِيًّا عَدَمَ
إِيمَانِ الْمُشْرِكِينَ .

إِنَّ هُنَّ لَا
فَأَنْفَعُهُمْ

: الذين أرسلني إليهم .
فَأَعْرَضُ عَنْهُمْ - كما يُغْرِبُ العاقِلُ
عَنِ الْجَاهِلِ - وَتَابَعَ دُعَوَتِكَ إِلَى
اللهِ .

وَقُلْ سَلَامٌ

: سلام ترک، وتبعاً عن الجدال؛ لا
سلام تحية أو مسالمة .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

: قسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم
وأجرائمهم .

الشرح

١ - الكارهون للحق يمكررون ب Sachsage :

لقد جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - قومه بالإسلام دين الحق ، ولكن طبائعهم كرهته ولم تقبله ، ولم تقبل عليه ، وانقادت للباطل ؛ لأنها يوافق أهواءهم ، وأصرروا على بغضهم وكراهيتهم ، ولدوا إلى الكيد والمكر ، وبيتوا الشر فيما بينهم لنبي الإسلام ، ودبوا الأمر في دار ندوتهم ، وأجمعوا على قتلها ، - صلى الله عليه وسلم - واستقرروا على ما أشار به (أبو جهل) أن يختار من كل قبيلة شاب قوي : ليشتراكوا جميعاً في قتلها ، فيتفرق دمه في القبائل ، ولا يقوى (بنو هاشم) على حرب الجميع ، فتضيق المطالبة بدمه . فأظهر الله مكرهم ، وبين أنه سينقلب عليهم .

لقد دفعهم كفرهم إلى الكيد في الخفاء، وظنوا أنهم
أنقوا التخطيط، وأحكموا التدبير، وأبرموا الحيلة في ردِّ
الحق، ولكن الله تعالى يهذدهم ويذكّرهم بجبروتة وقوته،
وأنهم مهما يتقنوا أساليب المكر، وجبل الكيد، فإن الله من
ورائهم محيط. فأتّرموا أمركم، وأجمعوا كيدكم، فإنما
متّرون، وأحکمتم أمرنا في حفظه ونصرته وحمايته، وقضيتم
ياحباط مؤامرتهم، وقدرنا إلّا كيدهم وتدميرهم «أَمْ يُرِيدُونَ كُلَّا
فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ» (١١).

بل يظن هؤلاء الذين يجتمعون ويتآمرون بمحمد أنا
لا نسمع حديث أنفسهم، وما يجول بخاطرهم، وما يكتمنه
من سر، ولا نعلم ما يتّهامون به في خلواتهم وتناجيهم مما
لا يطلعون عليه غيرهم. كلاً.. بل نسمعه ونحيط به علماً،
ونتكلّف الملائكة الحفظة القيام بتسجيل كُلَّ ما يصدُّ عنهم،
وكتابة أقوالهم وأفعالهم، ليواجهوا بذلك يوم القيمة.

٢ - أمر الله نبيه بـالزام المشركين الحجة:

ثم أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يُبطل مزاعم
المشركين الذين كانوا يبعدون الملائكة معتقدين بـنُونهم لله،
والذين يبعدون (عيسى) متصررين أنه ابن الله، وذلك .. بيان
يكشف فساد اعتقادهم، ويُقيم عليهم الحجّة، التي تُبطل
افتراضاتهم.

(١١) سورة الطور / الآية ١١

قل لهم يا محمد: إِنَّمَا نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَغْرَفُ النَّاسَ
بِرِّيٍّ، وأسْرَعُهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَامْتِشَالِ أَمْرِهِ، فَلَوْ تَبَثَّ
أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا - كَمَا زَعَمْتُمْ - لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ يَعْدُ هَذَا الْوَلَدَ.
وَلَكُنْهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ الْوَلَدَ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُثْبِتُوا
ذَلِكَ. فَإِنَّا أَوَّلُ الْمُوْحَدِينَ لِلَّهِ الْمَنَادِي بِتَكْذِيبِكُمْ، وَإِنْكَارِ
زَعْمِكُمْ، فَلَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الَّذِي لَا يَحْجُزُ عَلَيْهِ
مَا يَحْجُزُ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّنَاهُلِ وَالصَّاحَبَةِ وَالْوَلَدِ
سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عَلَوَّا كِبِيرًا ^(١).

وهذا الأسلوب في إلزام الحجة كثير في كلام العرب،
عند نفي الشيء بطريق قاطع، يقول أحدهم لمن يناظره: إن
ثبت ما تقول بالدليل الصحيح؛ فأننا أول من ينادي به،
ولكن.. لا ثبوت لقوله، ولا ثبوت للدليل عليه، لأنَّه باطل
بني على باطل، ولا يخرج عن أنه ملاطفة في الكلام،
ومبالغة في استبعاد صدقه.

٣ - الله يعلمنا كيف ننزعه:

نَزَّهَ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَعَلَمْنَا كَيْفَ نَنْزِعُهُ بِقَوْلَنَا: سُبْحَانَ اللَّهِ،
نَنْزِعُهَا لَهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ؛ فَهُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا فِيهِمَا، وَمَالِكُ أَمْرِهِمَا، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْمَهِيمُ
عَلَى الْكَوْنِ بِالنَّظَامِ وَالتَّدْبِيرِ، فَلَا شَيْءٌ مِّنْ خَلْقِهِ يُشَبِّهُهُ،

(١) سورة الإسراء / الآية ٤٣

وَنِسْبَةُ الْوَلَدِ إِلَيْهِ أَعْظَمُ افْتَرَاءً عَلَيْهِ سَبَّانَهُ «كَبَرْتُ كَمْكَهْ تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا»^(١). فَلَا تُشَغِّلْ نَفْكَ
بِأَدْعَاءِهِمْ، وَاتْرَكْهُمْ يَخْوَضُوا فِي أَكَاذِيَّهُمْ، وَابْطَلْهُمْ،
وَبَلْعَبُوا فِي دُنْيَا هُمْ سَادِرُينَ فِي لَهُوَهُمْ وَعَبْتُهُمْ - كَمَا يَشَاؤُونَ -
حَتَّى يَأْتِيَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الرَّهِيبُ الَّذِي وَعَدْنَا هُمْ، وَعَنْدَئِذِ
يَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ حِدَّ وَحْنَ، لَا لَهُوَ فِيهِ وَلَا لَعَبَ، وَلَا افْتَرَاءَ
وَلَا كَذْبٌ. وَسِعَلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ!

ثُمَّ يَؤْكِدُ اللَّهُ تَنْزِيهَهُ جَلَّ وَعَلَا بِقُولِهِ: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ إِلَهٌ
وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ»^(٢); فَهُوَ مَعْبُودٌ فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَعْبُودٌ فِي الْأَرْضِ، وَآثَارُ قُدْرَتِهِ فِيهَا تَدْلِي عَلَى أَنَّهُ هُوَ إِلَهُ
الْحَقِّ، الْمُسْتَحْقُقُ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ
وَاحِدٌ أَحَدٌ، تَفَرَّدٌ بِالْأَلْوَهِيَّةِ، لَا شَرِيكٌ وَلَا وَلَدٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ
فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمْ، وَمَا يُصْلِحُ شَوَّدَهُمْ .
«وَبَنَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»^(٣); تَعَالَى قَدْرُ اللَّهِ وَتَمْجِدُهُ، وَتَقْدِسُ
صَفَاتُهُ وَتَنْزِهُ، وَتَكَاثِرُتْ بِرَكَاتُهُ وَخِبَرَاتُهُ، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُخْلوقَاتِ، فَهُوَ الْمَالِكُ،
وَالْخَالِقُ، وَصَاحِبُ الْأَمْرِ فِيهِمَا وَحْدَهُ، قَدْ اسْتَأْثَرَ وَحْدَهُ
يَعْلَمُ قِيَامَ السَّاعَةِ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ أُمْرُ الْآخِرَةِ لِلْحِسَابِ
وَالْجَزَاءِ. فَإِنَّكُمْ لَا مَحَالَةٌ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. «فَلَمَّا يَعْمَلُ مِنْقَلَبٌ

^(١) سورة التكfir / الآية ٨

^(٢) سورة الزمر / الآية ٦

^(٣) سورة الزمر / الآية ٩

ذَرْهُ خَيْرًا يَرُمُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ بِثَقَالَ ذَرْهُ شَرًا يَرُمُ ⑧ ⑨،
 على أن المشركين كانوا يتّهمون أن آلهتهم التي يدعّونها
 من دون الله ستكون شفيعة لهم عند الله ، وقالوا: ما نعبدهم
 إلا ليربّونا إلى الله زُلْفٍ ، فزادوا بذلك خاللاً على
 ضلالهم . «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أَشْفَاعَةً إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ
 رَهُمْ يَعْلَمُونَ ⑩»؛ فلا شفاعة إلا بإذن الله ، ولا تكون إلا
 لمن شهد شهادة الحق ، وأخلص التوحيد ، وأمن عن علم
 وبقين . فمن شهد شهادة الحق كعيسى وعُزَّيزٍ والملائكة .
 فإنهم بإذن الله يملكون الشفاعة لمن يستحقها ، ولا يمكن أن
 يشفعوا لمشريك بالله ، جاجِدٌ للحق ، وهم يعلمون ذلك .

٤ - اضطراب المشركين وتناقضهم :

ولئن سألت يا محمد مشركي قومك عن خلقهم ليقولُنَّ
 الله ، فإنهم لا يملكون الإنكار ، إزاء هذا الأمر المُحسَّ عقلاً
 وفطرة ، ومنطقاً ، فما أدعى أحدٌ من البشر أن له قدرةً على
 الخلق . فإذا كانوا يُقْرُّونَ بأن الله هو خالقهم ، فكيف خلقهم
 ويعبدون غيره؟ وكيف يعترفون بأنه هو الذي أوجدهم ،
 ويتحذرون له شريكاً أو ولداً؟ إنهم متناقضون مع أنفسهم ،
 مضطربون في تفكيرهم ، فعجبًا لهم أي عجب! يجادلون
 في الله ولا يستطيعون إنكار أنه خالقهم « قَالَ يُؤْفَكُونَ » .

(١) سورة الزمر / الآيات ٧ - ٨ (٢) سورة الزمر / الآية ٨٦

فكيف ينصرفون عن عبادة الخالق إلى عبادة غيره؟! وكيف يزعمون أنهم عبدوا غير الله رجاء أن يشفع لهم عند الله؟! إلا إنه الجهل والحمق، والسفاهة وسخافة التفكير!!.

٥ - النبي يشكو قومه إلى ربِّه:

بعد أن علم - صلى الله عليه وسلم - شدة عناد قومه، وتأكد من عدم إيمانهم، ناجي ربِّه شاكراً متحسراً، حريساً آسفًا، يترَبَّ إِنَّ هَذِلَاءُ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ^(١)، إنه شكوى حرية أن يهتز لها عرش الرحمن، فلقد عظم الله هذا التوجة من نبيه، وقدر شكواه إليه، وأنبا عن علمه تعالى بقول رسوله وشكواه، ولكن يا محمد.. لماذا يحزنك هذا التصرف من قومك؟ إنك أديت واجبك نحوهم، فأغرضْ عنهم، واتركهم وباءِ بينك وبينهم، وفارقهم ولا تُحَقِّل بهم، واصفح عنهم كما يصفع العاقل عن الجاهل، وقل: سلام مني عليكم سلام مُفازفة، وإهمال، وإعراض، وهجر، لا سلام تحية أو مُسالمة، واستمر في دعوتك - فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وكفرهم، وما يتظرون جزاء تنكيرهم للحق وإعراضهم.. وفي هذا ما فيه من تهديد المشركين، وتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يضيق صدره بموقف الجاحدين.

(١) سورة الزخرف / الآية ٨٨

سورة الدخان

تمهيد:

سورة «الدخان» واحدة من سبع سور^(١) بدأت بقول الله تعالى «حُمَّ» وهي سورة مكية، يشملها اهتمامات مثلاً منها من السور المكية في معالجة قضایا التوحید والرسالة والبعث، وعند المشرکین وطغیانهم، ثم هلاکتهم بتحقيق الوعید الإلهي، مع ذکر عذابهم يوم القيمة.

ومسار السورة في بدايتها يتحدث عن القرآن بالفاظ كريمة، تتشابه مع ماقبالتها سورة «الزخرف»؛ فالله - تبارك وتعالى - يُقْسِمُ بانه «الكتاب المبين» في السورتين؛ رجاء أن يعقلوه، ويتأملوا بيّانه؛ لأنه بلسانهم ولغتهم. وتتمثل قيمته، في إعجازه، وسموّه، وعلوّه، وحكمته البالغة في هداية البشرية.. فله رفعه شأن، وعلوّ قدر، حتى في الزمان والمکان، فقد بدأ نزوله في ليلة مباركة، هي خير من ألف شهر، واختبر أشرف مکان في الأرض هو الـبَلْدُ الْأَمِينُ [ليكون منزل الوحي الأمين].

وتتناول سورة الدخان والزخرف، تسلیة لرسول الله - صلی الله علیه وسلم - ما ححدث من فرعون وقومه مع نبی الله موسى - علیه السلام - وما ححدث لنبی الله محمد - صلی الله

(١) وهي: غافر، وفصلت، والتوری، والزخرف، والدخان، والجاثیة، والاسحاق.

عليه وسلم - مع قومه . . ، حتى يتصرّب ، ويُثْبَت على دعوته .
 فكلا القومين حدث منهما اعتراف ، وإعراض عن الدعوة ، وإنكار لتوحيد الله ، وتکذیب بالمعجزات الباهرات ، واتهام لرسوليهما بالسحر ، واشتراكه في الجرأة عليهما بالسخرية ، والطغيان ، والكيد ، والتقليل من شأنهما ، وشأن دعوتهما ، وتدبيير وسائل الغلبة عليهم ، ثم اللجوء إليهما استجارة ، ليكشف الله ما حمل بهم من العذاب ، مع التوصل وإعطاء العهود بالإيمان ، ثم نكث هذه العهود بعد نجاتهم ، وكشف العذاب عنهم . ثم تكون النهاية المؤلمة ، والوعيد بالعذاب الأليم يوم القيمة ، حيث المرجع والمآل إلى الله في يوم الفصل « يَوْمَ نَبِطِّلُ الْبَطْنَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَفِعُونَ »^(١) .

وتتفرق سورة الدخان في هذا المقام ؛ بأن كفار مكة ليسوا بأكرم على الله مِنْ سبقهم من الأمم التي كذبت رسالها : « أَهُمْ خَيْرٌ مَّا قَدْ أَتَيْتُهُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ لَأَنَّهُمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ » . فما هم بخير من قوم تبع ليسلما من المصير الأليم الذي حلّ بهم ، بعده أن تَجْحَوْا وأنكروا البعث والنشور ، وقالوا : « إِنَّهُ هُنَّ لَا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُنْتَهَى »^(٢) فَأَنْوَأُوا بِعَابِرَاتَهُ « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٣) .

وتوضح سورة الدخان هُوَانَ فرعون وقومه على الله وعلى الكائنات ، فلم يتأثر أحد بسوء مآلهم ، وتركهم الموقر من مظاهر النعيم يشهد على جحودهم ، ثم صار ميراثاً لقوم

(١) سورة الدخان / الآية ١٦ .

(٢) سورة الدخان / الآيات ٣٥ - ٣٦ .

آخرين أتوا بعدهم.

ثم تربط السورة الكريمة بين البعث والحكمة البالغة من خلق الكون، وقيامه على الحق، وأن الله تعالى ما خلقه عبثا ولا لهوا ولا لعبا.

وتكلمت سورة الدخان عن مصير المتقين، ومصير الكافرين، للترغيب في سلوك المتقين وثوابهم، وللتغير من سلوك الكافرين وما لهم، الذي يشيب لهوله الولدان، من طعام الأئم، والتنكيل بال مجرم في سوء الجحيم ذليلاً مهيناً «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيرُ الْكَرِيمُ»^(١).

أما المتقون فقد أذهب الله عنهم الخوف، فهم في مقام أمن. ينعمون بمشاهدة بعضهم بعضاً، وهم في أبيه منظر، وأفخر ملبس، وأهنا عيش، وأكرم متنة، لا ينفعها عليهم شيء من خوف الموت، أو زوال النعمة، ، فهم في هذا النعيم المقيم آمنون من كل المخاوف، قد شملهم الله بفضله ورحمته، ووقاهم عذاب الحميم، فهنئوا لهم بنجاتهم، وفوزهم بهذا الفوز العظيم.

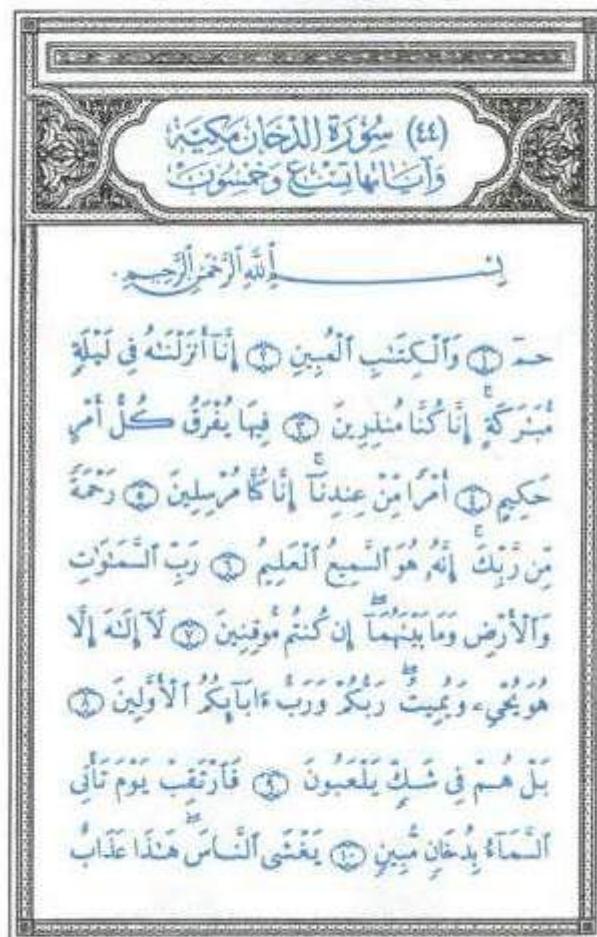
وفيما نقدم إشارات للربط بين السورتين الكريمتين، (الزخرف والدخان) ومناسبة معجم سورة الدخان بعد سورة الزخرف، وصدق الله العظيم القائل: « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَجَدُوا فِيهِ أَخْلَاقًا كَثِيرًا»^(٢).

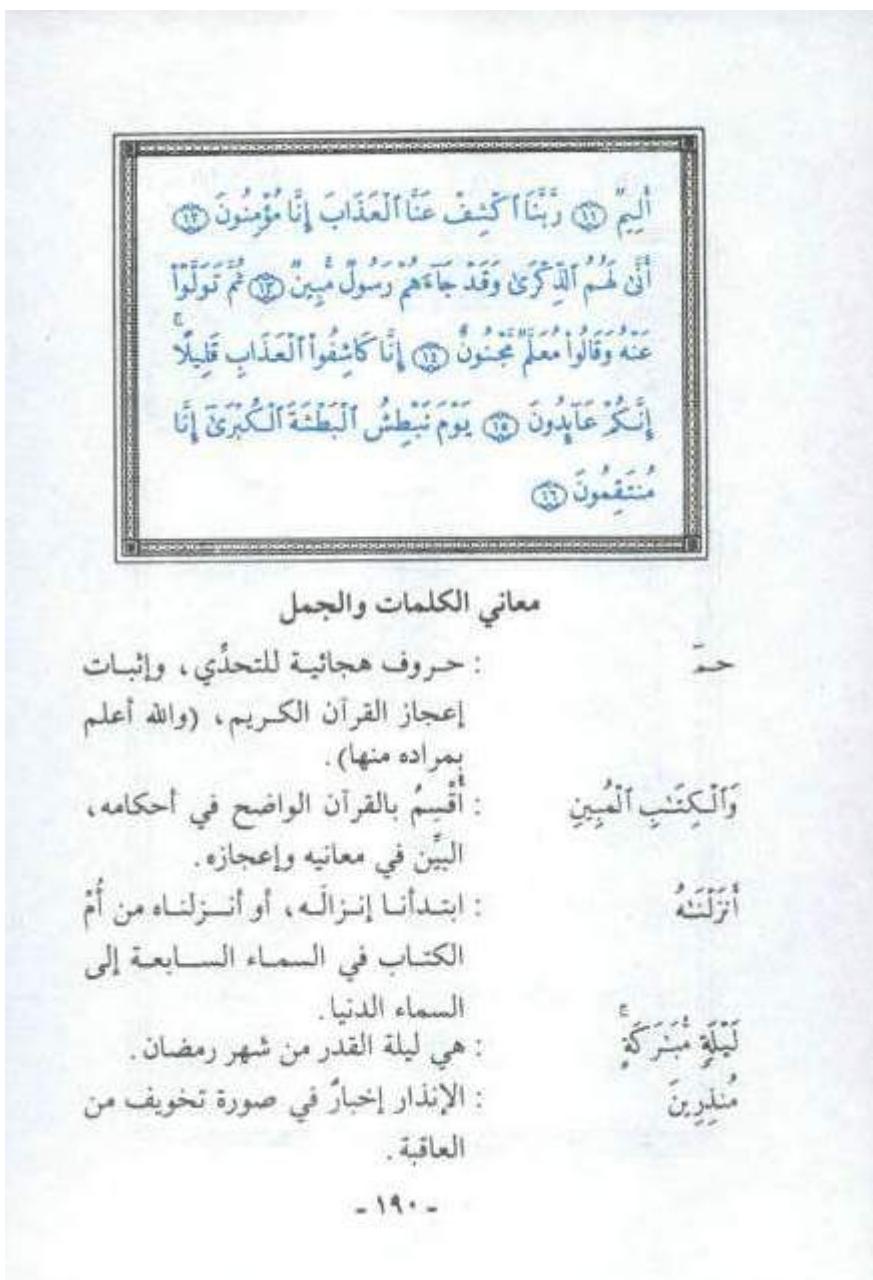
(١) سورة الدخان / الآية ٤٩.

(٢) سورة الزخرف / الآية ٨٢.

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١٦ من سورة الدخان





فِيهَا يُنْفَرِقُ كُلُّ أُمِّيٍّ : يُفْصِلُ وَيُفْضِي كُلُّ أُمِّيٍّ
حَكِيمٌ تقتضيه الحكمة الإلهية من أحوال
العباد وأرزاقهم وآجالهم.

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا : مأموراً بإنزاله منا ويعلمنا وتدبرنا.
إِنَّا كَانَ مُرْسِلِينَ : مرسلين الأنبياء بالشريائع لهدایة
البشر، وختامهم محمدٌ - صلی الله
عليه وسلم .
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ : رأفة ورحمة بالعباد من خالقهم
وربهم .

فَارْتَقِبْ : فانتظر لهؤلاء الشاكرين عذاباً.
يُدْخَلُونَ مِيرَنِ : بدخان كثيف ظاهر يملأ ما بين
السماء والأرض .
يَغْشَى النَّاسَ : يشمل الناس ويعطيهم .
أَكْتَسِفُ عَنَّا الْعَذَابَ : ارفع عننا ما ننزل بنا من العذاب .
أَنَّ لَمْ يَذَكُرُوا : كيف يتذكرون، ويعتبرون،
ويعطون؟
وَمَنْ يَعْلَمُ : هذا القرآن يعلمه يشرّ، وهو مجنون
فائد العقل .
إِنَّا كَانُوا يُشْفِعُونَ : إننا سترفع عنكم العذاب زمانا
قليلاً .

إِنْكُمْ عَابِدُونَ

: إنكم عائدون إلى ما كنتم عليه من
الكفر والعناد فلا وفاء لكم بأي عهد

يَوْمَ نَبْطِشُ

: يوم نأخذ بشدة وعنف وقسوة.

الشرح

١ - القرآن الكريم أُنزِل في ليلة مباركة :

بداية السورة الكريمة قسم بحروفين مقطعين من أحرف
الهجاء، وبالقرآن المؤلف من جسهما، وهو استهلال يوجي
بغرابة التهجي وتكون الكلمات، ولعل فيه ما يجذب أسماع
المعارضين المعارضين، ويطرق آذانهم بمنطق غير مألوف
في تخاطبهم؛ فتشد الانتباه، ويستثير يقظة الفكر والوجدان
لقوم بلغوا الغاية في فصاحة اللسان، وروعة البيان، وقد ثبتت
في مقام التحدي عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، مع
أنه مكون من الحروف التي يلقوها بها شعرهم ونشرهم ..
وفي ذلك .. أعظم برهان على إعجاز القرآن الكريم، وأنه
كلام رب العالمين «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا» ^(١)

«حَمَدٌ وَالْكَبْرَى الْمُبِينٌ ^(٢) **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ** ^(٣) **نَقْسُمُ**
بالقرآن الكريم الموضح لطريق الخير والشر الفارق بين الحق
والباطل، وبينه ومعانيه وحججه .. على أننا بدأنا إنزاله في ليلة
مباركة، عمّت الوجود بخيرها وبركتها، وضاعف الله فيها

(١) سورة النساء / الآية ٦٦٢

(٢) سورة الدخان / الآية ٤

الثواب والرحمة للطائعين من عباده، فهي ليلة ذات قدرٍ وشرف، وهي خير من ألف شهر، إنها من ليالي شهر رمضان المبارك: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ...»^(١)، وحسب هذه الليلة المباركة شرفاً أنها كانت بدء الاتصال المبارك بين الأرض والسماء بهذا الكتاب العزيز الكريم، الذي حمل منهج الله لأهل الأرض، نوراً، وهدى، وشفاء لما في الصدور، ورحمة للعالمين، وكان إزاله في تلك الليلة المباركة إنذاراً وتحذيراً من عقاب الله الذي يعلم غفلة الإنسان وضعفه ونسيانه، فهو دائمًا في حاجة إلى التنبية والإذنار رحمة به، وإقامة للحججة عليه، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد هذا التوجيه والإذنار.

٢ - الحكمة من إنزال القرآن في تلك الليلة:

ميّز الله هذه الليلة على سائر الليالي، فهي ليلة مباركة «فيها يُعرَفُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»^(٢)، ويُفصَلُ ويُقْضَى كُلُّ أمر محكم، لا يُنْدَلُ ولا يُغَيَّرُ، مما يتعلّق بآرْزَاقِ العباد، وأجالهم، وجميع أمورهم من خير وشر، في تلك السنة حتى تأتي ليلة القدر في السنة التي تليها، وكان من هذا التقدير الحكيم نزول القرآن الكريم في هذه الليلة المباركة، فيه التفريق والتفصيل والتبيين لكُلُّ أمر محكم يتعلّق بصلاح الخلق وأحوالهم إلى يوم الدين طبقاً

(١) سورة البقرة / الآية ١٨٥
(٢) سورة الدخان / الآية ٤٦

لما نقتضيه الحكمة الإلهية، والمشيّة الربانية، فقد نزل
مأموراً بإنزاله من عندنا كما اقتضاه علمُنا وإرادتنا، وأرسلنا به
محمدًا - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفَقَّرَ أَمْرَنَا؛ كَمَا أَرْسَلَنا
بِالْكِتَابِ غَيْرَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، رَحْمَةً مِنَا بِعِبادَنَا، وَرَأْفَةً.

وَإِيَّاهُ رَحْمَةً تَجَلَّتْ فِي إِكْرَامِ الْبَشَرِيَّةِ بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي
وَضَعَ لَهَا الْمَعَالَمَ عَلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالنُّورِ، وَهَدَاهَا إِلَى
صَرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَوَصَّلَهَا بِرَبِّهَا الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،
وَأَنْقَذَهَا مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ، وَفَتَحَ عَيْنَهَا عَلَى آفَاقِ الْعِلْمِ
وَالْحِكْمَةِ، وَأَفْلَغَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِ عِبَادِهِ، فَاصْبَحُوا بِنَعْمَةِ اللَّهِ
إِخْرَاجاً، وَيُسْرَهُ لِلذِّكْرِ، وَأَقَامَ بِهِ مَوَازِينَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، مَنْ
ابْتَغَ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَهُ اللَّهُ، هُوَ الْفَضْلُ لِمَنْ يَلْهُزُ
(١) بَأَيِّهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ
أَلَا إِنَّهُ رَحْمَةُ رَبِّكَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، عَلَى رَأْسِ الْخَيْرِ الَّذِي
يَرْحَمُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ؛ لَأَنَّهُ - تَعَالَى - هُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ أَقْوَالِ
خَلْقِهِ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَمَا يَضْلُّ لَهُمْ مِنْ
الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي فِيهَا مِنْفَعَتُهُمْ.

وَلَا شُكُّ أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُؤْمِنَ يُجْسِدُ فِي أَعْمَاقِهِ أُثْرَ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ حِينَ يَتْلُوهُ أَوْ يَسْمَعُهُ، وَيَدْرِكُ أَنَّهُ شَفَاءٌ لِمَا فِي
الصُّدُورِ، وَهُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. كَمَا أَنَّهُ يُجْلِي الْقُرْآنَ
الْكَرِيمَ إِجْلَالَهُ لِرَبِّهِ، لَأَنَّهُ كَلَامُهُ الْعَظِيمُ، وَمِنْ هَنَا.. يَكُونُ

(١) سورة الصافات / الآية ٤٥

مُتَجَاهِلًا في شعوره تجاهُوا كاملاً مع هذه الآيات التي يُقْسِمُ
الله فيها بالكتاب المجيد، مُؤْنِتاً أن الله تعالى لا يُقْسِمُ إلا بما
هو عظيم، وأن عظمة القرآن أضفت على الليلة التي أُنزِلَتْ
فيها البركة والخير العميم، وأنه رحمة الله للناس؛ ليخرجهم
بها من الظلمات إلى النور.

٣ - صفات الجلال والكمال التي انزل القرآن:

إن الله الذي أنزل القرآن على هذا النسق البديع مُجَسِّداً
رحمته الكبيرة بخلقه - هو المحيط بهذا الكون، المهيمن
عليه، فهو رب السموات، ورب الأرض، وما بينهما،
وخارقهما، وحافظهما بربوريته، وراحم الناس بتربيته لهم
بكلامه العظيم المُحْكَم ، فإنْ كُنْتُمْ يَا أَهْلَ مَكَةَ عَلَى يَقِينٍ
حَقَّا بِخَلْقِ الله لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا يَظْهَرُ هَذَا فِي كَلَامِكُمْ
لَوْ سُئَلْتُمْ عَنْ ذَلِكَ - فَيُجَبُ أَنْ تَعْرِفُوا بِيُوحَدَاتِهِ، وَصِدْقِ
رَسُولِهِ، وَتُؤْمِنُوا بِكِتابِهِ، وَتَوَقُّنُوا بِأَنَّ إِرْسَالَ الرَّسُولِ وَإِنْزَالَ
الْكِتَابِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ رَحْمَةً عَظِيمَةً مِنَ اللهِ - تَعَالَى - لَكُنْ
عَقِيدَتُكُمْ زَانِغَةً، وَيَقِينَكُمْ مَضْطَرْبٌ، وَنَفْوَكُمْ مُزَعَّزَةً؛
وَلَذِلِكَ .. أَشْرِكْتُمْ بِهِ آلهَةً أُخْرَى، مَعَ إِنْ عَلِمْكُمْ بِرَبِّورِيَّتِهِ
لَهُذَا الْوَجْهِ يُلْزِمُكُمُ الْإِيمَانُ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَانَ
بِيَدِهِ - تَعَالَى - الْحَيَاةُ وَالْمَمَاتُ، فَهُوَ وَحْدَهُ يَحْيِي الْمَوْتَى،
وَيَمْبَثُ الْأَحْيَاءَ، لَا يَنْتَزِعُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ؛ لَأَنَّهُ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنْ

طاقة البشر، حتى الموت لا يملكه الإنسان إلا إذا أراده الله
وحان وقته. وهو ربكم وحالفكم، ومالك أمركم وهو رب منْ
سبّكم من الآباء والأجداد والأمم الماضية، فلا رب سواه،
وله كل صفات الجلال والكمال.

وإذا كان الله الذي أنزل القرآن في ليلة مباركة قد أيقنتم
بأن له كل صفات الجلال والكمال، وعرفتموه حق المعرفة،
رفعةً وعلوًّا وقدراً وشرفاً، فهو نور صادر عن النور، والله
يهدى لنوره من يشاء، قما بعد فضل القرآن من فضل.

٤ - لعب في موطن الجد:

إن كفار مكة في الحقيقة غير موقنين، فحالهم منافقون
لا يترافقون بـ«بَلْ هُمْ فِي شَكٍ يَلْعَبُونَ»، فهم يشكون في التوحيد وفي البعث، بل إن
شركهم دليل على أنهم يتلاعبون بالأقوال والكلام دون جدٍّ
منهم، ولا تقدير في أنفسهم لهذا الوضع المزري المتمثل في
عبادة حجارة لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، فهم
حين يقولون: إن الله هو الخالق إنما يقولونها شاكين في
صدقها، متلاعبين مستهزئين! وهل هناك أوضاعٌ من
استهزائهم بك وبالقرآن؟!

٥ - تهديد ووعيد:

لقد بين الله تعالى لرسوله أن هؤلاء المعاندين المتناقضين

يشكّون في التوحيد والبعث، ويقولون في الوقت نفسه: إن الله هو الخالق، ثم يعبدون غيره. وهذا دليل على أنهم غير موقين بسنة الخلق إلى الله، بل هم يلعبون ويشتّلون ذلك في معرض السخرية واللعنة والاستهزاء.

ومadam الامر كذلك... «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مِّنْ^(١)
يَعْنَى النَّاسَ هَذَا عَذَابُ الْيَمِّ»^(٢). قدّعهم يا محمد في خسالهم،
وانظر ذلك اليوم الهائل الرهيب المذهل!! يوم تأتي السماء
بختان ظاهر بين، إذاناً يمقدّم الساعة، فهو من أشراطها
وعلاماتها المستقرة، وسيعني هذا الدخان الناس وعدهم
جميعاً، حتى يدركه كل الموجودين آنذاك، ويقال للكافرين
على سبيل التقرير والتوضيح: «هذا عذاب اليم، أو يقول
بعضهم لبعض ذلك.

ولسوف يندفعون بفطريتهم، يطلبون رحمة الله عند معاناة
هذا البلاء؛ ويعلنون إيمانهم به، ويرجون كشف العذاب
عنهم متضرعين خائفين: «رَبَّنَا أَنْشَفَ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ^(٣)». لكن الله يعلم ما تتطوّي عليه نقوسهم من الجحود والنكران،
وكيف لهم أن يتذكروا وعدهم؟ وأن يعتبروا بما نزل
بهم؟... إن جوانبهم تتطوّي على لزيم الطياع الكافرة،
وضمائر الجاحدين الخالية!!

فما يكاد يصيّبهم البلاء، ويحلُّ بهم الضيق؛ حتى تحرّك

(١) سورة الدخان / الآيات ١١ - ١٠ .

(٢) سورة الدخان / الآية ١٢ .

فيهم دوافع الفطرة، وتوazuغ الخير الخاتمة فيلتجؤوا إلى الله متسلين ضارعين قاطعين على أنفسهم الوعود بالصلاح، فيشملهم الله برحمته، ويُبَدِّلُ لهم يَدَ اللطف، ويُذَهِّبُ بأسهم وشدائهم. حتى إذا ذهب الخوف، وهذا البال، وعادت لهم أسباب الهناء، ويُسْرُ الحال - انقلبوا إلى ضلالهم، وتَسْوَا عما قطعواه من الوعود وقت الشدة. وصدق الله العظيم إذ يقول فيهم وهو أعلم بهم : « وَلَوْرَحَتْهُمْ وَكَثَفَنَامَّا يَرِيدُونَ مِنْ ضُرٍّ لِلْجَوَافِي طُفِيَّتِهِمْ يَعْمَلُونَ »^(١).

فكيف لهم التذكرة وقد أراد بهم الخير، فأرسل إليهم رسولاً واضح الرسالة، مؤيداً بالمعجزات البينات، بين لهم الحق، وبهدائهم إلى صراط مستقيم. فأصرروا على تكذيبه، والإعراض عنه، واقتربوا عليه الكذب مُذَعِّنِين أن بعض الأعاجم يُعلِّمه القرآن. ولم يكتفوا بذلك، بل رموه بالجنون، كما زَمَّوه بالسخر، وقالوا: إنه يقول كلاماً لم نسمعه من آبائنا الأولين . . فهل يتوقع من قوم هذه تصرفاتهم وصفاتهم أن يتذكروا، أو يتذمرون، أو يعتبروا؟!

لقد مضى وقت طويل للذكرى بما أفاقوا من غفلتهم، فهل يتذكرون بعد فوات الأوان؟!

ثم أشار سبحانه وتعالي بقوله: « إِنَّا كَانَوْا أَعْدَابٌ قَلِيلًا إِنَّكَ عَابِدُونَ »^(٢). إلى تلك الفرصة الباقية لهم، المتمثلة فيما

(١) سورة المؤمنون / الآية ١٦ . (٢) سورة الدخان / الآية ٧٥ .

يكون من فُسْحَةٍ في الوقت بين آية وآية من أشرطة الساعة وعلاماتاتها، وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها حيث يُغلق باب التوبة. كما ثبت أن هذا الدخان يملاً ما بين المشرق والمغارب، يمكن أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيّبه منه شَبَّهُ الزِّكَامَ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه، فكان الله تعالى يقول لهم: إن لديكم فرصة الآن فانتهزوها، فهذا العذاب مؤخر عنكم قليلاً؛ لأنكم لا تزالون في الدنيا، لكنكم عاتدون إلينا بالبعث بعد الموت، وإلى نار جهنم إن لم تومنوا. فاذكروا ثم احذرُوا «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْنَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ»^(١) منكم يوم القيمة، والسبيل لكم تعرض لغضب الله وانتقامته «إِنَّنَا نَبْطِشُ رَيْكَ لَشَدِيدًا»^(٢) .

ويحسن هنا أن نشير إلى رأي آخر ارتباه بعض المفسرين في تفسير هذا الدخان، وهو أنه قد وقع في عهد النبوة، حين دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبطاؤه عن الإسلام، قال: «اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كثيفي يوسف»^(٣) فأصابهم جهاد وقطحط، حتى أكلوا العظام والجيف. فكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان، فجاءه أبو سفيان وبعض زعمائهم، وقالوا: استنق لمضر فإنها قد هلكت. فاستنقوا لهم فسقوا، ونزل قول الله تعالى: «إِنَّا كَاثِفُوا الْعَذَابَ قَبْلًا إِنَّمَا عَادُونَ»^(٤) .

(١) سورة الدخان / الآية ١٦ (٢) سورة طه / الآية ١٢ . (٣) المأري كتاب تفسير القرآن ٤٩٩٤

(٤) سورة الدخان / الآية ١٨

(٢)

من الآية ١٧ إلى الآية ٣٧ من سورة الدخان

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاهَهُمْ
رَسُولٌ كَرِيمٌ ① أَنْ أَدْوِ إِلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ إِذِ لَكُرْمَوْلَ
أَمِينٌ ② وَأَنْ لَا تَعْلُوْعَلَى اللَّهِ إِذِ إِيْكُمْ إِسْلَمْتُمْ
مُؤْمِنٌ ③ وَلَمَّا هُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُوْنِ ④
وَإِنْ لَرْتُمُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ⑤ فَلَدَعَ رَبَّهُ أَنْ هَنْوَلَهُ
قَوْمَ بَحْرِمُونَ ⑥ فَأَسْرِي بِعِبَادِي لَيْلًا إِنْتُمْ مُتَّبِعُونَ ⑦
وَأَنْرِكَ الْبَحْرَهُوَا إِنْتُمْ جُنْدُ مَغْرُونَ ⑧ كَرْتُوكَا
مِنْ جَنَّتِ وَعِبْرُونَ ⑨ وَزُرْوَعَ وَفَقَارَمَ كَرِيمٌ ⑩
وَسَعْمَةَ كَلُوْفِيَا فَلَكِهِنَ ⑪ كَذَلِكَ دَأْرَتَهَا قَوْمًا
ءَانْجِرِينَ ⑫ فَابْكَتْ عَلَيْمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ
وَمَا كَانُوا مُنْظَرِي بَنَ ⑬ وَلَقَدْ تَجْهِيْتَ بَنَيْ إِسْرَاعِيلَ مِنْ
الْعَذَابِ الْمُهِينِ ⑭ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنْ

الْمُرْسَلِينَ ⑥ وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ⑦
 وَإِذَا نَهَيْنَا مِنَ الْآيَتِ مَا فِيهِ بَلَّغُوا مِنْ ⑧ إِنْ
 هَنُولَا وَلَيَقُولُونَ ⑨ إِنَّهُ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا تَحْنَ
 يُنْهَرُنَ ⑩ فَأَتُوا بِيَابَاسًا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑪ إِنْ هُمْ
 خَيْرٌ مِّمَّا يَرَى وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ هُمْ
 كَانُوا بِعَزْمٍ ⑫

معاني الكلمات والجمل

فَتَنَ

: ابتلينا وامتحنا.

رَسُولُ كَرِيمٍ

: هو موسى عليه السلام، كريم الحسب في قومه، كريم على ربه؛ لأنَّه كَلِيمُ الله الذي اختصَّ بالنبأة.

أَنْ أَدْوَإِلَيْ عِبَادَ اللَّهِ : أعطوني عباد الله، وسلموا إلى بني إسرائيل.

وَأَنْ لَا تَعْلُوْ عَلَىَ اللَّهِ : لا تكبروا وتعالوا على طاعة الله وأوامره ورسله.

- بِسْلَطْنٍ مُّبِينٍ** : برهان واضح على صدق رسالتي .
عُذْتُ بِرَبِّي : التجأت إليه ، واستجرت به .
أَنْ تَرْجُونَ : من أن تؤذوني أو تقتلوني رجمًا
 بالحجارة وفق تهديدكم لي
 ووعيدهم .
- وَإِنْ لَرْ تُؤْمِنُواْ لِ** : وإن لم تصدقونني .
فَاعْتَرُونَ : اتركتوني وشأنني ، ولا تعرضوا لي
 بأدبي .
- قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ** : قوم كافرون مشركون .
فَأَسْرِي بِعِبَادِي لَيْلًا : ارحل ويسير ليلاً بيني إسرائيل .
إِنَّكُمْ مُّتَّغُونَ : ستبعدكم فرعون وجندوه .
وَأَرْزِكُ الْبَحْرَ هَرَّاً : خليه ساكناً منفرجاً حتى يدخله
 القبط .
- وَمَقَارٍ كَبِيرٍ** : مساكن فاخرة ، ومجالس حسنة .
وَنَعْمَةٌ كَانُواْ فِيهَا فَنِكِيرٍ : كانوا ناسعين متعممين بسعادة العيش
 وراغبيه ونضارته .
- أَوَ أَرْتَنَاهَا** : ملكناها لقوم آخرين .
- فَبَسَّكَ عَلَيْهِمُ الْأَسْرَاء** : ما حزن على فقدتهم أحد (كناية عن
 هوانهم) .
- وَمَا كَانُواْ مُنْظَرِينَ** : ما كانوا مؤخرین ومحملين إلى يوم
 القيمة ، بل عاجلهم الله بالعقوبة .

كَانَ عَلَيْهَا مِنَ الْمُسْرِفِينَ : كان جباراً مُستغلًا على الناس،
 مسرفاً في الطغيان والكفر.
 أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ : اصطفيناهم على علمٍ منا
 باستحقاقهم.
 عَلَىٰ الْعَالَمِي زَمَانَهُمْ : على عالمي زمانهم.
 الْآيَتِ : المعجزات الحسية من مثل: المن
 والسلوى وفلق البحر.
 بَلْتَأْمِينْ : اختبار ظاهر، أو نعمة واضحة.
 يُمْشِرُونَ : يمبعوثين أحياً من القبور.
 قَوْمٌ تَبَعُّدُ الْحَمِيرِيَّ أَحَدُ مُلُوكِ الْيَمَنِ : قومٌ تتبع الحميري أحد ملوك

الشرح

١ - تذكير قريش بقصة موسى مع فرعون:

أَرَادَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أَنْ يُذَكِّرَ قَرِيشًا بِمَا حَدَثَ
 لِفَرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ - وَهُمْ أَقْبَاطُ مِصْرَ - لِعِلْمِهِمْ يَعْتَبِرُونَ . كَمَا رَغَبَ
 تَعَالَىٰ فِي أَنْ يُشْرِيَ عَنْ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْتَهِ
 أَنْ مَوْقِفَ قَرِيشٍ مِنْكَ لَمْ يَخْتَلِفْ عَنْ مَوْقِفِ فَرْعَوْنَ مِنْ
 مُوسَىٰ .. فَلَقَدْ امْتَحَنَ قَوْمَ فَرْعَوْنَ، وَاحْتَرَنَاهُمْ بِالْجَاهِ
 وَالْمُلْكِ وَالْسُّلْطَانِ، وَالْتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ أَسْبَابَ
 الْقُوَّةِ وَالرُّخَاءِ، وَابْتَلَيْنَاهُمْ - قَبْلَ مُشْرِكِيِّ مَكَّةَ - وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ

رسولاً، كريماً على ربه، شريقاً في قومه، وهو (موسى بن عمران) عليه الصلاة والسلام، قد عاهم إلى الله، وطلب منهم أن يرسلوا معه بني إسرائيل، ونُطْلِقُوا سراحهم، ويرفعوا عنهم الاستبعاد والعقاب، ونصحهم أن يستجيبوا لطلبه، وينفذوا ما أمرهم به؛ لأنه رسول مُؤْتَمِنٌ على الوحي، أمين على الرسالة غير مُتّهم، مُكْلَفٌ بالتبليغ من الله تعالى، ثم قال لهم: أنا لا أبغى شيئاً لنفسي، وإنما أدعوكم إلى الإسلام الكامل لله، ولا تنكروا على طاعة الله، ولا تتجروا على رسوله، فقد جئتم بحججة واضحة، وبرهان ساطع، ودليل له سلطانه على القلوب والعقول، ناطق بصدق رسالتي إليكم، فاعبدوا الله وحده، وارفعوا أيديكم عن النسلط على بني إسرائيل، وتسخّرُوهُم في أعمالكم الشاقة دون غنى أو إنصاف.

٢ - موقفهم من موسى ودعوته:

قابل القوم دعوة موسى - عليه السلام - بالرفض والسخرية ورأوا ضرورة إيقافه عند حده، فهُدُدوه وتوعّدوه بالقتل. ولكننا نلمح قوة يقين موسى، وثقته بربه، وعدم خوفه من تهديداتهم، والتجلاء إلى حمي ربّه، مستعيناً به من شرورهم، مستجيرًا به من كيدهم، فهو وحده القادر على أن يدفع عنه أذاهم، ويمنعه من القتل. وكأنه بهذه المصارحة يربّهم أنه لا يرهبهم، ويقول لهم: سيكفي بي الله شرككم

و ظلمكم بجرونه وقوته .. وأنا لذلك لا أخافكم ولا أعبا
بنهديكم؛ لأنني ما أصلت إليكم، فلقد أخافت لكم
النصح، وجادلتكم فأحينت جدالكم، وحثتكم بالحججة
الواضحة، وبلغتكم رسالة ربى، فإن لم تصدقوني ، وتؤمنوا
بى ، ونُقروا بنبوتي ، فاتركوني ، ولا تتعرضوا لي بأذى ، وكونوا
بمعزل عنى ، وأنا بمعزل عنكم ، وكفوا عن شركم ، فما
دعوتكم إلا إلى الخير ، وهذا هو ما يتطلبه العدل منكم ، فإنني
ما أرغبتكم على شيء!! ولكن ... هل يستسلم الطغاة بهذه
البساطة؟! وهل يسمحون للحق أن يتفسّى بين أظهرهم؟ ..
إنه يخيفهم ويؤرقهم ، فلابد من القضاء عليه .

فلما أدرك موسى - عليه السلام - أن القوم قد استبدّ بهم
الطغيان حتى أعماهم عن الحق ، وأضمّ آذانهم عن سماعه ،
وأنهم لن يتخلىوا عن كفرهم وعنادهم ، ولن يصدقوه ، ولن
يتركوا إيمانه ، ولن يستجيبوا لإرسالبني إسرائيل معه - لجأ
إلى ربه ، ودعاه شاكراً مفروضاً أمره إليه ، معلناً أنهم قوم
 مجرمون مشركون متكرون ، قد نأصل فيهم الإجرام والكفر ،
فلم يعد يرجو منهم خيراً ، ولا يتوقع إلا شراً .

٣ - استجابة الله لموسى وإرشاده للنجاة:

أحب الله دعاء موسى ، وأقر شعوره بشدة ضرورة القوم
وعتوهم ، وأوحى إليه أن يسر ليلاً بالمؤمنين منبني

إسرائيل ، ويخرج بهم في هذة الليل خفية ، بعيداً عن عيون فرعون ؛ حتى يمكنوا في ستر الليل أن يقطعوا قذراً من المسافة بينهم وبين فلسطين ، قبل مجيء الصباح ، وانكشف أمر رحيلهم ، فلسوف يغطي فرعون بما خروجهم ، وسيتبعهم حتى هو وجندوه ، ويقتفي أثرهم ؛ ليردهم إلى الذل والاستعباد .

امتثل (موسى) أمر ربه - سبحانه - وخرج ليلاً من مصر مع من آمن به . ولما علم فرعون وجندوه بما رحيلهم ، سارعوا إلى اللحاق بهم ، وأدركوهم على ساحل بحر القلزم (من جهة المسويس)^(١) ، وأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فانفلق لهم عن طريق يابسة ، هيأتها لهم قدرة الله تعالى ؛ لتكون سبيلاً إلى الخلاص والنجاة . والتزم (موسى) عليه السلام أمر ربه بأن يترك البحر زهواً ساكناً ، بعد عبوره مع قومه ، فلم يضربه بعصاه مرة ثانية ، لتنطل الطريق مفتوحة ، إغارة لفرعون وجنده بصلاحتهم ، حتى تتم مشيئة الله في إغراقهم وإهلاكهم « إِنَّهُمْ جُنْدٌ مَغْرُوبُونَ » . وتتفذ فيهم إرادة الله وقدره الذي دبر أسبابه ، فيكون البحر سبيلاً في نجاة (موسى) ومن معه ، ويكون وسيلة الهلاك لفرعون وقومه « وَلَهُ جُنْدٌ أَسْمَوْتٍ وَالْأَرْضَ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »^(٢) .

(١) التصر الواضح . وتصدر الآية ، ويعرف الآد بخلج المسويس من امتداد البحر الأحمر

(٢) سورة الفتح / الآية ٧

٤ - الهوان الذي حلّ بالطاغية وقومه :

ثم تنتهي قصة الطغيان الفرعوني نهايةً مريمةً، فإذا بالمتآله الجبار أذلَّ خلقَ الله وأهونَهم، وإذا بالملك والسلطان تداعى قواعده وتدهب بنداء، وإذا بالملا والجند منبودون في اليمِ بَدَّ الجيف والغثاء، وإذا بالوجود كانوا استراح من عناصر البغي، وقوى الشر والإفساد، وإذا بالنعمة السليمة تحكي قصة الانتقال من أيدي الظلمة الجاحدين إلى قوم آخرين، شاء الله مالكُ السموات والأرض أن يورثهم هذا الجاه العريض، والنعيم الواسع، والعيش الرغيد، وصدق الله العظيم: «كُرْتُمُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْنٍ^(١) وَرَزُوعٍ وَمَقَارٍ كَبِيرٍ^(٢) وَنَعْمَةٍ كَافَا فِيهَا فَتَكِينَ^(٣)»^(٤).

فما أكثرَ ما خلقوه وراءهم من بساتين مُزهرة، وعيونٍ بالسلسيل دافقة، وزروع ناضرة، وقصور شامخة، ومجالس تحوطها الأبهة وتفيضُ بالنعماء، والتلذذ بالنعمة، والتمتع بأسباب السعد والسرور !

«كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا أَنْجَرِينَ^(٥)»^(٦). كذلك فعلنا بهم ، ومثل ذلك نفعل بكل المجرمين. لقد أهلكناهم ، ونزعنا الملك والنعمة من أيديهم ، وأورثناها قوماً آخرين حكموا مصر ، من أمم مختلفة جاءت بعدهم : كالبابليين ، والحبش ، والفرس ، والرومان ، والعرب والمسلمين .

(١) سورة الدخان / الآيات ٢٧ - ٢٨ (٢) سورة الدخان / الآية ٢٩

وأما قوله تعالى: «فَأَخْرَجَنَّهُم مِّنْ جَنَّتٍ وَعَبْرُونَ^(١) وَكُنُزٍ وَمَقَارِبَ
 كَبِيرٍ^(٢) كَذَلِكَ وَأَوْرَثَنَّهَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ»^(٣) فإنه من الثابت في
 التاريخ أن بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أورثهم الله
 مُلُكًا في أرضه بعد أن كانوا مملوكين، وحكموا بعد أن كانوا
 محكومين، ولكن من المؤكد أن هذا الملك لم يكن ملك
 فرعون؛ لأنهم لم يعودوا إلى مصر بعد أن فروا بجلودهم.
 فهل صان بنو إسرائيل النعمة بعد ذلك؟ وهل حفظوا العهد؟
 وهل أخذوا عبرة من قصة فرعون الطاغية؟ كلا.. ثم كلا !
 فحياتهم كلها عدوان في عدوان، ومكر في مكر. ولذلك ..
 بعد أن سلط الله عليهم من يطش بهم المرة بعد الأخرى،
 ويقضي عليهم بالتدمر والتشريد؛ جزاءً لفسادهم ولؤمهم ..
 حسم الله الموقف معهم بقوله تعالى: «عَنِ رَبِّكَ أَن يَرْحَمُ
 وَإِنْ عُذْمَ عَذْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِ بَنَ حَصِيرًا»^(٤). فهو وعيد من
 الله تعالى قائم في حقهم إلى يوم الدين: إن عدتم إلى الفساد
 عدنا إلى العقوبة ، وتلك سُنة الله معهم ومع كل البغاة
 المفسدين لن تختلف .

ومع أن فرعون وقومه كانوا يستعظمون أنفسهم، ويتهمون
 على الحلق كُبُراً وتجبراً، إلا أنهم ذهبوا صغاراً أدلاً نافهين ،

(١) سورة الشعرا / الآيات ٨٦ - ٨٩ .

(٢) سورة الإسراء / الآية ٨٧ .

فما اهتم لهلاكهم أحد، ولم يأس على فراقهم مخلوق،
ولفظتهم الدنيا غير مأسوف عليهم، فلم يكونوا من المهندسين
فيüküm أهل السماء، وما كان فيهم خير للناس فيüküm أهل
الارض. بل إن الوجود نفسه المستجيب لخالقه، المسرح
بأمره - كره وجودهم، **فَبَأْكَتْ عَلَيْمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**^(١)، فقد
كانوا قدّي في عين هذا الكون حتى استراح من شرهم.

وهكذا... ذهب الطغاة مصحوبين بالغضب واللعنة، ولم
يمهّلهم الله، ولم يؤخر عقابهم إلى يوم القيمة، بل عاجلهم
بالعقوبة، واستأصلهم؛ لقطع دابر كفرهم وع纳دهم.

٥ - إحسان الله تعالى لبني إسرائيل:

انتهى الجبارون الكافرون، وأحاط الله (موسى) ومن أتبعه
برعايته وعنايته، ونجاهم من العذاب والإهانة، والإذلال
الذي وقع عليهم، بإرهاقهم في الأعمال الدنيا، والخدمات
الشاقة، وقتل أبنائهم، واستخدام نسائهم، واستعباد
رجالهم.

نجاهم الله من العذاب المُهين، من فرعون نفسه، الطاغية
الجبار، المسرف في التعالي، المتجاوز الحد في الفساد
والإفساد، المتسلط عليهم بالإذلال والإهانة... وهكذا...
دفع الله **الضر** عنهم، ثم أكرمههم... باختيارهم وفضيلتهم

على أهل زمانهم، وهو سبحانه يعلم أسباب أحقيتهم بهذا الاختبار في عالمهم الغارق في الوثنية، فإنهم حيتذ كانوا على معرفة بالله - تعالى - بعد أن أرشدهم (موسى) إلى عبادته، وكان خير الناس المعاصرين في ذلك الزمان، على الرغم مما أخذه الله عليهم من مواقف تحطّ من إيمانهم، وتشير إلى انحرافهم، كعبادة العجل فور نجاتهم من فرعون. «ومما يشير إلى أن اختبار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم، ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالي، إذ كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة^(١) واستقامة».

ومع دفع الفر عنهم وأصفافائهم على عالم زمانهم، أتيناهم من الأمور العظيمة، والآيات والمعجزات، وتظليل الغمام، وإنزال المعن والسلوى، وغير ذلك - مما فيه إنعام عليهم، وامتحان واضح لهم، واختبار لسلوكهم.. أىشكرون أم يكفرون بعمنا؟ فإنهم .. فشلوا في الاختبار، وكفروا بنعم الله، وحرقوا وغيروا في التوراة، وقتلوا الأنبياء؛ فغضب الله عليهم غضبة حالدة باقية إلى يوم الدين، وسلط عليهم من يشردتهم في الأرض، وكتب عليهم الذلة والمسكنة، قال تعالى: «صُرِبتْ عَلَيْهِمُ الدِّلْلَةُ أَيْنَ مَا نَقْفَوْا إِلَّا يُحْبَلُ مِنَ اللَّهِ وَحْبَلَ مِنَ

(١) في طلاق القرآن للأستاذ سيد قطب.

أَنَّاسٌ وَبَآءَ وَيَغْضِبُ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ يُعَايَنُتْ أَنَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْيَاءَ يُغَيِّرُ حَقَّ ذَلِكَ إِمَّا عَصَراً وَكَانُوا
يُعَذَّبُونَ (١١) (١)

٦ - مشركون مكة وإنكارهم للبعث :

بعد أن ساق الله تعالى ما حدث لفرعون وقومه من الإغرار والهوان، وزوال الملك والسلطان - التفت إلى كفار قريش الذين لا يختلف موقفهم من رسول الله ودعوته، عن موقف فرعون وقومه، فهم يغالون في الكفر والعدوان، وينكرون البعث، ويقولون: إن نهاية حياتنا هي بعد الموتة التي نموتها، ولا حياة بعدها، وما نحن ببعوثين أحياً مرة أخرى من قبورنا كما يقول محمد، فإن كان صادقاً فيما يقول هو ومن أتبعه، فليأتوا بآياتنا أحياً؛ لثراهم ونسائهم عما يكون بعد الموت.. . وفات هؤلاء المنكرين أن السر في إنكارهم هو جهلهم، وعدم وعيهم وفهمهم للحكمة الإلهية من البعث والنشور، وما وراءها من الإيمان بالغيب، والحساب والجزاء، وإنابة المؤمنين المطهرين، وتعذيب المشركين العاصين.

وليس في الكلام قصد إلى إثبات موته أخرى؛ بل المراد:

(١) سورة آل عمران / الآية ١١٢

«ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة
الدنيوية، وما هي إلا موتنا التي نموتها في الدنيا ولا حياة
بعدها ولا يبعث»^(١).

٧ - تهديد لمشركي مكة:

بعد ذلك توعدهم الله تعالى ، وأنكر عليهم تجحthem في
استفهم ، يذكّرهم بأنهم ليسوا أكرم على الله من سبقهم من
قوم تُبَعِّ وَعَادٍ وَثَمُودٍ ، الذين أشركوا بالله ، وأنكروا البعث بعد
الموت ، فأهلكم الله بذنبهم ، هم خير أم قوم تُبَعِّ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
أَهْلَكْتُهُمْ^(٢) .

فـكفار مكة ليسوا في القوة والمنعة خيراً من قوم تُبَعِّ
الجميري^(٣) ملك اليمن ، الذي قاد جيوشه ، ودار بهم
الأرض ، وقهـر أهلها ، وغزا بلاد الصين ، وهابـه الملوك ..
وكانـت اليمن مصدرـ خـير وافـر ، ونـعمـ كـثـيرـةـ ، ولـمـ يـمـعـنـهمـ
ذـلـكـ مـنـ الـهـلاـكـ ، وـمـثـلـهـمـ قـوـمـ نـوحـ ، وـعـادـ ، وـثـمـودـ ، وـفـرـعونـ ،
هـؤـلـاءـ جـمـيـعـاـ أـهـلـكـاهـمـ لـمـ عـضـوـاـ رـسـلـهـمـ ، وـأـصـرـواـ عـلـىـ
الـاسـتـمـارـ فـيـ الـكـفـرـ وـالـإـجـرـامـ ، فـاحـذـرـواـ يـاـ مـشـرـكـيـ مـكـةـ أـنـ
تـسـلـكـواـ طـرـيقـهـمـ ، فـيـأـخـذـكـمـ اللـهـ كـمـ أـخـذـهـمـ ، وـيـحلـ بـكـمـ ماـ
حـلـ بـهـمـ مـنـ دـمـارـ وـهـلاـكـ . «إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ^(٤) ، فـآمـنـواـ أـنـمـ
وـاسـتـقـيمـواـ حـتـىـ تـسـلـمـواـ ، وـلـاـ تـبـعـواـ سـبـيلـ الـمـجـرـمـينـ .

(١) فتح الباري ، الإمام الشافعى

(٢) سورة الدخان / آية ٣٧

(٣) وليس العـراـدـ تـبـعـ رـجـلـاـ وـاـعـدـ ، سـيـلـ الـعـراـدـ سـهـلـ الـيـمـنـ ، فـكـانـواـ يـسـمـونـ مـنـ قـوـمـ الـتـبـاعـةـ ، فـتـبـعـ لـهـنـكـهـمـ
عـالـطـلـيـةـ لـمـسـلـسـلـهـمـ ، وـكـسـرـيـ لـغـرـسـ ، وـقـبـصـ لـرـبـوـنـ . وـأـظـهـرـ مـنـ الـآـيـاتـ أـنـ اللـهـ ، سـيـمـانـهـ ، إـنـاـ آـرـدـ وـاـعـدـ مـنـ هـذـاـ

كـاتـ الـعـربـ تـرـمـيـهـهـ الـأـسـمـ الـثـالـثـ مـنـ مـعـرـفـةـ غـرـبـهـ . اـنـهـ . نـسـرـ الـمـرـطـبـ

(٤) سورة الدخان / آية ٣٨

(٣)

من الآية ٣٨ من سورة الدخان إلى آخر السورة

وَمَا خَلَقْنَا الْمَنَّوكَ وَالْأَرْضَ وَمَا
يَنْهَا لِعِينَ ② مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا لِتُنْهَى وَلَكِنَّ أَعْنَاهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ③ إِنَّ يَوْمَ الْقِصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَبْعَدُهُنَّ ④
يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَ شَيْئًا وَلَا هُمْ بِسَرَرُونَ ⑤
إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑥ إِنَّ
نَجْرَتْ أَرْقَمْ ⑦ طَعَامُ الْأَلْيَمِ ⑧ كَانَهُمْ يَغْلِي
فِي الْبَطُونِ ⑨ كَعْنَى الْحَمِيمِ ⑩ خُذُوهُ فَأَعْنَلُوهُ إِلَّا
سَرَاءُ الْجَحِيمِ ⑪ لَمْ صُوَرْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ
الْحَمِيمِ ⑫ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّكِيمُ ⑬ إِنَّ
هَذَا مَا كُنْتُ بِهِ تَعْرُونَ ⑭ إِنَّ الْمُتَفَقِّنَ فِي مَقْلِمِ
أَيْمَنِ ⑮ فِي جَنَّتِ وَعِيرَنِ ⑯ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرِقُ مُنْقَلِبِينَ ⑰ كَذَلِكَ وَرَوْحَتُهُمْ

بِخُورِ عَيْنٍ ④ يَدْعُونَ فِيهَا بَكْلَى فَنَكَهَةً ۚ أَمِينٌ ⑤
 لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقْنَهُمْ
 عَذَابُ الْجَحِيمِ ⑥ فَضَلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْغَوَّةُ
 الْعَظِيمُ ⑦ فَإِنَّمَا يَرَنَّهُ يَلْسَانِكَ لَعْنَهُمْ يَنْذَرُونَ ⑧
 فَارْتَقِبْ لِأَنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ⑨

معاني الكلمات والجمل

لَعِينَ

: لا هين عابثين.

يَوْمَ الْفَقْلِ

: يوم القامة الذي يفصل الله فيه بين خلقه، وبين الحق والباطل.

مِيقَتُهُمْ

: موعد جمعهم للحساب.

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ

: يوم لا ينفع مولى مولا، ولا يدفع قريب أو صديق شيئاً عن قريبه أو صديقه.

شَجَرَةُ الرَّقْبَرِم

: شجرة تنبت في جهنم، وسمّاها الله الشجرة الملعونة.

الْأَئِمَّةُ

: كثير الذنوب والأئم.

كَالْمُهْلِ

: كذري الرزب، أو النحاس المداب.

الْحَمِيم

: الماء البالغ الغاية في الحرارة.

خُذُوهُ فَأَنْتُلُوهُ إِلَى سَوَّاَءِ الْجَحِيمِ

: الخطاب لربانية جهنم، خذوا هذا الأثيم وجروه بعنف وقهرا إلى وسط النار.

يَهُءَ مُكْتَرُونَ

: فيه تجادلون وتشكون وتمارون.

فِي مَقَامِ أَمِينٍ

: في موضع ونزل يأمن صاحبه من جميع المخاوف.

سُنُدُسٌ وَإِسْتَرِيقٌ

: رقيق الحرير، وسميكه.

وَزَوْجَتُهُمْ بُحُورٌ عَيْنٌ

: فرناهم بناء بيض، مخلوقات في الجنة، واسعات العيون حسانها.

يَدْعُونَ فِيهَا يُكَلِّ فَنَكِهَةٌ

: يطلبون فيها ما يشاءون ويشهون من كل ألوان الفاكهة.

الْمَوْتَةُ الْأَوَّلُ

: الموتة التي ذاقوها في الدنيا.

وَوَقْنُهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ

: ونجاهم من عذاب جهنم الشديد الآليم.

يَرَنَهُ يَلَانِكَ

: سهلنا القرآن بلغتك.

فَارْتَقِبْ

: فانتظر ما وعدتك به من النصر

: عليهم والفوز العبين لدعونك.

لَأُنْهِمْ مُرْتَفِعُونَ : إنهم متظرون ما يحل بك من زُبُّ
المنون.

الشرح

١ - ما خلق الله ذلك إلا بالحق :

كيف ينكر المشركون البعث بعد الموت ، وهذا الكون
شاهدٌ صدق على أنه قائم بالحق وللحقيقة ، ناطقٌ بعظمة خالقه
وقدراته وحكمته وبديع صنعته وروعته تدبره في خلق
السموات والأرض وما بينهما من فضاء وھواء ، وما فيهما من
مخلوقات وكائنات؟ إنه تعالى لم يخلق كل ذلك لعباً وعبثاً ،
بل لغاية سامية تهدف إلى إحقاق الحق ، ومعرفة الناس
بتوحيد الله ، وما يجب له تعالى من صفات الكمال والجلال ،
وقيام العباد بحق ربوبيته ، وشكر نعمته ، وإظهار طاعته ،
وامتحان الناس بإرسال الرسل ، وإنزال الشرائع والكتب ،
وبالإيمان بالغيب ، وما فيه من بعثٍ وحشرٍ وحساب ، وثواب
وعذاب .

ولكن أكثر أهل مكة لا يدركون ذلك ، لغفلتهم عن
الحكمة الإلهية ، وانصرافهم عن التفكير والتدبر ، واشتغالهم
بمتع الدنيا ولذائتها ، وإنكار الآخرة وما فيها . إنهم بإنكارهم
للحياة بعد الموت ، وما في الآخرة من ثواب وعذاب - تكون
عقولهم قد قصرت عن إدراك حكمة الله من وراء هذا التدبر

الدقيق في الخلق، والقدرة البالغة في إيجاد الكون وحفظه وإدارته، وقيامه على النظام والترتيب والإحكام وجمال التنسيق والإبداع، والعلم المحيط بكل دقائقه، ووضع كل شيء في موضعه الذي لا يصلح إلا له، وخلق كل شيء فيه بمقدار، وزن كل أمر بمعيار، بحيث يلزم من إدراك وحدة الكون، وتماسُك أجزائه وتعاونها وتكاملها، إدراك وحدة الخالق.

٢ - إدراك وحدة الخالق وقدرته وحكمته:

وحشاً للحكيم العليم أن يخلق شيئاً عبثاً، أو يُدعَّع هذا الوجود بلا غاية. وقد كشف الله - تعالى - في كتبه، وعلى لسان رسله غاية هذا الخلق القائم على الحق، وخطب الناس في القرآن الكريم بقوله: «أَفَقَبِيتُمْ أَعْنَاخَ فَنَتَكُ عنَّا وَأَنْكَرْتُ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ»^(١) تعالى الله عن أن يوصَّف عمله بالعبث الذي ينافي الحكمة وكمال الألوهية، وتعالى الله الحق الذي أحكم أمر السموات والأرض؛ لإقامة الحق والعدل - عن أن يسوئ في النهاية بين الحق والباطل، والخير والشر. قيَّم دلائل حكمته وعظمته وعدله جَعْل هذه الدار دار عمل وابتلاء، وجَعْل الآخرة دار حساب وجزاء !

فخالق الكون بالحق شاءت حكمته وعدالته أن يجعل للناس موعداً يفصل فيه بينهم، وأن يسميه يوم الفصل؛ ليُميِّز

(١) سورة المؤمنون / الآية ١١٥

الله فيه الخير من الطيب، والمحسن من المحسن، والمؤمن من المشرك، ويفصل بعده؛ فلا مساواة بين ظالم ومظلوم، وبين مطين وعاص، وبين مسلم وكافر.. بعد أن عاشوا في دنيا محفوفة بالمكاره كانت دار عمل، ولم تكن دار جراء. أما يوم الفصل هذا فذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود، والناس فيه فريقيان: «فَنِئُّهُمْ نَبِيٌّ وَمَعْدِلٌ»^(١)، وهم بين مستحق للنعم في الجنة، ومستحق للعذاب في النار، وهذا من أقوى دعائم الحق - والله - تبارك وتعالى - الذي يربى عباده على الحق يستنكر أن يتصور أي عاقل مساواة الحق بالباطل، والعدل بالظلم، والإحسان بالإساءة. وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالظَّيْرُ»^(٢)؛ «أَفَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِي

أَفَنْ يَكْشِي مُجْكَحًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ يَكْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّنْتَقِيمٍ؟

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطَلَالٍ ذَلِكَ ظُنُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ

أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلَاحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُغْبَرِ؟

من هنا.. كانت مقتضيات الحكمة أن يكون هناك دار للجزاء، يُوقَنُ الناسُ فيها جراء ما كسبت أيديهم.

(١) سورة العنكبوت / الآية ٤٤
(٢) سورة العنكبوت / الآية ٣٨
(٣) سورة الرحمن / الآية ٢٧-٢٨

(١) سورة العنكبوت / الآية ٤٤
(٢) سورة العنكبوت / الآية ٣٨
(٣) سورة الرحمن / الآية ٢٧-٢٨

٣ - «إن يوم الفصل كان ميقاتاً»:

فما أعظمها من حقيقة يجب أن تستقر في عقول الناس
وقلوبهم ! هناك ميقات للحساب، فيجب أن يُعدُّوا أنفسهم
لهذا اليوم قبل أن يسمعوا نداء الحق قائلاً: «هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ
جَعَلْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ⑯ فَإِنَّ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكَبِدُونَ ⑰ وَبَلْ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ⑱» (١) فلا عثٰث في الحياة الدنيا ولا غفلة، وعلى كلِّ
إِنْسَانٍ أَنْ يُحَاسِّبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَّبَ، فلن ينفع قريبٌ
قربيه، ولا صديقٌ صديقه، «يَوْمٌ لَا يُغْنِي مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ ⑲»، فلا مناصرة في ذلك اليوم الرهيب، ولا تجزي
نَفْسٌ عن نَفْسٍ شَيْئاً، ولا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفاعة،
إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَظْلَمُهُ اللَّهُ بِظْلِهِ يَوْمٌ لَا ظَلَّ إِلَّا ظَلَّهُ، فَالْأَمْرُ
لَهُ وَحْدَهُ، يَرْحَمُ مِنْ يَشَاءُ، وَيَعْفُ عَمْنَ يَشَاءُ، وَيَقْبِلُ الشَّفاعة
فِيمَنْ يَشَاءُ، فَتَوَابَهُ فَضْلٌ، وَعَذَابُهُ عَدْلٌ، لَا يَنْازِعُهُ مَنْازِعُ،
إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، فَهُوَ سَبَّحَانُهُ - العَزِيزُ الْغَالِبُ فِي انتقامَهُ.

٤ - ما أشقي هذا الأئمِّ وما أذله !

يقول الله تعالى متوجداً هذا الكفور الأئمِّ: «وَبَلْ لِكُلِّ أَفَّاكُ أَئِمَّةٍ
يَسْعَى بِأَيْمَانِهِ نَشَانَ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرَكُبِرَا كَانَ لَرَبِّسَهَا فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابِ أَئِمَّةٍ ⑳» (٢) فِيهَا بُشْرَى هَذِهِ أَيْمَانِهِمْ ؟ وَأَيْ عَذَابٍ

(١) سورة البالغة / الآيات ٧ - ٨ .

(٢) سورة الرسلات / الآيات ٣٨ - ٣٩ .

اليم ينتظرك؟! أتدرى ما طعامك هناك؟! إنها شجرة
الزقوم !! إنها طعام الأثيم ! إنها الشجرة الملعونة في القرآن!
إنها تثبت في قعر الجحيم ! إن طلعها كأنه رؤوس الشياطين !
إن الجوع سيدفعك إليها دفعا ، إنك ستأكل منها حتى تملأ
بطنك مع خبث مطعمها ، وتن رائحتها ! فماذا تفعل بأكلها؟
بالهول ما تفعل !! إنها كالمهل يغلي في بطنه ، وما هذا
المهل ؟ إنه ذردي الزيت المغلي ، أو النحاس المنصهر
المذاب ! ماذا يفعل هذا الطعام الذي يغلي في أمعائك غليان
الجحيم !! إنه يمزقها ، ويظل يغلي فيها كغليان القدر بالماء !!
ما أسوأ حظك أيها المسكون . . !! وما أتعس عيشك ! وما
أشد حسرتك ! حين يقال لزبانية العذاب : خذوا هذا الفاجر
الأثيم أخذًا عنينا ، وجرروه من تلايبه جراً مهينا ، وادفعوه بشدة
إلى سواء الجحيم ووسطها ، حيث تبلغ أعلى درجات
حرارتها ، ثم صبوا فوق رأسه العنيد من عذاب الجحيم ! نعم
صبوا فوق رأسه من الماء المغلي الذي بلغ أقصى درجات
الحرارة !! وأسمعواه عبارات التأنيب والإهانة والتوبريح : «أذق
إنك أنت العزيز الظاهر » . فلطالما جربت هذه العزة المغرورة
في التطاول على ربك وعلى الرسل والمؤمنين ! ولكم أدعوك
أنك عزيز كريم لا تصل إلىك يد الله بالبطش ! فلابن عزتك
الآن وكرامتك ؟ وما الذي ينجيك من هذا اللذ الممرين ؟ !!
أليس هذا هو العذاب الذي كنتم به ت懋رون ؟ ! بلـ . هذا هو

العذاب الذي كتم في الدنيا تشكُّون فيه، وتسخرون منه،
فذوقوه وتمتعوا به !! .

هـ - ما أهنا المتقين وما أكرمهم وما أسعدهم !

أما أولئك الذين اتقوا ربهم في الدنيا، وعملوا حساب هذا
اليوم العصيب، وعاشوا في خشية دائمة، فهم اليوم آمنون، لا
خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهم «في مقام أربين» ونَزَلَ
كريم، يأمونون فيه من كل سوء، وينعمون بكل ألوان السعادة!
ويرفلون في حلل العز والتكريم ! وبكيفهم أهنا وعزنا أنهم في
ضيافة الرحمن «في جنة وعيون»^(١). لقد زرعوا في الدنيا،
وهم الآن يحصدون ! فالجنة نزلتهم، والنعم حياتهم،
يعرحون في حدائق وسباتين مزهرة، وعيون جارية، وظلال
وارفة، يلبسون من حرير الجنة أنواعه، سُندسه وإسترقه،
رفقة وسيكيه ! ويجلسون متأنسين متقابلين متسمرين .

كذلك أكرمناهم، وزوجنهم بمحرر عين^(٢)، كأمثال المؤلِّز
المكتون، كأنهن الياقوت والمرجان حلاوة، وحسناء،
وجمالاً؛ ليتم بهن النعم، وهم في الجنة أصحابها ووارثوها
يُدعون فيها بكل فتكهية «أربين» يطلبون ما يشاءون من الخدم في
أي وقت، لا يجدون في ذلك حرجاً، وقد جمع الله لهم كل
أسباب المتعة والطمأنينة، وراحة البال، والتفكير والتلذذ
والاشتاس، لا ينفعن حياتهم شيء، فلا تعب هناك ولا

(١) سورة الدخان / الآية ٤٦ .

(٢) سورة الدخان / الآية ٤٥ .

وصب، ولا هُمْ ولا نكد، ولا انقطاعً لهدا النعيم الدائم ولا
نهاية، فهم خالدون لا يذوقون موئلاً بعد الموتة الأولى التي
قطعت حياتهم في الدنيا، وَوَقَفُّهُمْ عَذَابَ أَلْجِحِيمٍ^(١)، وتلك وحدتها
نعمه لا تعدلها نعمة، فلقد حفظهم الله ونجاهم من العذاب
تفصيلاً منه ورحمة، فلا نجاة من العذاب إلا بفضلـه
وإحسانـه، ولا استحقاق للنعمـه إلا برحمـته ونـكرـمه، ولا شـكـ
أن النجـاة من العـذـاب، ودخولـ الجـنة هو الفـوز العـظـيم الـذـي
لا فـوز بـعـدهـ.

٦ - تذكير بنعمة القرآن المبشر للذكر :

ويأتي ختام السورة ليلتقي مع بـعـدهـها، مـذـكـراً أن القرآن
الـذـي أـنـزلـ في لـيـلةـ مـبارـكةـ شـائـرـ الكـتبـ السـماـويـةـ التـيـ
تنـزـلـ رـحـمـةـ بـالـعـبـادـ هو نـعـمـةـ كـبـرىـ - بل أـجـلـ النـعـمـ وـأـفـضـلـهاـ،
ولـقـدـ يـسـرـةـ اللهـ لـلـذـكـرـ، وأـنـزلـهـ بـلـسانـ الـعـربـ، كـيـ يـفـهـمـوهـ،
وـيـسـدـبـرـواـ ماـ فـيـهـ وـيـعـظـمـواـ، وـيـتـذـكـرـواـ عـاقـبـةـ أـمـرـهـمـ، فـإـمـاـ أـنـ
يـزـمـنـواـ، وـإـمـاـ أـنـ تـقـومـ الحـجـةـ عـلـيـهـمـ. فـإـذـاـمـ يـهـتـدـواـ،
وـيـسـتـجـبـيـوـ لـكـ يـاـ مـحـمـدـ، فـارـتـقـبـ وـانتـظـرـ هـلـاـكـهـمـ، وـوـعـدـ اللهـ
بـنـصـرـكـ عـلـيـهـمـ، فـإـنـهـمـ مـتـظـرـفـونـ وـمـرـتـقـبـونـ مـاـ يـنـزـلـ بـكـ،
وـسـيـعـلـمـونـ لـمـ تـكـونـ الـغـلـبـةـ وـالـفـوزـ فـيـ الـدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ، فـسـوـءـ
الـعـاقـبـةـ مـصـبـرـهـمـ، وـسـيـنـصـرـكـ اللهـ نـصـرـاـ عـزـيـزاـ!

^(١) سورة الدخان / الآية ٦

سورة الجاثية

تمهيد:

هي إحدى سبع سور تبدأ بقول الله تعالى: «**حَمَّ**»، وهي مكية، وتسمى «سورة الشريعة»^(١)، ولعل ذلك يرجع إلى قول الله تعالى: «**لَمْ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتِّبِعْهَا وَلَا تَنْتَعِ** أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢) وفيها أمر من الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - للمؤمنين معه أن يتبعوا شريعة الله في الدين، ولا يتبعوا آراء الجهال من رؤساء الكفر في قريش؛ لأنها نابعة من الهوى والضلال، بعيدة عن الحق.

وهي كغيرها من السور المكية في تناول أساسيات العقيدة، والكلام عن التوحيد، والرسالة، والبعث، والحساب، والجزاء. ولكنها أبرزت ذلك من خلال عرضها لبعض آيات الله في الكون وفي الأنفس، وتذكيرها بنعم الله والآية التي لا تُفْعَلُ، ولا تُخْصَى، والتي لا يتبغى عصيان المنعم بها. فكل ما في الكون ناطق بوحدانية الله تعالى، وقدرته على الإيجاد والبعث، وحكمته في تقرير العمل والجزاء.

ولقد انتهت - قبلها - سورة «الدخان» بالحديث عن القرآن

(١) زاد المسير في حلم التفسير، لابن الجوزي، دون أن يذكر سبباً للتسمية.

(٢) سورة الجاثية/ الآية ١٨

الكريم، وبيان فضل الله تعالى في تسهيله وتيسيره بلسان عربي؛ للتذكرة والاعتبار، .. ويحصل الحديث عنه في أول سورة «الجاثية» بأن هذا القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم.

وتُعدُّ السورة الكريمة بعض الآيات والشواهد المتشرة في الكون، وَتُوقِّفُ الجاحدين أمام الإبداع في خلق السموات والأرض، وفي خلق البشر والذئاب، وفي تعاقب الليل والنهر، وفي إتلاف المطر، وتقليل الرياح من حال إلى حال، ومن جهة إلى جهة.. وكلها أدلة واضحة، وبراهين ساطعة، على وحدانية الله تعالى، لمن أراد الإيمان، وطلب اليقين، وأعمل عقله تفكيراً وتدبراً في هذا الكون البديع.

وتوضح حال بعض المكابرین المكذبین بالقرآن؛ حين يسمع آيات الله تُتلَى عليه ناطقةً بالحق، ثم يُصرُّ على المكابرة والعناد، كأنه لم يسمع شيئاً، وما لهذا ولأمثاله من علاج إلا العذابُ الأليمُ؛ الذي يُرْدُ إليه إحساسه المفقود، ولكن.. بعد فوات الأوان.

وتُبيّن بعض نعم الله الكثيرة على عباده، والتي سخرها لهم؛ ليحمدوا فضله، ويشكروا نعمته، ولا يكونوا من الغافلين عن واهب النعم.

وترشد إلى بعض فضائل الأخلاق، وتضع قاتلنا في عدالة الجزاء، وتحمّل التبعية، في كل ما يصدر عن الإنسان:
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَنْفَتِي وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا لَمْ إِلَّا رَبُّكَ تَرْجُونَ^(١)،
ونقرر سوء حكم الذين لا يحسنون الفارق الأصيل بين المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وغيرهم من يعملون السيئات؛ ألا ساء ما يحكمون.

وأسوا من هؤلاء من اتخذ إلهه هواه، فلا يتحاكم إلا إليه، ولا يصدر في كل أمره إلا بوجيهه، فهو يعلم الحق ويجد عنه، ليشدة ضلاله، وقوته عناده. فأنى له الهدى وقد ختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة؟!

ثم تلتقي مع سورة «الدخان» - التي قبلها - في الحديث عن: تفضيل الله لبني إسرائيل على عالم زمانهم، و موقفهم المخزي من هذا التكريم، و اختلافهم في أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - و شريعته، بعد ما جاءهم العلم، بغيا و اختلافا، و تحريرا، و حسدا.

وتتحدث السورة الكريمة عن استبعاد العشرة في الساعة، وشكوكهم في أمر البعث بعد الموت، و توجههم في طلب الدليل على ذلك بإحياء آبائهم؛ حتى يصدقوا ويؤمنوا، وتضع أمامهم بعض الأدلة، ولكنهم عنها غافلون.

(١) سورة الحلقان / الآية ١٥

وتفرد سورة «الجاثية» في هذا الشأن بذكر نوع من المنكرين المعاندين الذين يُنْبِئُونَ كل شيء إلى الدهر والزمان، ويُطلقُ عليهم (الدُّهْرِيُّونَ) وهؤلاء ينكرون وجود الله تعالى أصلاً: «وَقَالُوا مَهِيَ إِلَّا جَاهَنَّمُ الَّذِي تَعْرَضُ وَتَحْيَا وَمَا يَهِلُّكُنَّ إِلَّا
الْدُّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ لَا يَطْعَنُونَ»^(١) .

وسيجمع الله كل الخلق لحسابهم في يوم لا ريب فيه، هو يوم القيمة، يوم الفصل.

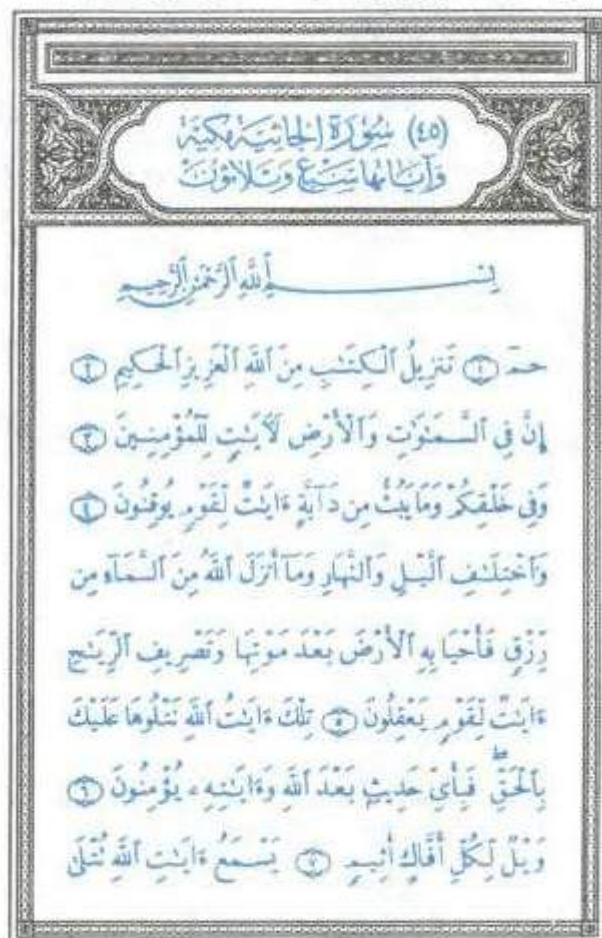
ومرة أخرى تتحدث السورة الكريمة عن عدالة الجزاء، فكل شيء مسجل في كتاب ينطق بالحق؛ يُعَدَّ على الناس أعمالهم، ويواجههم بكل تصرفاتهم ومواقفهم في الدنيا، وسيكون ذلك في يوم شديد الهول.. يُجْزَوُ فيه أفراد كل أمة على رُكِّبِهم؛ انتظاراً لما ينجلِي عنه موقف الرهيب.. فريق في الجنة، وفريق في السعير.

وبأتي ختام السورة؛ ليُشَعِّي في الكون كله نعمة الإرشاد إلى حمد الله رب العالمين، فهو وحده الذي يستحق العبادة والحمد، والتجسد والتعظيم، وله وحده العظمة والسلطان، والكثيريات.. في السموات والأرض «وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ»^(٢) .

* * *

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١١ من سورة الجاثية



طَبَّهُمْ بِصَرٍ مُنْكِرًا كَانُوا لَيْسُوا هُنَّا فَبِشِّرُهُ بِعَذَابٍ
 أَلِيمٍ ④ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ إِيمَانَنَا شَيْئًا أَخْذَنَا هُنُّا
 أَوْلَئِكَ لَمْ يُمْلَأُ عَذَابُهُنَّ ⑤ مِنْ وَدَّاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا
 يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَبَرُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 أَوْلَيَاءٌ وَلَمْ يُمْلَأُ عَذَابُهُنَّ ⑥ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنَّهُمْ لَمْ يُمْلَأُ عَذَابُهُنَّ وَلَزِرَالِيمُ ⑦

معاني الكلمات والجمل

حَمَّةٌ : حروفٌ هجائية للتحدى ، وابتات
 إعجاز القرآن ، والله أعلم بمراده
 منها .

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ : القرآن مُنْزَلٌ من الله ، العزيز في
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مُلكه ، الحكيم في صُنعه .
لَا يَنْتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ : لأدلة على وحدانية الله وقدرته ،
 يقتنع بها المؤمنون ويزدادون يقيناً .

وَفِي خَلْقِكُمْ

: في أحوال خلقكم المختلفة متداة

نحوتكم في الأرحام إلى موتكم.

وَمَا يَبْثُثُ مِنْ دَآيَةٍ

: وفي خلق ما يُعرفه الله في الأرض

وينشره من كل ما يدب فوقها من

الحيوانات.

يُوقُونُ

: يؤمنون إيماناً قوياً بوحدانية الله رب

العالمين وقدرته.

مِنْ رِزْقِ

: من مطر يكون سبب الرزق.

فَأَخْبَابُهُ الْأَرْضُ بَعْدَ

: بعث فيها الحياة والخصب، فابتلى

بعد ما كانت ميتة مقبرة هامدة.

مَوْتَهَا

تَغْيِيرِ بَعْضِ الْأَرْبَعَ

: تغيير اتجاهها وتمهيلها وأحوالها من

حارة إلى باردة، ومن هادئة إلى

عاصرة، ومن ضارة إلى نافعة.

تَلَكَّ ءَايَتُ اللَّهِ

: هذه آيات القرآن الكريم.

تَتَلَوُهَا عَلَيْكَ يَا لَكُنَّ

: نقصها عليك يا محمد بالحق

المبين، والصدق الذي لا يشوهه

باطل أو كذب.

تَلَكَّ ءَايَتُ اللَّهِ

: فبأي كلام بعد حديث الله، وبعد

أدليه الواضحة يؤمنون ويصدقون؟.

وَإِلَيْهِ يُؤْمِنُونَ ؟

وَبَلِّ تِكْلِ أَفَالِكَ أَبِسِ

: هلاك وعذاب شديد لكل أفالك كثير

الكذب والآثم.

- يُصْرُّ مُنْكِرًا** : يُقيم على الكفر ويلازمه ويتمادي فيه متعاظماً على الإيمان.
- فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** : أبته بعذاب شديد الألم (أسلوب في التهكم).
- أَعْنَدَهَا هُزُوا** : جعلها محل سخرية، وموضع استهزاء.
- مِنْ وَرَآءِ يَوْمٍ جَهَنَّمُ** : من أمامهم جهنم تنتظر قدوتهم.
- وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا** : لا ينفعهم ما كسبوا من مال وولد شيئاً ولا يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله.
- أُولَئِكَ** : نصراء، والمراد بذلك معبداتهم الباطلة.
- هَذَا هُدَى** : هذا القرآن هدى للمهتدين به من الصلاة.
- عَذَابٌ مِّنْ رَّبِّكَ** : عذاب من أشد أنواع العذاب.

الشرح

١ - الحروف المقطعة في مطلع السورة.

افتتاح السورة الكريمة بالحروفين (حا، . ميم) تقدم الكلام عنه، وعمما فيه من غرابة الاستهلال، وتنبيه السامعين إلى

إعجاز القرآن الكريم، برغم أنه مكون من مثل هذه الأحرف التي يُكُونُون منها كلاماً لهم، وليس في قدرتهم أن يأتوا بمثله. وأنى لهم أن يأتوا بمثله، وهو كتاب مُنْزَلٌ من الله العزيز القاهر فوق عباده، الحكيم في أفعاله، فلا يُصْدُر عنده إلا كل ما فيه حكمة ومصلحة للعباد؟ فهو عزيز في مُلْكِه، حكيم في صُنْعِه. وفي ذلك دلالة على شرف القرآن، وكمال قدره «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيبَتَا»^(١)

٢ - بعض آيات الله في الآفاق والآنس

أ - آيات الله في خلق السموات والأرض: قال تعالى:

«نَخْلُقُ الْمَمَوتَ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ»^(٢) .. نعم، إنه لخلق هائل إذا تأمله الإنسان بعين بصيرته استشعر عظمة الله وقدرته، وأحسن أن يحب عليه أن يُطاعين من كبرياته ، ويكتُفُ من غلوائه؛ ولذلك يلفت الله نظر هذا الإنسان؛ ليُدرك خُجُمه بين مخلوقات الله العظيمة، فيقول: «أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقَ اُمَّةَ سَبَّهَا»^(٣) رفع سمعكها فسُورُها^(٤) .. ويقول تعالى: «وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحَّاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ أَلْجَابَ الْمُرْلَأَ»^(٥) .. فهذا الكون بسمواته وأرضه كتاب مفتوح، يقرأ الإنسان في كل صفحة منه آياتٍ وأياتٍ .. خَرِيَّةٌ أن تُطبق لسانه وقلبه

(١) سورة النساء / الآية ٦٧، ٢٧٩

(٢) سورة الأسرار / الآية ٣٧

(٣) سورة النساء / الآية ٦٧

(٤) سورة العنكبوت / الآية ٣٧

بذكر الله وتمجيده، فهو الذي أبدع في خلق السموات والأرض إبداعاً يجلُّ عن الوصف، وماذا في السموات والأرض لا يستثير العجب، ولا يسقطر القلوب والعقول والعيون، ولا يخلب الألباب؟ ولذلك .. يستحث الله تعالى العقلاء أن يتأملوا هذا الخلق، فهو وحده كفيل أن يصل الإنسان بخالقه، ويدله على رازقه، قال تعالى: «قَلِيلٌ أَنْظُرُوا مَا دَارَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغَنِّي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ»^(١). إن في السموات والأرض آيات ناطقات بعظمة هذا الخلق وضخامته، وبدفع صُنعه، ودفع نظامه وإحكامه، وروعة جماله وتناسقه، كما تشير إلى يد القدرة التي أوجده من العدم، ثم توالت حفظه ورعايته حتى لا ينفرط عقده.

لكن هذه البراهين الساطعة، والآيات الباهرة الدالة دلالة قاطعة على وحدانية الله تعالى ، وكمال قدرته - لا يحسها ويستشعرها إلا المؤمنون الذين صفت نفوسهم، ورفقت أفنائهم، واستنارت بنور الله .

بـ - آيات في خلق الإنسان وما يدب على الأرض من مخلوقات: وفي خلقكم وتكونيكم آيات قدرتنا، إذ خلقناكم من نطفة، ثم من علقة، تتقلب في أطوار مختلفة، تتسامي بها يد الله القادر؛ حتى تصير إنساناً، في أحسن صورة،

(١) سورة يس / الآية ١١٥

وأعجِّبِ تركيبِ في الجسم، وأعْقَدِ تكوينِ في النفس،
وأبرعِ نادِيَةً للوظائف، وتعاملِ مع الحياة.. حرَكة،
وابتكاراً، وإعماراً، وتكراراً، ومواكبةً لـكل عصرٍ وفن.. إنه
الإنسان المخلوق في أحسنِ تقويمٍ، وأجملِ صورة؟
المستحقُ لـتكريمِ الله إذا ما عَرَفَ طريقَ الله! إنه صَنَعَ الله..
ومنْ أَحْسَنَ منَ الله صُنْعًا؟!

وكذلك.. هناك آيات قدرتنا في كل ما يدب على الأرض
من آلاف الآلاف من الحيوانات والحيثارات المنتشرة في
الأحراس والغابات، والمحيطات والبحار، وفي الصحراء
والجبال، والأجراء والفضاء، وفي كل مختلف الاجتاس
والأنواع والأشكال والألوان، ويد الله القادر تحرَّكها وتزودُها
بالغذاء والحياة، وتضع فيها وظائفٍ تؤديها، وغرائزٍ تحرَّكها
للدفاع عن نفسها.. وبناءً أعشاشها وجُحورها، واحتضانٍ
بيضها، وإطعام أولادها، وفي ذلك آياتٌ باهرة، تؤدي إلى
اليقين لـمَنْ كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، فيتأنَّ
ويُبَيِّبُ، ويؤمن ويستقيم، ويشهد بأنَ الله تعالى هو الخالق
القادر الحكيم.

جـ- في اختلاف الليل والنهار آيات: لا يشك عاقل في
أنَ الله تعالى هو فاتح الإِصْبَاحِ، وقد جعل الليل سكناً
ولباساً، والنهار نشاطاً ومعاشاً. وفي اختلاف الليل والنهار

آياتُ قدرة، ودلائلُ عظمة، تُبهر العقل المفكِّر... ففي
نَعْفُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفاوتُهُمَا فِي الطُّولِ وَالْقِصْرِ، وَتَدَخُلِ
زَمْنٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضِ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ وَفِي طَلُوعِ الشَّمْسِ فِي
النَّهَارِ؛ لِلْحُرْكَةِ وَالْإِنْتَاجِ وَالسَّعْيِ، وَظَهُورِ الْقَمَرِ فِي اللَّيلِ؛
لِيَتَنَاسَبَ مَعَ الْاسْتِقْرَارِ وَالرَّاحَةِ - نَمْوَذْجٌ مِنَ النَّسْطَامِ الْمَعْجَزِ
الَّذِي لَا يَتَغَيِّرُ، وَآيَةً لِابْدَاعِ يَدِ اللَّهِ الْفَادِرَةِ: **وَأَيَّاهُ هُمُ الْأَيْلُونُ**
مِنْهُمْ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ① **وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِمُسْتَقْرَرٍ فَذَلِكَ تَقْدِيرُ**
الْعَزِيزِ الْعَلِيِّ ② **وَالْقَمَرُ قَدَرَتْهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونِ الْقَدِيمِ** ③
لَا أَشْعَسْ يَنْبَغِي لَمَّا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرُ وَلَا أَيْلُونُ سَاقِ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي قَلْبِكِ
يَسِّحُونَ ④ . وَبِذَلِكَ تَنَتَّطِمُ حَرْكَةُ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ.

وَحدَوْتُ اللَّيلِ وَالنَّهَارَ مِرْتَبِي بِتَرْتِيبَاتِ دُقَيْقَةٍ، وَنَوَامِيسٍ
عَجِيْبَةٍ، فَلَوْلَا دُورَانُ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا مَرَّةً فِي كُلِّ أَرْبَعِ
وَعَشْرِينَ سَاعَةً - مَا كَانَ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ. فَمِنَ الذِّي كَتَرَهَا
وَصُورَهَا، وَأَدارَهَا بِهَذِهِ السَّرْعَةِ، وَعَلَقَهَا فِي الْفَضَاءِ، وَرَبَطَ
دُورَتَهَا بِالشَّمْسِ؟ إِنَّهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ! وَصَدِقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ
إِذْ يَقُولُ: **وَجَعَلْنَا أَيْلُونَ وَالنَّهَارَ إِيَّاهُنَّ فَحَوَّلْنَا إِيَّاهُ أَيَّهُ**
النَّهَارَ مُبِعْرَةً لِتَبَغُورًا فَضْلًا مِنْ رِبِّكَ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ أَلْيَاهِنَّ وَالْمِحَابِ
وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَصَلَتْهُ تَعْصِبَلًا ⑤ .

د - آياتُ اللهِ فِي الْأَمْطَارِ وَالرِّيَاحِ: إِنَّهُ سُرُّ الْحَيَاةِ، لَا
حَيَاةٌ بِدُونِهِ لِإِنْسَانٍ، أَوْ حَيْوانٍ، أَوْ نَبَاتٍ، وَيُسَمِّيهِ اللَّهُ تَعَالَى

في الآية رزقاً: «وَمَا أَرْزَكَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ»^(١)؛ لأنَّه سبب الرزق والخير.

ولكن ما ينزل من السماء من رزق لا يقتصر على المطر وحده كما يرى الأستاذ سيد قطب - رحمه الله، حيث يقول: «ولكن رزق السماء أوسعُ، فهذه الأشعةُ التي تنزل من السماء ليست أقلَّ أناً في إحياء الأرض من الماء، بل إنَّها تحييَ التي ينشأ عنها الماء بإذن الله، فحرارةُ الشمس هي التي تبخر الماء، من البحار، فتكتافئ وتنزل أمطاراً، وتجري عيوناً وأنهاراً، وتحيا بها الأرض بعد موتها، تحيا بالماء، وتحيا بالحرارة والضياء سواء»^(٢).

فالأرض بما ينزل من السماء من مطر؛ تُبَتَّ بعْدَ جَنَاحِ، وتحصُب بعْدَ قَفْرٍ، وتحيا بعْدَ مَوَاتٍ، وتتجوَّدُ علَيْها السماء بما يكون سبباً في حياة المزروعات والأشجار، ونُضُج الشمار، وبما هو من عوامل الخصب، ومكونات النماء: من الماء، والحرارة، والضياء، والأشعة؛ ليُصْبِحَ رزقاً من واهب النعم والأرزاق !!

وصلة الرياح بالأمطار معلومة، قاله تعالى هو الذي يُرسِّل الرياح فتشير سحاباً، كما يرسلها بُشْرَى بين يَدَيْ رَحْمَتِهِ، قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الْرِّينَاحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفَلَتْ حَبَّابَةٌ نَّعَالًا مُّفْتَنَةٌ لَّيْلَدِ مِيتٍ فَازَنَا بِهِ الْمَاءُ فَانْرَجَنَا بِهِ مِنْ

(١) سورة الحجّة / الآية ٤

(٢) سورة فاطحة القرآن - تفسير سورة الحجّة

كُلِّ الْمُرْكَبٍ كَذَلِكَ تُخْرِجُ الْمَوْيَنَ لَعَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ^(١). فقدرة الله تعالى تظهر في تقليل الرياح شمالي وجنوبياً، وشرقاً وغرباً، وتصريفها قوية عاصفة، ونيماً علىلاً، ودافئة وباردة، وناقلة للقاح، ومُسيرة للسفن، ومُرجحة للسحب، و مجالاً للطير والطيران. وأحوال الرياح هذه - كما المع إلى ذلك تفسير (في ظلال القرآن) - لها اتصال باختلاف الليل والنهار، ودوران الأرض، وبالرزق الذي ينزل من جهة السماء، وكلها آيات باهرة، وأدلة قاطعة لمن يعقلون ويتفكرون في خلق الله، فيؤمنون بوحدة الخالق القادر، ويزدادون علمًا وثباتاً ويقيتاً.

هذه بعض آيات الله الكوفية الدالة على وحدانيته وقدرته، الناطقة بما فيها من أثر الحكمة والإبداع، تلوها ونقضها عليك يا محمد في آيات القرآن الموحية المتضمنة للحق المبين، المؤيد بالمشاهد الحسية، ومنطق العقل السليم؛ ليزداد بها إيمان المؤمنين، ويستيقن بها طلاب الحق واليقين، ويجهد في معرفة أسرارها والانتفاع بها أصحاب العقول.

إن الله أنزل في القرآن أحسن الحديث، وفيه الأدلة والأيات الواضحة؛ لكي يصدق هؤلاء القوم ويؤمنوا، فإذا لم يصدق كفار مكة بكلام الله، ويؤمنوا بأياته البينات؛ فبأي

(١) سورة الأنفال / الآية ٧٧.

حديث بعد الله وآياته يؤمنون ويصدقون؟! فهل هناك كلام
أبلغ تأثيراً من كلام الله؟ وهل هناك إتقان وإبداع أعظم مما
شاهد في خلق الله؟ وهل هناك حقيقة أثبت وأوضح وأصدق
من وجود الله؟ .. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

٣ - الويل لكل أفاك أثيم :

ويل لمن ختم الله على قلبه، وحجب الشور عن عقله
ولبّه، وأسلمه إلى الشيطان، فبغضه في الهدى والإيمان،
وحبّ إليه الكفر والفسق والعصيان، واستمرأة الكذب على
الله ورسوله؛ حتى صار أفاكاً أثيمًا، خالط الكلب والإثم
شغاف قلبه، وملا الشر جوانح نفسه، حتى جعله يُصرُّ على
الباطل، وينفر من الحق، فنراه يسمع آيات الله البينات تُتلّى
عليه فلا يتأثر ولا يهتز، ولا يخشى ولا يُنكب، بل إنها تزيده
إصراراً على الكفر، وتماديًّا في العناد، وتعاظمًا على القرآن،
كانه لم يسمع شيئاً، عجباً لأمره!! يسمع آيات الله التي لو
أنزلت على جبل لخرّ خاشعاً من حشية الله، فيقابلها بـ عدم
الاكتراش مستعلياً على كلام الله!! متکبراً عن الانقياد
للحق!!

روي أنها نزلت في (النَّضْرِ بِنَ الْحَارِثِ) كان يشتري
أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها؛ ليصرفهم عن سماع
القرآن الكريم . ومنْ كانت هذه صفاتك، فأخْبِرْهُ هو ومنْ على

شاكِلته بعذاب شديد مؤلمٍ غايةَ الالم، وبشره بتلك العاقبة،
مع أن المسكين لم يسمع بشارة ولا غيرها ساراً، وإنما سمع
الوعيد بالعذاب الاليم، يسوقه إليه من يسخر منه مبشرًا إيه
بالويل والثبور.

فما آلها من بشاره لا تحمل إلا التهديد والوعيد من الله
القاهر ذي البطش الشديد ! فويل ثم ويل لكل أفالك أئيم في
كل زمان ومكان - حين يسمع آيات الله تللي عليه؛ فيتعالى
متذكراً كأن لم يسمعها . « وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً أَخْهَدَهَا
هُرُواً »^(١) وجعلها مجالاً للسخرية ، ومادة للاستهزاء ، وليس
لهذا ولأمثاله - إلا عذاب مهين ، فيه المهانة والاحتقار ، وفيه
الذلة والصغار ، جزاء التعالي والاستكبار ، وجزاء الاستهزاء
بآيات الله والاستهان .

على أن هذه الآيات الكريمة وإن كانت تصف واقعة حال حدثت من كفار مكة إلا أن حكمها يجري على كل من سلك هذا المسلك الساخر المستهرج بآيات الله من المسلمين الذين يجرهم الشيطان إلى هذا المزلق الخطير، ويغريهم بالتعريض ببعض أحكام الله، أو التنكيد على ملائكة الله ، ورسل الله أو على الصالحين الملتزمين بشرع الله ، سواء حدث منهم في مجال الكتابة ، أو التمثيل ، أو الأشعار ، أو التنطرف في المجالس .

الطبعة الأولى / موسى (١)

(٢) روى أنها مرت في يوم الجمعة، أمه الله، معين بزل واد شرارة المزقون حطم الآية، دعا عمار وزربه، وقال للألاعيب ترقصوا، يهدنا محمد أن في شهر المزقون، وإياكم على تزويج زلاليه والثمر، وحسن مرت معلتها سنتها عشرة، قال: إن كان حزينة يوم سمعه شعر ثانى المذاهب وسدي.

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن العبد يتكلّم بالكلمة ما يتّبّع ما فيها، يهوي بها في النار أعدّ ما بين المشرق والمغارِب»^(١).

ألا فليعلم هؤلاء بأن هذه السخرية بآيات الله تستدفع بهم إلى جهنّم وبش المصير «مَنْ وَرَأَ إِيمَانَ جَهَنَّمْ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسُوا إِثْيَابًا»، فلقد قضى الله بعذابهم، ولن يفوتهم سعير الجحيم، يُلْقَوْنَ فيه بمهانة وإذلال، ولن ينفعهم ما جعوا من مال، وما أذخروا من ثراث اكتسبوه في الدنيا، كان سبباً في استعلانهم وتكثيرهم على آيات الله. كما لا ينفعهم من العذاب أصنام عبدوها، أو أنصاراً وأولئك اخذوه من دون الله؛ ليكونوا شفاعة لهم. بل إن الله قد أعد لهم العذاب العظيم، إنه عذاب مهين مذلة لكرياتهم، وعظيم يتناسب مع عظم الجُرم الذي ارتكبوه في حياتهم وفي حق ربهم.

وبعد.. فإن هذا القرآن هدى صرف، وحق مخصوص.. تعالى الله عن أن يوجّه عباده إلى ضلال، أو يشوب كلامه باطل.. بل إن كل من ابتغى الهدى في غيره أصله الله، فهو كامل في هدایته إلى الحق لمن آمن به. أما الذين جحدوه وأنكروا آيات ربهم، فما أشقاهم بهذا الوعيد! «لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ رَبِّهِمْ»، وهو أشد أنواع العذاب إيلات يوم القيمة.

(١) الحديث رقم ٢٩١ من مختصر صحيح سلم

(٢)
من الآية ١٢ إلى الآية ٢٠ من سورة الجاثية

* اللَّهُ الَّذِي خَرَكَ الْبَرَّ حَتَّىٰ النُّكُفُورُ فِيهِ يَأْمُرُوهُ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ ⑯ وَخَرَ
لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِبِيلًا مِنْهُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَهِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑰ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا
يَقْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِي قَوْمًا عِمَّا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ⑱ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَنْفَرِيهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهِ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑲ وَلَقَدْ هَادَيْنَا بِهِ
إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ⑳ وَهَادَيْنَاهُمْ
بِيَنَتِنَتِ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْلَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْعِلْمُ بِغَايَا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَعْفُو عَنْهُمْ بِعِمَّ الْقِنْعَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْلِقُونَ ㉑ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ

الْأَمْرِ فَاتِّهَا وَلَا تَنْبَغِي أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ⑯
 إِنَّمَا لَنْ يَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بِعِصْمِهِمْ
 أُولَئِكَ بَعِضُهُ وَاللَّهُ أَوْلَى الْمُتَقْبِلِينَ ⑰ هَذَا بَصَرَتِ النَّاسِ
 وَهَذِي وَرَحْمَةُ اللَّهِ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ ⑱

معاني الكلمات والجمل

خَرَّكُ الْبَحْرُ : ذللهم لكم، وأخضعه وهبكم.

لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ يَأْمُرُهُ : تسير السفن فيه بإذنه تعالى وقدرته.
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ قَضْلِهِ : ولتطلبوا من فضل الله بالتجارة
والغوص والصيد.

جَيْعَانِتِهِ : كل ذلك رحمة منه بعباده وإنعام
عليهم.

يَغْفِرُوا : يصفحوا ويسامحوا.
لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ : لا يخافون بأس الله وعقابه؛ لأنهم
لا يأملون نصر الله لأوليائه، وإيقاعه
باعدائهم؛ لعدم إيمانهم.

فَلَنْقَسَهُ	: فتفعه لنفسه.
فَعَلَيْهَا	: فصرره عائد عليها.
الْكِتَبَ	: التوراة والإنجيل.
الْحُكْمَ	: الحكمة والفهم فيما جاء في الكتاب، أو الحكم بين الناس.
النُّبُوَّةُ	: جعلنا منهم أنبياء ومرسلين من وقت (يوسف) إلى زمن عيسى عليهما السلام.
وَفَضَّلْتُهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ	: وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم.
بِتَّشَرَّتِ مِنَ الْأَمْرِ	: معجزات باهرة، وأدلة واضحة في أحكام الدين، وأمر خاتم الرسل، يثبت نبوته وصدقه.
بِغَيْرِ بَيْتِهِمْ	: حسدًا وعداوة وظلمًا.
شَرِيعَةٌ مِنَ الْأَمْرِ	: طريقة ومنهاج من أمر الدين.
أَهْوَاءُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ	: آراء الجهل من كفار قريش الصادرة عن أهوائهم وشهوات أنفسهم.
إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنِوا عَنْكَ	: لن يدفعوا عنك شيئاً مما أراده الله بك.
بِعُضِهِمْ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ	: يتولى بعضهم بعضاً ويتناحرن.

هذا

الشريعة.

بَصَرٌ لِّلنَّاسِ

الصلاح والنجاح.

الشرح

١ - من نعم الله على عباده وأثار فضله عليهم:

بعد أن هدد الله الجاحدين لآياته وتوعدهم، أخذ يذكرهم بنعمه العظيمة، ليشكروه ويؤودوه، فمن فضل الله عليهم وعلى الناس ورحمته بخلقه، أن سخر البحار، مع اتساعها وعمقها وخطرها؛ لتكون في خدمتهم، يتلقون بها في توافر متعددة، وأصحاب البيئة البحرية يقدرون ارتباط حياتهم بالبحر ومتوجهاته، فهم يجوبونه على سفن تفخر عباده بمشيئة الله وإرادته، لا يحميهم ولا يحرسهم إلا الله، وبجانب البحر تزوج صناعة السفن مصدر رزق لصناعتها، وصيد المؤلخ والغوص عليه ثروة لطلابه، ويطلب الإنسان فضل الله فرق ظهر هذا الجبار متنقلًا من بلد إلى آخر - للتجارة، وصيد الأسماك، واستخراج الإسفنج، واستخلاص الملح والمعادن، وممارسة بعض أنواع الرياضة والتزلج.

فأله - سبحانه وتعالى - تفضل على الناس، وأنعم عليهم، وهداهم إلى الاتقاء بتطبيع البحر لهم، وتذليله لخدمتهم

وأرزاقهم ومعاشهم؛ حتى يشكروا ربهم واهب النعم، ولا يجحدوا فضله وكرمه وإحسانه، ولو لا ما أودعه الله تعالى من نواميس الكون التي تحكم العالم وتنظمه وتوجهه لاداء ما خلق لأجله - ما صلحت الحياة ولا استقامت - ولو لا ما فتح الله به على الإنسان من معرفة شيءٍ من أسرار هذه الفسائين - ما تمكن من الانتفاع بشيءٍ من هذه المخلوقات الهائلة التي يقف بجوارها هريراً ضعيفاً قليلاً الحيلة - فسبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مُقرّبين !

فأللهم - سبحانه وتعالى - هو الذي سخر لكم كلَّ ما في الكون لمنفعتكم، فكلَّ ما فيه من فعله وخلقته، وإحساناته عليكم، فالسماء وما فيها من نجوم وكواكب، ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، ويعرفوا عدد السنين والحساب: فالشمس تمدهم بالحرارة والضوء، وتُنير الماء، فتكوُن السحب والأمطار، والقمر يضي ليلاً، ويبسط على الوجود سحراً لا حدود له، ويؤثر في مَدَّ البحار وجزرها، والهواء لا يستغني عنه الإنسان والحيوان والنبات. والكرة الأرضية التي عليها معashهم، وتعلق بها مصالحهم . . زودها الله بكل ما يلزم لحياتهم من الرياح، والأمطار، والجبال، والبحار، والأنهار، والحيوان، والزروع، والمعادن.

ثم نحط آية الحكمة بخلق هذا الإنسان المفكِّر مزوًدا

بطاقات واستعدادات لولاتها ما قامت في الأرض حضارة، وما ظهرت حكمة الله في خلقه البديع.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ»^(١)، نعم، إنها آيات دالة على الصانع الحكيم، وإنها لمجال للعبرة والعظة لقوم يتأملون في بديع صنع الله، ويدركون فضله، ويحسون بعمق فتجد عقولهم السليمة طريقها للاستدلال على قدرة الله تعالى والإيمان به، والإقرار له بالتوحيد، ووجوب الطاعة والعبادة.

٢ - إرشاد المؤمنين إلى بعض الفضائل :

لما بين الله تعالى دلائل التوحيد والقدرة، أتبعه بإرشاد المؤمنين إلى بعض فضائل الأخلاق، إلى حُلُق العفو والصفح والتسامح مع الذين لا يخسرون بأس الله، ولا يخافون لقاءه. فالمؤمنون أقوية الإيمان، أقوية النفس والأخلاق، يتتجاوزون عن سمات الجاهلين إذا أصابهم منهم مكره؛ لأنهم لمزيد غفلتهم الآن يؤمنون عقاب الله، ولا يتوقعون إيقاعه بأعدائه.

ولقد ورد في سبب نزول الآية الكريمة ما رُويَ عن ابن عباس من قوله:

(١) سورة الحجية / الآية ٦٣

«خرج المسلمون في غزوة بني المصطلق، وفيهم النبي -
 صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر - رضي الله عنهما -،
 وبينهم (عبد الله بن أبي) رأس المنافقين، وزرلوا على بشر ماء،
 يُقال لها: المرّيسع، فارسل ابن أبي غلامه؛ ليستقي، فابطأ
 عليه، ولما رجع قال له: ما حبستك؟ قال: غلام عمر بن
 الخطاب، قعد على فم البئر، فماترك أحداً يستقي حتى ملا
 قرب النبي - صلى الله عليه وسلم - وقرب أبي بكر، وملا
 لمواء... فقال عبد الله بن أبي: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما
 قبل: سمن كلبك يأكلك. فبلغ قوله هذا عمر بن الخطاب -
 رضي الله عنه - فاشتمل على سيفه، يريد التوجة إليه،
 ليقتلها، فأنزل الله تعالى: « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لَدِينَ لَا
 يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ »^(١).

قل يا بها النبي للذين آمنوا بالله ورسوله: اصفحوا
 وأعرضوا عن هؤلاء الذين لا يخافون بأس الله ونقمه، ولا
 يخشون مثل عذاب الأمم السابقة، ومُرثُمُهم أن يغفر لهم
 تجاوزهم وجرائمهم على الله، وألا يواحدوهم بما قالوا أو
 فعلوا، لأن الله تعالى سيجزي المؤمنين بأعمالهم الصالحة،
 وبخاصة الصبر، والحلم، وكظم الغيظ، وبعنة الصدر مع
 المتطاولين والجهال، وتترك الأمر لله سبحانه وتعالى؛ ليتولى
 بعدهم جرائم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. والكلام فيه

(١) سورة الحاديت الآية ١٤.

معالِم التهديد والوعيد للكفّرة المُجْرِمِينَ حِينَ يَحْاْزِيْهِمْ
رِبِّهِمْ بِمَا افْتَرُوهُ مِنَ الْإِثْمِ وَالْأَجْرَامِ .

ولعل الصفع أحياناً يقع في مناسبه فيعالج أمراض
النفس، ويصلح عللها، ويقوّم معوجها، ويردها من جمومها
وشرودها، فتكون فيه الهدایة. ولكن.. لا يجوز الصفع عن
الذين يُعْتَدُونَ على حدود الله وشريانه، وعمن يُجْرِّنُهم
الصفع على الظلم والإفساد في الأرض.

٣ - تحمل مسؤولية العمل وعدالة الجزاء:

ثم رَغْبَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَحَذَرَ مِنْ غَيْرِهَا
، قَنْ يَعْمَلَ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفَّارَانَ لِسَعْيِهِ، وَإِنَّا لَهُ
كَنْتِبُونَ^(١)، (٢). وَمَنْ فَعَلَ خَيْرًا فِي الدُّنْيَا فَنَفَعَهُ سَيِّعُودُ عَلَيْهِ، وَمَنْ
عَمِلَ سَيِّئًا وَعَصَى رَبِّهِ فَوِيْبَالُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَكُلُّ يَتَحَمَّلُ مَسْؤُلِيَّة
عَمَلِهِ، وَكُلُّ امْرَى بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ، إِنْ عَمِلَ خَيْرًا فَجَزَاؤُهُ
خَيْرٌ، وَإِنْ عَمِلَ شَرًا فَجَزَاؤُهُ شَرٌّ، وَسَيَلْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءَهُ
عَلَى عَمَلِهِ، فَالْمَرْجُعُ وَالْعَالَى إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَحْسَبَ النَّاسُ
عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَجْازِيْهِمْ بِالسُّوءِ سُوءًا، وَبِالْإِحْسَانِ
إِحْسَانًا، .. عَدْلَ اللَّهِ فِي الْحِسَابِ، وَعَدْلَةُ فِي الْجَزَاءِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفَسُهُمْ يَظْلِمُونَ^(٣) .

(١) سورة الأنبياء / الآية ٩٤

(٢) سورة الأنبياء / الآية ٩٥

٤ - بنو إسرائيل جاحدون لفضل الله:

ثم يخفي الله تعالى عن نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ما يخفي من قومه، ببيان أن هذا خاتمة من بعض الأمم مع أنبيائهم فيما سبق من الزمان، فلقد أرسلنا (موسى) إلى بني إسرائيل وفضلنا عليهم بالتوراة والإنجيل، وعلمناهم شريعة الله وفهم أحكامه، وجعلنا فيهم الفصل بين الناس والحكم بينهم، وكان منهم أنبياء كثيرون، ورزقناهم أطيب النعم وحالاتها، من المأكولات والمشابب، والأقواف والشمار، وأنزلنا عليهم المن والسلوى، وفضلناهم على سائر الأمم التي كانت تعيش في زمانهم، ومنحناهم النصر والتأييد حين اتجاههم من فرعون وجندوه، وأغرقتنا عدوهم أمام أعينهم، واخترناهم لقيادة غيرهم بشريعة الله، وبتنا لهم في التوراة والإنجيل أمر هذه الشريعة بوضوح لا غموض فيه ولا لبس، وأفخر نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأدلة واضحة على صدق رسالته، لا يعوج فيها ولا التواء، فما اختلفوا في ذلك الأمر إلا بعد أن جاءهم اليقين بشهادته، وثبتت الأدلة القاطعة على نبوته، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر.. بعدها وحضاً؛ لأن الرسول جاء من غيرهم، «ولما جاءهم كتب من عند الله مصدق لما معهم» و كانوا من قبل يستخفون على الذين كفروا

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكُفَّارِ إِنَّمَا يَنْهَا فَكَانَتْ تَنَازُّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمُ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ - طَلَبًا لِلرِّبَاسِةِ، وَبَعْدًا مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ؛ حَتَّى قُتِلُوا أَنْيَاءَهُمْ «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهَا كَانُوا فِيهِ مُخْلِفُونَ»^(١) إِنْ مَرْدُهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَأَمْرُهُمْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فِي الدُّنْيَا.. فَاحذِرُوا يَا أَهْلَ مَكَةَ أَنْ تَهْجُوا نَهْجَهُمْ، وَتَسْلُكُوا مُسْلِكَهُمْ فِي الْبَغْيِ وَالْسُّطْفَيَانِ.. فَالْقِيَامَةُ آتِيَّةٌ يَقْضِي اللَّهُ فِيهَا بَيْنَ الْمُحْقِنِ وَالْمُبْطَلِ، وَمَا رَبَّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ.

٥ - شريعة الله أحق بالاتباع :

ثُمَّ بَعْثَانَكَ يَا مُحَمَّدَ.. بَعْدَ نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ - رَسُولًا لِلْعَالَمِينَ، وَجَعَلْنَا لَكَ شَرِيعَةً مِنْ أَمْرِ الدِّينِ مَوْصَلَةً إِلَى الْحَقِّ، وَمِنْهَا جَاءَ رِبَانِيَا وَاضْحَى سَدِيدَا، وَصَرَاطُهَا سَتَقِيمَا رَشِيدَا، يَسْلُكُ بِكَ وَبِأَتِيَاعِكَ سَبِيلَ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ.. فَاتَّبِعْ شَرِيعَةَ اللَّهِ، وَنَفْذْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ الْقَيِيمِ، وَإِلَيْكَ أَنْ تُفْتَنَ بِأَهْوَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّهَا نَابِعَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ.. وَهَلْ بَعْدَ شَرِيعَةِ اللَّهِ إِلَّا الْهُوَى وَالضَّلَالُ؟!؟ فَهُمْ بِرِيدُونَ مِنْكَ

أن ترجع إلى دينهم وشاركتهم ضلالاتهم، إنهم لن يغدوا عنك من عذاب الله شيئاً، ولن يدفعوا عنك شيئاً مما أراد بك الله إن تتبع أهواءهم، فأنتم المصطفى المختار، والله ناصركم ومُعينكم. أما هم فإنهم كافرون لا ولهم في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما جمعهم الباطل، فهم يساندون فيما بينهم صدّك، ويناصر بعضهم بعضاً عليك، ولكنهم في النهاية أضعف من أن ينالوا منك شيئاً؛ لأنك في كتف الله ورعايته «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ أَوْلَى الْمُتَّقِينَ»^(١)، فأين ولایة هؤلاء الفسافر السادرين في الضلال والعمى والجهالة من ولایة رب العالمين، ولی المتّقين؟ إنه حسبهم، ويعينهم على أعدائهم، وكفى بالله ولیاً، وكفى بالله نصيراً.

إن هذا القرآن الذي أنزلته عليك إنما هو بصائر للناس يصررون به الحق والباطل، وما هو إلا نور وضياء في القلوب، يرشدها إلى طريق النجاة والفلاح، وليس إلا معالم تهدي إلى طريق الله وشرعه، وتبصر بأحكامه وحدوده، وما هو إلا رحمة يرحم الله به المؤمنين من غضبه وعداته.

ولكن .. متى يصبح هذا الكتاب الكريم هدىً ونوراً ورحمة وبصائر؟ إنه لا يترك هذا الأثر إلا في قوم يوقنون به، ويعتقدون أنه كذلك، ويفتحون له قلوبهم وعقولهم، ويؤمنون بالله قائله إيماناً صادقاً عن علم ويقين.

(١) سورة الحجية / الآية ١٩

(٣)

من الآية ٢١ إلى الآية ٢٦ من سورة الجاثية

أَمْ حِبَّ الْدِينِ

أَخْرَجُوا الْبَغَاتِ أَنْ تُجْعَلُهُمْ كَالَّذِينَ هَامُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً كَمَا يَعْمَلُونَ وَمَا نَهَا مَنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ⑯
وَحَلَقَ اللَّهُ الْمَسَنَوَتِ وَالْأَرْضَ يَلْهَقُ وَلَنْجَزِي كُلَّ
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ⑰ أَفَرَبَتْ مِنَ الْحَدَّ
إِلَيْهِمْ هُوَنَهُ وَأَضَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ
وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرَهِ عِشْرَةً قَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
يَذَكَّرُونَ ⑱ وَقَالُوا مَا يَعْلَمُ إِلَّا حِبَّاتُ الدَّبَابِيَّاتِ مَوْتٌ وَنَجْيَا
وَمَا يَبْلُكُ إِلَّا الدَّفَرُ وَمَا لَمْ يَذَكِّرْ مِنْ عِلْمٍ إِذْ هُمْ
إِلَّا يَطْعَمُونَ ⑲ وَإِذَا أَتَانَ عَلَيْهِمْ مَا يَتَنَبَّأُتْ مَا كَانَ
جَهَنَّمُ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُوَلَّنَا يَا يَاهْسَأَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑳
فَلَمَّا هُنَّ يَخْبَكُنَّ فَمْ يُبَكِّرُنَّ ثُمَّ يَجْمِعُوكُنَّ إِلَى بَعْرَمِ الْقِبْلَةِ
لَارِبَّ فِيهِ وَلَنَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ㉑

معاني الكلمات والجمل

أَمْ حَبَّ : اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ لِمَا فِي حُسْبَانِهِمْ وَظُنْهُمْ .

أَجْرَحُوا : أَكْبَرُوا الائِمَّا مُوْسِيَةِ الْكَفَرِ وَالْمُعَاصِي التِّي تُسِيءُ إِلَى أَصْحَابِهَا .

أَنْ تَعْلَمُهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَرُوا : أَنْ نَسُوْيَ بَيْنَهُمْ مَعَ اجْتِرَاجِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّلَاحَتِ السَّيِّئَاتِ وَبَيْنَ أَهْلِ الْحَسَنَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَقِيِّنِ .

سَوَاءٌ مَحِبُّهُمْ وَمَمْنَاهُمْ : وَنَسُوْيَ بَيْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، وَفِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ : فَيَقُولُ حُكْمُهُمْ ، وَيُشَرِّقُ قَصَّاؤُهُمُ الَّذِي يُسُوْيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .

أَفْرَيْتَ : أَخْبَرْنِي .
أَنْتَ إِلَيْهِمْ هُونَهُ : تَرَكَ عِبَادَةَ اللَّهِ ، وَأَطْاعَ مَا نَهَاهُ نَفْسَهُ .

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ : أَبْعَدَهُ اللَّهُ عَنِ الْهُدَى وَخَذَلَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْهُ بِالْحَقِّ ، أَوْ أَضَلَّهُ مَعَ عِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ ، وَلَا يَصْلَحُ إِلَّا لَهَا .

وَخُمِّ عَلَىٰ مَعْنَىٰ، وَقَلْبِهِ : طبع على سمعه وقلبه وأغلقهما،
فلم يعد يتأثر بالموعظ، ولا يفقه
الهُدَى.

وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَّةً : وضع على بصره غطاء، وجحجاً مانعاً
من رؤية الآيات والاتعاظ بها.

فَنِيدِيهِ مِنْ بَعْدِ أَنَّهُ : استفهام إنكارى يفيد أن لا أحد
يهدىء بعد أن حجب الله عنه
هدايته.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ : أفلأ تذكرون؟
يَمُوتُ وَيَحْيَا : يموت ويموت
فلا بعث ولا آخرة.

وَمَا يُلْكُنُ إِلَّا الْأَذْهَرُ : ما يقضى على حباتنا إلا مرور
السنين والأيام.

وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ : وليس لهم في قولهم هذا حجة ولا
بيبة.

إِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ : ما هم إلا شاكون متوهمنون،
يتحدثون بذلك عن ظنٍ لا عن
يقين.

بَيَّنَتْ : واصحات الدلالة على البعث
والنشر.

جَنَّهُمْ : مماها حجّة على سبيل التهكم
بهم.

أَنْوَيْغَا بَاتَّا

ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ إِلَى يَوْمٍ

الْقِبْلَةَ

لَارِبَّ فِيهِ

: أَخْيُوا لَنَا آبَاءَنَا الْأَوَّلِينَ .

: بِالْبَعْثِ وَالشُّورِ .

: لَا شُكُّ فِي مجْهَةٍ وَلَا ارْتِبَاطٍ .

الشرح

١ - خيبة ظن الكفار وسوء حكمهم:

نحن نؤمن بأن الله مولى الذين آمنوا في الدنيا والآخرة، وأن الكافرين لا مولى لهم، لكن ضلال الكفر يصور لاصحابه الحق باطلًا، والباطل حقًا، مثلما زعموا أنه لو كان هناك جزاءً حقًا وحساب فسوف يكونون أسعد حظًا من المؤمنين، كما قال بعضهم : « ولَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّمَا لِي عِنْدُهُ تَحْسِنَى »^(١). فهل يعقل الكفار الذين اكتسبوا المعاصي والسيئات، واجترحوا الآثام أن يكونوا في ميزان الله وعدله كالمؤمنين الصالحين الأبرار في حياتهم ومماتهم؟ كلاً، لقد خاب ظنهم، وساء حكمهم وقضاؤهم، فلا يمكن أن تستوي الحسنة والسيئة، والإيمان والكفر، والإصلاح والإفساد.. فالمؤمن في حياته عزيزٌ كريمٌ، مطمئنٌ القلب بطاعة الله، موفرٌ السعادة بالإيمان، مشغولٌ بفعل الخبر والإحسان، وهو

^(١) سورة العنكبوت / الآية ٢٠

بعد الممات ينعم برضوان الله وجنته، ويعيش في ظلال رحمته، وهو أعز مما كان في الدنيا وأكرم وأهون.

أما الذين رتعوا في الكفر والمعاصي، واجترحوا الآثام والموبيقات - فما أشقي حياتهم في هوان الكفر، وذل المعصية، وقلق الزوال من الدنيا أو زوال متعاشها عنهم! وما أتفه حياتهم وأحقر مقاصدهم! فهم في الشر يخوضون، وعلى مآثم الشر يموتون! فمحياهم بعث سوء، ومماتهم أكثر سوءاً؛ لأنهم باعوا بغضب الله، وأقبلوا على الآخرة بلا زاد إلا قبائح الأفعال، فهم في عذاب مقيم، وجحيم دائم، وهوإن ما بعده من هوان، وشتان بين الفريقين.

فلن يعود هذا القلن الخاطئ الكاذب على الكافرين إلا بخزي الدنيا وعذاب الآخرة!! فما كان لعدل الله تعالى وكماله أن يسوّي بين الأبرار والفجار . إن الله - سبحانه وتعالى - يبني الكون على أساس من العدل ، وربط خلق السموات والأرض بركيزة الحق بعيد عن العبث واللعب، واقتضت حكمته تعريف الناس بالحق والباطل ، والخير والشر ، والمعروف والمنكر ، ولا شك أن الحق والعدل يقتضيان التفريق بين المحسن والمسيء ، والمطبيع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، كما يقتضيان المحاسبة على نتائج الأعمال ، وإلا ضاعت حكمة التكليف . ولسوف يحكم

الله تعالى - بين الناس بالعدل الذي دعاهم إليه، وسبق كل
بين عباده في مظالمهم دون نقص في حسنات المؤمن، ولا
زيادة في سيئات الكافر؛ لأنَّه - تعالى - خلق السموات
والارض؛ لإظهار الحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت وَهُمْ
لَا يظلمون ^(١) ، ^(٢)

٢ - أهناك أشقي من يعبد هواه؟

وإذا كان الحق والعدل ركائزتين أصيلتين في خلق الله،
وفي شريعة الله، فهل رأيت أشقي من إنسان يترك عبادة الله
وشرعيته، ويتعبد هوى نفسه المريضة؟ إنه مهزوم من داخل
نفسه؛ إذ أسلم زمامه لشيطان الهوى، فهو مطهوس لشهواته،
لا يخالفها أبداً كأنها إلهه الذي يعبد! عجب له! ميزة الله
بالعقل؛ ليذكر به، وبالحواس؛ ليسمع وبصر، ويحسن آيات
الله في الكون. لكنه عطل كل هذه النعم، وأسلم نفسه
للهوى، فأورده موارد العين والرُّدُّ، وقاده إلى الكفر
والمنكر، وتركه متختطاً في طريق الرذيلة، فعاقبه الله بغلق
باب الهدایة في وجهه. فما أشقاه وأنعشه.

أرأيت أعجب من هذا الذي عطل مواطن حُسْنَه، وأغلق
منافذ تفكيره، فما يقي للهدي مكان في قلبه بعد أن طبع الله
عليه، ولا طريق إلى سمعه وبصره بعد أن ختم الله على

سمعه، وجعل على بصره غشاوة؟ أفرأيته وقد أضله الله على علم منه سبحانه بأنه مستحق للضلال، ثم استمر الأحمق سائراً في ضلاله دون توقف عالمًا بأنه يسير ضد الحق؟ إنه لم يعد يسمع لموعظة، أو ينصر ما يحيط به من آيات!! إن حالته تدعو إلى العجب حقاً! وبما أن الهدى لا يملكه أحد إلا الله، وهذا الضال قد استغنى عن ربه، واتخذ إلهه هواه **«فَمَنْ يَهْدِي مِنْ بَعْدِ اللَّهِ»** لا أحد في الوجود يستطيع ذلك. ولا شك أن اتباع الهوى هو من أبغض طلْمَانَ لِنَفْسِهِ، وجهله بحق ربيه، كما قال تعالى: **«بِإِنْ أَتَيْتَ أَذْلِكَنَّ طَلَبُواْ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِنْ أَخْلَقَ اللَّهُ وَمَا هُمْ مِنْ نَصِيرٍ»**^(١) لا هداية ولا توفيق لمن أضله الله، ولا نصر ولا تأييد، ولكنه الخذلان والضياع والخuran المبين !!

ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن هذا الصنف من الناس موجود في عصرنا بكثرة، نسأل الله لنا ولهم الهدى والتوفيق! ومع ذلك فرب العزة الذي كتب على نفسه الرحمة لا يغلق بابه في وجه تائب مُنْتَبِ؛ ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: **«أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»**^(٢) فهي دعوة إلى الانتهاء والاعتبار والعودة إلى رحاب الله. وكأنه يحث على اغتنام الفرصة قبل فواتها، ويقول: ألا تعظون وتعتبرون؟! ألا من صحوة

ترجعكم إلى طريق الهدى؟! ألا من تذكره تواظط الحسن، وتحيى موات القلوب، وتنتعلم من الصدور جذور الهوى الذي يهوي بصاحبه في العذاب الأليم؟! وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول: «الكيسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هُواهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(١). فلابد للعقلاء من التذكرة حتى تمتليء النفوس بنور الله، وتستضيء الحياة بشرع الله، ويستقيم أمر الناس على الحق، الذي لا يصل من سلك سبيله!

٣ - موقف المشركين من الآخرة:

لقد حذر الله الناس من أهوائهم، ودعاهم إلى التخلص من سطوة هذا الهوى؛ لأنه سبب بلائهم وشقائهم، قال تعالى: «وَلَا تَنْجِحَ الْمُرْقَى فَيُغَيْرُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَغْيِرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَمُمْعَنُ عَذَابٌ شَدِيدٌ إِمَّا أُنْسَا يَوْمَ الْحِسَابِ»^(٢). ولقد أضل الهوى كفار مكة، وجنح بهم بعيداً عن سبيل الله، وطريق الحق، فأنساهم يوم الحساب، وأنسى بعضهم نفسه وربه، فأنكر وجود الله: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا مَرْتُ وَخَيْرًا وَمَا يَلْكُنَّا إِلَّا الدَّهْرُ»^(٣)، وهكذا جمد الكفر عقولهم، ولوث أنفكارهم، وسفه أحلامهم، حتى أنكروا كل معقول، وأغلقوا قلوبهم

(١) سنن الترمذى، أبواب صفة القيمة (٢) سورة سُرُور / الآية ٤٦ (٣) سورة البانة / الآية ٤١

وحواسهم عن التور، واطمأنوا إلى هذا التفكير الضيق الساذج حين تبُّوا فكرة الدهريين، وقالوا: ليس وراء حياتنا هذه التي نعيشها الآن حياة أخرى بعد الموت، وما هو إلا جيل متى يحيا، وجيل يموت، يموت الآباء، ويختلفهم الآباء، وليس بعد ذلك نشر ولا حشر ولا جزاء. بل لا يوجد إله يحيتنا، ولا ملوك للموت يتولى قبض أرواحنا، وإنما مرور الأيام والسنين هو الذي ينهي حياتنا، والدهر هو الذي يهلكنا ويُفْنِي أعمارنا، وهذه المقولَة الكافرة يقولها الفلاسفة الدهريون وبعض كفار مكة الذين لا يؤمنون بوجود الله. أما باقية المُشركين فكانوا يعترفون بوجود الله، ولكنهم يتذكرون الساعة والبعث، وليس لهؤلاء الدهريين حجة فيما زعموا، ولا استناد إلى علم يقيني، وإنما هو الفتن والتخيّل، والوهم والتخيّل، والظن لا يعني من الحق شيئاً. وهي نظرة سطحية، لا تتجاوز المظاهر، ولا تبحث عما وراءها من أسرار. وإن فمن أين جاءت إليهم الحياة؟ وإذا جاءت فمن يذهب بها عنهم؟ والموت لا ينال الأجسام وفق نظام مُحدَّد، وعديد من الأيام معين؛ حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذي يسلِّمهم الحياة، فالأطفال يموتون كالشيخ، والأصحاء يموتون كالمرضى، والأقوباء يموتون كالضعاف، ولا يُصلح الدهر إذا تغيراً للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاجحة، ويحاول أن

يعرف وأن يدرك حقيقة الأسباب^(١) لهذا يقول الله عنهم بحق:
وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عَلِيمٍ إِنَّهُمْ لَا يَظْهُرُونَ^(٢) .^(٣)

على أن الإسلام قد صحق النظرة إلى الأيام والليالي بعد ما كان العرب في جاهليتهم قبل الإسلام ينسون كل حادث إلى الليل والنهار، فإذا أصابهم مكروه أو فضيّم تسبوا ذلك إلى الدهر. ولما أشرق الإسلام بنوره أفهمهم أن الله تعالى هو رب الليل والنهار، وهو الذي خلقهما، وبقدرته يصرّفهما ويقلّلُهما. قال تعالى «يُقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَةً لِأُولَئِكَ الْأَبْصَارِ»^(٤) ، فالزمّن لا يصنع بالناس خيراً أو شراً، وإنما ربُّ الزمان هو الذي يَتَّلُّ الناس بالخير والشر. وبعض الناس يجعلون هذه الحقيقة . فإذا ألمَّ بهم مكروه لعنوا الأيام وما تأتي به. وهذا خبرٌ من الجهل بالله ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «قال الله تعالى: يُؤذيني ابن آدم، يُسبُّ الدهر، وأنا الدهر، يُبَدِّي الامر، أَفْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»^(٥) .

٤ - حُجَّةٌ سطحيةٌ مرفوضة :

في ظلال الإيمان تكون الهدایة في الفعل والقول ، ولكن مُنكري البعث من مشركي مكة وغيرهم لم يتذوقوا يقين الإيمان ، حتى يعلموا الحق جوانحهم ، وإنما كان من تطاولهم

(١) في طلاق القرآن، للشيخ سيد قطب، رحمة الله . (٢) سورة الحجّة / الآية ٤٤ . (٣) سورة التور / الآية ٤٤ .

بالعناد، وإصرارهم على الصلال - أئمَّه إذا تُلِيتْ عليهم آياتُ القرآن وأضاحات الدلالة على إثبات العث، ما كان لديهم من حُجَّةٍ يُبَرِّرون بها إنكارهم ، إلَّا أَنْ فَلَوْ أَتَشْرَأْ بِعَيْنَيْكُمْ لَكُنْمَ صَدِيقُنَّ^(١) . فإنْ كُنْتَ صادقاً يا مُحَمَّداً نَّتَ وَمَنْ مَعَكَ، فَاخْبُرْنَا أَبَاءَنَا الْأَوْلَىنَ؛ لَنْسَالْهُمْ وَنَؤْمِنْ بِكَ وَبِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ فِي يَوْمِ الدِّينِ . إِنَّهُ كَلَامٌ بَاطِلٌ وَلَيْسَ بِحُجَّةٍ ، وَإِنَّمَا سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى حُجَّةٌ تَهْكِمُ بِهِمْ، وَاسْتَخْفَافًا بِتَمْسِكِهِمْ بِهَا؛ لَأَنَّهَا اقتراح ساذج لِقَوْمٍ ضَالِّينَ كَافِرِينَ . أَفَيْطَنَ أُولُوكَ الْأَنْعَمِ سِيَغْيِرْ نَوَامِيسَ الْكَوْنِ وَنُظُمَّهُ التِّي قَامَ عَلَيْهَا، مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الاقتراحاتِ الْبَاطِلَةِ؟ وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ اقْتَضَى حُكْمَهُ أَنْ يَقُومَ نَظَامُ الْكَوْنِ عَلَى أَنْ هُنَّاكَ حَيَاةٌ أُولَى، وَحِيَاةٌ آخِرَةٌ، وَأَنَّ الدُّنْيَا هِيَ مَجَالُ التَّكْلِيفِ وَالْعَمَلِ وَالْإِبْلَاءِ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ - أَفَيْغَيْرُ اللَّهِ هَذَا النَّظَامُ مِنْ أَجْلِ إِقْنَاعِ قَوْمٍ يَقُولُونَ: إِنَّا بَابَانَا بَعْدَمَا مَاتَوْنَا حَتَّى نَؤْمِنْ بِالْبَعْثِ؟ وَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْلَمْ يَؤْمِنُوا؟ هَلْ سَقَطَ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ؟ هَلْ يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ شَيْءٌ؟ وَلَذِلِكَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَرِدَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: قُلْ أَلَّا يَخِبِّئَ مَنْ يَبْتَكِرُ ثُمَّ يَجْمِعُكُمْ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَأَرَبَّ فِيهِ^(٢) اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ حِينَ كُنْتُمْ نُطْفَاءً فِي الْأَرْحَامِ، وَيَعْثُ فِي كُمُ الْحِيَاةِ، وَأَنْتُمْ تَرَوُنَ هَذَا فِي

حياتكم، وتشهدون نظائره بين أيديكم. والله هو الذي يمينكم عند انقضاء آجالكم، التي قدرها لكم وفق مشيته العليا، لا كما تهوى أنفسكم، ثم بعد الموت يعثركم ويجمعكم إلى يوم القيمة للحساب والجزاء، كما أجيابكم في الدنيا، فقد أنشأكم ولم تكونوا شيئاً مذكورة. فهو قادر على إعادتكم ثانية، وهذا أهون على قدرته، فجمعكم في هذا اليوم لا شك فيه ولا ريب. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم يجهلون قدرة الله علىبعث، ولا يدركون هذه الحقيقة بسب عنادهم وإهانتهم التفكير الصحيح بعد أن أعمدهم الكفر والضلال. ولو أنهم تدبروا وفكروا ما رأوا في أمر البعث غرابة على قدرة الله، التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء. ولرأوا بعين اليقين أن الله - جلت قدرته - يتولى إحياء الكثير من المخلوقات، وتنشىء الحياة في كل لحظة كما ينشئ الموت، ولعلموا أنه ما كان ثمة داع إلى الشك والارتياب في قدرة الله، وبخاصة أنهم يعترفون بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض وما فيها. ولكن من أضل ممن اتبع هواه بغير هدٍ من الله؟ *وَرَبَّا لَا تُرِغَّ فُلُوسًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَ*
وَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ (١١).

(٤)
من الآية ٢٧ من سورة الحجية إلى آخر السورة

وَاللهِ
 مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمٌ إِذْ
 يَخْرُجُ الْمُبْطَلُونَ ۝ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاءِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعُنَ
 إِلَيْكُمْ يَوْمَئِذٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَذَا كِتَابُنَا
 بَسِطْقُ عَلَيْكُمْ الْحَقُّ إِنَّا كَانَتْنَا نَخْرُجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝
 فَإِنَّمَا الَّذِينَ ظَاهَرُوا وَخَلُوُا الصَّالِحَاتِ فِي دُخُولِهِمْ رَبِّهِمْ
 فِي رَحْمَةٍ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْغَورُ الْمُبِينُ ۝ وَإِنَّمَا الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَفَلَمْ يَكُنْ ءَايَتِي نُشَلَّى عَلَيْكُمْ فَاتَّكَبْرُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
 شَغَرِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَارِبٌ
 فِيهَا قُلْتُمْ مَآنِدِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظَرْنَا إِلَيْنَا وَمَا نَحْنُ
 عُنْتَقِينَ ۝ وَبِهَا لَهُمْ سِيَّعَاتٌ مَا عَلِلْوَا وَحَافِرِيْمْ
 مَا كَانُوا يَهْدِءُ بَشَرِّيْمَ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَذَرْكُمْ كَمَا

سَبِّبْ لِقَاءَ يَوْمَكُ هَذَا وَمَا وَنَكُ النَّارُ وَمَا تُمْ من
 نَصِيرٍ ④ ذَلِكُ مَا نَكُ الْعَذَابُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
 وَغَرَّكُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
 يُسْعَى ⑤ فِيهِ الْحَمْدُ لِرَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ
 وَرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥ وَلَهُ الْكَبِيرَيَّةُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الْمَكِيمُ ⑦

معاني الكلمات والجمل

- يَخْرُجُونَ** : ينكشف ويظهر خسران المستمررين
 على الباطل من الكافرين المكذبين
 يوم الدين.
- وَرَبِّ الْعَالَمِينَ** : وترى كل أمة جائزة
 ملة باركين على الرُّكِب؛ لشدة
 الهول.
- تُدْعَنَ إِلَى كِتَبِهَا** : تُطلب لأخذ صحائف أعمالها.

هَذَا كِتَبْنَا

بِسْجِلِهِ عَلَيْكُمْ .

بَنَطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ

أَعْمَالِكُمْ .

تَسْتَخِرُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ : نَأْمَرُ الْمَلَائِكَةَ الْحَفَظَةَ بِتَسْخِيرِ

أَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَكِتَابَهَا إِثْبَاتَهَا .

فَبِدِخلِهِمْ رَبِّهِمْ فِي رَحْمَتِهِ : فَيَدْخُلُهُمْ رَبِّهِمْ فِي جَنَّتِهِ ، وَسُمِّيَتْ

الْجَنَّةُ رَحْمَةً لِأَنَّهَا مَكَانٌ تَنْزَلُ فِيهِ

رَحْمَةُ اللَّهِ .

الْفَوْزُ الْمُبِينُ

: الْفَوْزُ الظَّاهِرُ وَالْفَلَاحُ الْوَاضِعُ .

فَأَسْتَكْبِرُمُ

: تَكْبِرُتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَتَصْدِيقُهَا .

إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

: إِنْ وَعَدَ اللَّهُ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ حَقًّا .

وَالسَّاعَةُ لَأَرْبَبٍ فِيهَا

: وَالْقِيَامَةُ لَا شُكُّ فِي وَقْعَهَا .

وَالسَّاعَةُ لَأَرْبَبٍ فِيهَا

: قُلْتُمْ : نَحْنُ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ،

وَأَيْ شَيْءٌ هِيَ ؟

إِنْ نَظَنْ إِلَّا ظَنَّ

: مَا نَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا ظَنَّا وَحْدَنَا

وَتَحْمِلُنَا .

وَمَا تَعْنِي عُسْتَقِينَ

: لَا نَسْتَقِنُ وَقْعَهَا .

وَدَاهِلُمُ

: ظَهَرَ لَهُمْ .

وَحَاقَ بِهِمْ

: أَحْاطَ بِهِمْ وَنَزَلَ .

نَسْكُنْ : ترككم في العذاب فلا ننذكم .
 كَمَا نَسِيْتُ لِقَاءَ يَوْمِ الْحِسْبَارِ : كما تركتم العمل للقاء هذا اليوم .
 هَذِهِ مَنَّا وَمَا وَرَكَنْتُمْ إِلَيْهَا : هذى
 مُنْزَلُكُمْ وَمُسْتَقْرُكُمْ .
 اسْتَهْزَأْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُوا : استهزأتم بآيات القرآن .
 خَدْعَتُمْ بِهَارْجَهَا وَأَبَاطِلَهَا .
 لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يُرْضُوْا رَبَّهُمْ .
 لَا يَسْتَحْقُ الْحَمْدُ سَوَاهُ ، جَلَ شَانَهُ .
 وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَالْمُلْكُ
 وَالْسُّلْطَانُ الْقَاهِرُ .

الشرح

١ - القيامة تُظْهِرُ للمبطلين خسرانهم :

ما أحسن الضالون المبطلون إلى أنفسهم ، ولا احترموا
 عقولهم ، وما قدروا الله حق قدره حين تصوروا عجزه سبحانه
 عن إحياء الموتى وبعثهم !! فكيف ينكرون على الله ذلك ؟
 وهو مالك الكون ، والمهيمن على أمره ، والمتصرف في كل
 شئونه - سمائه وأرضه ، وعلوه وسفله ، ويقدرته الإنشاء
 والخلق والإحياء والإماتة ، لا منازع له في ذلك ؟ لماذا لا

يفسرون الغائب على الشاهد؟ لماذا يستبعدون على الله
الخلق وهو الخالق؟

إن رب السموات والأرض قد أثبأ بقيام الساعة، **وَيَوْمَ تَقُومُ الْأَنْعَامُ
يَوْمَئِذٍ يَخْرُجُ الْمُبِطَّلُونَ**^(١) . وأية حسارة تلك التي تحل بهم حين
تواجههم الساعة وقد أنكروها؟ ويحاسبون وما أعدوا أنفسهم
لهذا الحساب؟ ويعاينون هنالهم في الجنات يتمتع بها
المستحقون لها من المؤمنين وقد خرُّفُهَا عليهم جهالهم
وإصرارهم على المعتقدات الباطلة؟ وتنزل بهم الحرفة ناراً
تکوي قلوبهم بعد أن اتضح لهم مدى خسارتهم بالخلود في
النار بسبب كفرهم وجحودهم !!؟

٢ - صور من هول القيمة:

ومن هول ذلك اليوم ترى أهل كل ملة مجتمعين متميزين
عن غيرهم من الأمم يجلسون جائين على رُكِّبِهِمْ وأطرافِ
أصابعهم من شدة الخوف والفزع - إلا إنه جمع هائل يضم
هذه الحشود البشرية، والأمم التي سكنت الأرض وعمرتها
منذ آدم إلى قيام الساعة؛ إنه وحده لأمْرٍ مذهل يملأ النفس
رهبة وخيبة !

وهذه الصورة التي تمثلها ساحة العرض يومئذ وقد جئتُ
الأمم على الرُّكُبِ في ذهول ورعب، يتظرون في خيبة،

(١) سورة الجاثية / الآية ٤٧

ويرقبون الحساب في رهبة، إنه اليوم الموعود والمرهوب !
ثم تُدعى كل أمة لتناول صحائف أعمالها في كتاب لا يغادر
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويقرأ كل فرد ما سُجل عليه من
أعمال في الدنيا، ويقال في هذا اليوم المشهود : «أَقْرَأْكُتُبَاءَ
كُنْ تَنْقِسَكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»^(١) إنها أعمالكم أحصيناها
عليكم بخيرها وشرها، وهذا كتابنا الذي سجلنا فيه كل ما
صدر عنكم، يشهد عليكم، وينطق بالحق دون زيادة أو
نقصان، فقد نَفَدَ الملائكة الحفظة أمرنا بكتابة أعمالكم،
ونسخها في صحائفكم، وهم لا يعصون الله ما أمرهم
ويفعلون ما يؤمرون . . إنَّه يوم الفزع الأكبر، فاللهم سلم
عبادك المؤمنين من أهواه إِنَّكَ أَنْتَ الرَّؤوفُ الرَّحِيمُ .

٣ - ثم يأتي الجزاء العادل :

وبعد الحساب العادل؛ يمتازون إلى فريقين: الأشقياء
والسعداء، المؤمنون والكافرون؛ فاما المؤمنون الذين عملوا
الصالحات، واتقوا ربهم في الدنيا، فثوابهم أن يدخلهم الله
في رحمته وجنته، ويشملهم بالرضوان الأكبر، وفيض عليهم
من نعمه، وإن لفوز عظيم، لا يُعَدُّ فوز، وثواب كريم لا
يدانيه ثواب؛ ويكتفى أنهم مقيمون في ضيافة الرحمن

^(١) سورة الإبراء / ٤٥

الرحيم : « وَمَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَشَ اللَّهُ وَيُتَّقِهِ فَأَوْتَنَاكُمْ
الْفَلَّٰئِنَّ »^(١) . وحسبيهم انهم بحاجة من النار ، وفازوا بالجنة
مع الابرار !!

واما الذين كفروا فسائلون في تأنيب طويل ، وتوبخ
مخجل ، وتقرير اليم . هل اهملتكم قلم نكن رسلي تقرأ
عليكم آياتي التي تذكرون بالبعث والجزاء ؟ ألم يرشدوكم
إلى الإيمان ؟ ألم يوضحوا لكم الصواب ؟ .. لقد أدوا
رسالتهم ، وبلغوا الآيات فكلذبتموها ، وتكبرتم على الإيمان
بها ، وأعرضتم عن الصواب ، وكتمت قوما مجرمين ، عارفين
في الشرك والمعاصي . مستكبرين عن سماع الحق من أفواه
الرسل ، ألا تذكرون موقفكم منهم عندما كانوا يذكرونكم بأن
وعد الله بالبعث والجزاء حق ، وأن قيام الساعة أمر يقيني
لاشك فيه ؟ بماذا كنتم تقابلون هذا اليقين ؟ بالاستكبار
والعناد ، وقولكم مستهزئين متذكرين : لا علم لنا بهذه الساعة ،
أي شيء هي ؟ ما حقيقتها ؟ ما معاملتها ؟ « ما ندرى ما الساعة ؟ وما
نظلها إلا ظنا ، وما لنا بها من علم إلا أن يكون وهمنا وخذلنا
وتخيمنا ، ونحن في واقعنا نرفض الإيمان بها ، وما نحن
بمستيقن بهذه الآخرة .

لكن وعد الله حق - وحين يجتمعون للحساب ، تظهر لهم

سيثات أعمالهم، وتبعدوا لهم قبائح معاصيهم، مخزية مخجلة، فاضحة مزرية، وينزل بهؤلاء المنكوبين العذاب الذي يستحقون، ويحل بهم في هذا اليوم ما كانوا به يستهذفون من آيات الله البينات، ويدركون أنه لا مناص لهم من النار، وبئس المصير .

أحاط العذاب بمنكري البعث الذي كانوا به يستهذفون، ثم يزداد في تعذيبهم بالترذيل والتحفير، ويقال لهم: «اللَّهُمَّ نَسْكُرُ كَمَا أَسْبَتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا»^(١). فالیوم نترككم في عذاب جهنم، ونهمل أمركم فيها كالمنسيين، كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا، ونسيتم لقاء الله والوقوف بين يديه للحساب، فلا مأوى لكم اليوم ولا مستقر إلا النار، التي لا تخرجون منها أبداً، ولا تجدون من ينقذكم منها، وينصركم ويعنكم العذاب.

٤ - ما أصابكم بسبب أعمالكم :

ذلك الذي فعلناه بكم، وأصابكم من العذاب؛ بسبب أنكم في الدنيا استهذفتم بآيات الله التي أنزلها على رسوله، وسخرتם من القرآن الكريم، وخدعتم مظاهر الدنيا الزائفة، وغرتكم زخارفها وبهارجها الباطلة، فاشتعلتم بها عن العمل الذي ينجيكم من هذا العذاب، وظنتم مخدوعين لا حياة بعد حياتكم في الدنيا ولا بعث هناك ولا نشور. والیوم تحقق

(١) سورة الحجية / الآية ٣٤

عدل الله فيكم، وهأتم أولاء متrocون في جهنم منبذون فيها
لا تخرجون منها، ولا يطلبونكم أن ترضاوا ربكم بالاستغفار
والتنورة فهذا يوم لا تقبل فيه توبة، ولا تفع في معدة، لأن
هذا وقت الجزاء، وقد مضى أوان العمل . هـ هذا يوم لا
يُطْعَنُ ﴿١﴾ ولا يُؤذن لِمَنْ فِي عِتْدَرَوْنَ ﴿٢﴾ وَلِمَنْ يَوْمَئِدُ لِمَكَدَّرَنَ ﴿٣﴾ .
(١) .

٥ - لَهُ الْحَمْدُ وَلِلثَّائِ الْحَسْنَ:

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ، فَلَا يَسْتَحْقُ الْحَمْدُ وَالثَّنَاءُ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ؛ لَأَنَّ
الْفَيَاضَ بِالنَّعْمَ، وَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمَتَولِي بِرَبِّيَتِهِ
أَمْرُ الْكَوْنِ وَمَا فِيهِ وَمَنْ فِيهِ، وَالْمَدِيرُ لِأَمْوَارِهِ، الْمُتَصْرِفُ فِي
شَوَّافَتِهِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَلَى رِعَايَتِهِ لِخَلْقِهِ،
وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، بِلِ رَحْمَتِهِ وَبِرِّهِ بِكُلِّ مَخْلوقَاتِهِ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَلَهُ وَحْدَهُ - جَلَّ شَانَهُ - الْكَبْرِيَاءُ
وَالْعَظِيمَةُ، وَالْجَلَالُ وَالْمُلْكُ، وَكَمَالُ الْبَقَاءِ وَالسُّلْطَانُ فِي
الْعَالَمِ كُلِّهِ، فَكُلُّ الْجَيَابَرَةِ صَغَارٌ خَاضِعُونَ لِعَزَّتِهِ وَجَبْرُونَهِ،
فَهُوَ سَبَحَانُهُ الْعَزِيزُ فَلَا يُغَلِّبُ، الْحَكِيمُ فِي كُلِّ مَا شَرَعَ وَقَدَرَ،
وَأَنْزَلَ وَدَبَرَ، فَلَا يَنْسَى وَلَا يَخْطُئُ.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

* * *

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(٢) سورة الطلاق / الآيات ٣-٤

أودع بمركز المعلومات التربوية تحت رقم ٤١ بتاريخ ١٣/١/١٩٨٧ م.

المدرسة:

اسم الطالب:

الصف: